التعابير القرآنية في مشاهد يوم القيامة

دراسة دلالية جمالية

الأستاذ الدكتور
ابتسام مرهون الصفار





www.darsafa.net



﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾

صدق الله العظيم

التعابير القرآنية في مشاهد يوم القيامة

دراسة دلالية جمالية

التعابير القرآنية في مشاهد يوم القيامة

دراسة دلالية جمالية

الأستاذ الدكتور

ابتسام مرهون الصفار

الطبعة الأولى

2012 م — 1433 هـ



دار صفاء للنشر والتوزيع - عمان

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (3876/ 10/ 2010)

244 .7

الصفار، ابتسام مرهون

التعابير القرآنية في مشاهد يوم القيامة: دراسة دلالية جمالية/ ابتسام مرهون الصفار._ عمان: دار صفاء للنشر والتوزيع 2010 .

( ) ص

ر . أ: (3876/ 10/ 2010)

الواصفات : اليوم الآخر// الايمان// الاسلام/

* تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

الطبعة الأولى

2012 م - 1433 هـ



دار صفاء للنشر والتوزيع

عمان - شارع الملك حسين - مجمع الفحيص التجاري - تلفاكس4612190 6 962+

هاتف: 4611169 6 962 + ص.ب 922762 عمان - 11192 الاردن

DAR SAFA Publishing - Distributing
Telefax: +962 6 4612190 – Tel: + 962 6 4611169
P.O.Box: 922762 Amman 11192- Jordan
http://www.darsafa.net
E-mail :safa@darsafa.net

ISBN 978-9957-24-687-7 ردمك

الفهرس

الفصل الرابع: القضاء بين الناس

الفصل الخامس: العقاب بالنار

الفصل السادس: الثواب بالجنة

المقدمة

لقد كان القرآن الكريم – معجزة الرسول العربي الدينية – حدثاً عظيماً في حياة العرب أحدث انقلابا في حياتهم السياسية والفكرية والأدبية؛ لأن اللغة العربية كانت في أوج ازدهارها، وتقدمها فجاء القرآن الكريم في بلاغته وبيانه معجزاً مثيراً لها مواقف العرب آنذاك. وهم أهل لَسَن وبلاغة. وأثار أسلوبه البياني دهشة العرب، فسرعان ما آمنت به نفوس بعضهم، واطمأنت لما فيه من أحكام وتعاليم، وضلت الأخرى عن الهدى، ولكن الأسلوب القرآني خلب ألبابها، وآثار دهشتها فقالت ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ سورة المدثر ٧٤ : ٢٤ وأراد الله سبحانه وتعالى أن يثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فلم يختر إلاّ الأسلوب القرآني يتحدى به العرب أن يأتوا بسورة من مثله

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَادْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ سورة البقرة: ٢: ٢٣-٢٤. واجتمع جبابرة قريش وفطاحلها ولكن بغير جدوى؛ لأن الآيات الكريمة تواجههم بأسلوب خاص يسحر الألباب. وقصة إيمان عمر بن الخطاب لمجرد سماعه آيات من الذكر الحكيم مشهورة تذكرنا بالتأثير العظيم الذي كان القرآن الكريم يتركه في نفوس سامعيه مسلمين ومشركين. ومن هنا أكد

القرآن الكريم ضرورة سماع المشركين للآيات الكريمة، لأنهم إن سمعوها لا بدَّ أن يتأثروا بأسلوبها الرائع ﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ سورة التوبة: ٩-٦ . ولنا أن نتساءل هل يستطيع القارئ العربي في هذا العصر أن يفهم الآيات الكريمة كما فهمها العرب أيام نزولها؟ مما لا شك فيه أن القرآن الكريم خالد معجز بروعة أسلوبه، وجماله البياني إلا أن القارئ العربي اليوم يقرأ الآيات الكريمة فيعجب بها، ويفهم المعنى العام منها، حتى إذا تعمق في فهم الآيات الكريمة وجد فيها معاني لم يفهمها من قبل، وروعة لا يلحقها أسلوب آخر، فيتأمله بإعجاب لا يستطيع معه إلا أن يقرَّ مع الأقدمين بإعجازه وروعة بيانه.

إن فهم القرآن بدراسة دلالة ألفاظه تقربنا من الصورة التي فهمها العرب، لأن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن بلغة العرب، وأساليبهم الكلامية. ومن هنا تفيدنا دراسة دلالة التعابير القرآنية على فهم الإعجاز الذي ترسمه الآيات الكريمة المختلفة، وهي دراسة تفتقر إليها المكتبة العربية – خاصة الحديثة – التي صبَّت أكثر اهتمامها على الأدب والشعر ناسية دراسة القرآن الذي يمثل روعة العربية في سحرها وبيانها.

ودراسة البيئة أمر مفيد، لأن لها أهمية عظيمة في توجيه تفكير الإنسان وتطوير لغته؛ لأن الإنسان ابن بيئته فيها يعيش، وعليها تنمو لغته وأساليبه في الحياة. ومع أن الأقدمين لم يولّوا دراسة البيئة أهمية كبيرة إلا أننا لا نعدم إشارات لطيفة أوردها الجاحظ مبيناً أهمية البيئة في خلق الإنسان وعاداته، وتبعه في هذا آخرون كابن رستة والقزويني وابن خلدون وغيرهم ممن نهج منهج الجاحظ، إلا أن هذه كلها كانت إشارات تعطينا بداية لمثل هذا البحث الطريف.

أما دراسة التعابير القرآنية على ضوء البيئة العربية فمنهج تفتقر إليه الدراسات القرآنية أيضاً، ذلك لأن المفسرين اتجهوا كل إلى وجهة خاصة في تفسير القرآن الكريم فمنهم من أولى غريب القرآن اهتمامه كأبي عبيدة والسجستاني، وابن قتيبة، ومنهم من شابت تفسيره أخبار أهل الكتاب وما يسمى بالاسرائيليات كمقاتل بن سليمان مثلاً، ومنهم من صب اهتمامه على الناحية الفقهية والمذهبية كالتستري، وفرات الكوفي مثلاً. ومنهم من اعتمد على نقل الروايات في التفسير كالطبري والطوسي. وأخيراً هناك من وجه اهتمامه ليدافع عن فكرة التزمها كالزمخشري في تفسيره حين ضمنه تأكيده على مذهب الاعتزال إلى جانب اهتمامه بالأسلوب البياني فحاول أن يبين أوجه المجاز الذي استعملت فيه الكلمة ثم ما يعكسه هذا المجاز في بعض الأحيان من دلالة على البيئة والذوق العربي كما سنراه في بحثه عن الزرقة.

أما المعاجم اللغوية فقد رتبت فيها الألفاظ ترتيباً أبجدياً، واهمل فيها التدرج التأريخي لتطور دلالة الكلمة. ومن هنا كان بحثي قياساً إلى تفاسير الأقدمين دراسة جديدة في فهم التعابير القرآنية ودلالتها مفردة ومركبة، إلا أن هذا لا يعنى انعدام الإشارة إلى هذا المنهج عند الأقدمين. فقد حاول ابن فارس في معجم مقاييس اللغة أن يضع أصلاً واحداً أو أصلين لكل كلمة تدور حوله جميع مشتقاتها مع تطور معانيها، إلا أنه يختلف عن منهجنا في هذه الرسالة في أنه يضع الاستعمال المعنوي للكلمة أصلاً لها، فيبتعد بذلك عن البيئة التي يشترط أن تبدأ فيها دلالة الألفاظ الحسية، ومنها تتطور إلى المجازية والمعنوية. كما نجد في كتاب الزينة للرازي محاولة جديدة في هذا الباب لدراسة الألفاظ الإسلامية، وتتبع معانيها الأصلية إلا أنه ما أن يسير شوطاً على هذا المنهج

حتى ينحو في بحثه نهج معاصريه، فيتحول بحثه إلى دراسة عن الفرق، والمذاهب الإسلامية مبتعداً عن المنهج الذي سار عليه في أول كتابه. ونجد مثل هذا بصورة أوضح عند الشريف الرضيّ في شرحه لمجازات القرآن الكريم والحديث النبوي، والشريف المرتضى في أماليه حين بيَّن أوجه المجاز، وعاد بنا إلى الأصل الحسي- لبعض الدلالات والمجازات، ولكنها أيضاً إشارات محدودة، وليست منهجاً معيناً بذاته.

كل هذه الطرف والالتفاتات الرائعة في فهم دلالات الألفاظ التي وجدناها عند الأقدمين ألقت ضوءاً كاشفاً رسم لنا معالم هذا البحث، وأخذ بأيدينا للسير في خضم التعابير القرآنية، وما توحيه من الصور الرائعة الكثيرة.

وقد وجدنا في دراسة بعض المحدثين عوناً لنا في هذا البحث كان أولها محاضرات النقد الأدبي التي ألقاها علينا أستاذنا الدكتور جميل سعيد والتي وجهنا فيها إلى دراسة البيئة والذوق العربي قبل دراسة النص الأدبي؛ مما أعاننا في تذوق النصوص الأدبية وفهمها فهماً بيانيا. ثم محاضرات فقه اللغة التي وجهنا فيها الاستاذ الدكتور إبراهيم السامرائي لدراسة اللفظة دراسة موضوعية ترتب فيها معانيها ترتيباً تأريخياً إبتداء من اصولها الحسية إلى المجازية. وفي الجمع بين هذين التوجيهين بدأ إعجابي بمثل هذه الدراسات القيمة. ثم كانت محاضرات السنة التحضيرية (البيئة الصحراوية وأثرها في الأدب الجاهلي) لأستاذي الدكتور جميل سعيد فاتحة جديدة لبحث تطبيقي لأهمية البيئة على الأدب واللغة بصورة عامة. كان يؤكد لنا فيها ضرورة تطبيق هذا المنهج على نص القرآن الكريم مما وجهني إلى كتابة بحث صغير في موضوع الجنة والنار

فتح أمامي أبواباً واسعة لهذا البحث الطريف وعلق نفسي بدراسة القرآن الكريم. ومن هنا كانت فكرة الرسالة وتوسيع ذلك البحث الصغير إلى بحث دقيق موجه.

أما دراسة القرآن الكريم وفق تصورات البيئة العربية، فأول ما وجدته في مقال قيم نشرته مجلة البينة المغربية بعنوان البيئة العربية في القرآن الكريم للأستاذ الدكتور إبراهيم السامرائي عرض فيها صوراً رائعة من البيئة العربية متجلية في مشاهد عديدة من القرآن الكريم مما ألقى كشفاً جديداً على منهجي في هذا البحث.

وممن كتب في هذا الموضوع الدكتورة بنت الشاطئ في كتابها (التفسير البياني للقرآن الكريم) الذي حاولت فيه دراسة الأسلوب القرآني بما يوحيه من صور بيانية، مبتعدة في ذلك عن الشروح اللغوية واستطرادات المفسرين. وبحثها هذا يختلف عن منهجي في الرسالة في أنها اكتفت بفهم المعاني المتعددة التي يوحيها اللفظ، على حين حاولت أن أضيف إلى هذا دراسة البيئة العربية، وأبرز صورها بما وصل إلينا من نصوص شعرية تجلي لنا موحيات التعابير القرآنية أكثر فأكثر. يضاف إلى هذا أن كتابها خصته لتفسير بعض السور القصار دون غيرها من الآيات، ولكنه بحث قيم في توجيه دراسة القرآن الكريم دراسة بيانية جمالية.

أما كتاب مشاهد القيامة في القرآن الكريم لسيد قطب فإنه يختلف تماماً عن منهجي في هذا البحث إلا أنني استفدت من أسلوب الكاتب الرائع في عرض الآيات الكريمة عرضاً أدبياً في كل صورة تخص يوم القيامة.

لقد عنيت دراستنا بتتبع دلالات التعابير القرآنية، بالعودة إلى معانيها اللغوية التي وردت في الشعر الجاهلي ثم ما أحيط بها من دلالات جديدة في التعبير القرآني باحثين عن السياق الذي منح الألفاظ والتعابير حياة جديدة، وشحنها بالايحاءات المتعددة التي تمنح السياق جمالية في التعبير والأخيلة والتصوير.

إن فهم الدلالات اللغوية للتعابير القرآنية يوصلنا حتماً إلى فهم جمالية الآيات الكريمة بفهم الدلالات المختلفة التي قد تبدو مترادفة على ظاهر الفهم، مشحونة بالمعاني الجديدة في القراءة المتمعنة المفكرة. وفهم الدلالات يوصلنا إلى تقارب مهم مع البيئة العربية، وتصوير القرآن الكريم لها.

وقد خصصت مشاهد القيامة بهذه الدراسة، لأنها تشكل لنا سلسلة من المشاهد المتتابعة تبدأ منذ اللحظة الأولى التي يحدد فيها يوم القيامة إلى الخلود الأبدي، وانطلاقاً من هذه الفكرة كان منهجي في تقسيم أصول الرسالة. فكل فصل منها يمثل مشهداً كاملاً متعدد الجوانب والصور لا يمكن أن نقدمه على فصل آخر؛ لأن مجموع الفصول تمثل مجموع الأحداث التي تجري يوم القيامة. هذه الأحداث تتتابع، فتشكل لنا صوراً كاملة لمشاهد القيامة.

فأول مشاهد القيامة نجده في **الفصل الأول: النفير (بعث الناس من القبور)** وقد صور بعدة تعابير قُسِّمت إلى ثلاثة مجاميع: الصور والناقور، وتشكلان الصورة الأولى التي يكون النفير فيها بواسطة آلة ينفخ فيها. أما المجموعة الثانية فيمثلها تعبير الداعي والمنادي. أما المجموعة الثالثة، فهي التي تمثلها الزجرة والصيحة اللتان تصوران النفير بأنه يكون بواسطة صوت مفزع دون تحديده بآلة أو شخص. وقد

حاولت تتبع إيحاءات كل تعبير، ثم دلالتها بمجموعها على النفير المفزع الذي يبعث الناس من قبورهم.

أما **الفصل الثاني ففيه تصوير للظواهر الكونية، والاضطرابات التي تحدث يوم القيامة** وقد حاولت أن استشف من مجموع هذه الظواهر الرهيبة بعض جوانب البيئة العربية، وكيف أن العرب استطاعوا أن يتصوروا اضطراب السموات والأرض يوم القيامة بما عرفوه في بيئتهم من ظواهر طبيعية، رسخت صورها في أذهانهم.

وفي هذا الخضم المضطرب للسموات والأرض تبدأ صور أخرى نجدها في **الفصل الثالث: صفة الناس يوم القيامة،** حيث يبعثون من قبورهم فتفزع نفوس الكافرين ويسرعون على غير هدى وقد شملهم اليأس، وذلَّت نفوسهم. أما صورة المؤمنين فإنها تنساب بهدوء رائع غير مبالين بالفزع الذي يشمل الكون كله.

وبعد أن تكتمل صور الإضطراب المفزع يبدأ مشهد آخر، وهو الذي بحثته في **الفصل الرابع: (القضاء بين الناس)** حيث يقف الناس أمام قضاء عادل سوي لا تشوبه شائبة من الباطل وقد نفت الآيات الكريمة وجود القيم الجاهلية التي سادت المجتمع العربي فأضاعت الحق، فلا شفاعة ولا فداء، ولا أي وسيلة من الوسائل التي كان العرب يتخلصون بواسطتها من العقاب. وقد صورت دقة الحساب بصور حسية وثيقة الصلة بالبيئة العربية، تلك التي عرفها العربي في الموازنة والمعادلة بين الأشياء المادية.

وكذا الأمر في نتيجة الحساب وما يعكسه من صور البيئة العربية والبيئة الإنسانية عامة.

أمـا **الفصل الخـامس فانـه يمثـل المشهد الـذي يتبـع القضـاء حيث يعاقـب المجرمون**. وقد صور بعدة تعابير لها دلالتها الوثيقة الصلة بالبيئة العربية، وتتداعي فيها الإيحاءات في كل تعبير يرسم لنا صورة النار، أو تسميتها أو لـهيبها، أو في صفة شراب أهل النار والعطش الدائم الذي يعانون منه، وما ينقله من صور العطش المضني الـذي عاناه العربي في الصحراء الشحيحة بالماء.

وأخيراً **الفصل السادس، الثواب بالجنـة**، وقد حاولت فيه أن أستشـف بعـض جوانب البيئة العربية. فالخضرة الدائمة، والأشجار المتنوعة نستشف منها صوراً رائعـة تعكس لنا أهمية الماء في البيئة الصحراوية والصـورة الجميلـة التـي يرسـمها في الـذهن العربي، ثم أهمية اللبن والعسل والخمـر ومـا تعكسـه هـذه الصـور مـن ملامـح البيئـة العربية.

أما **المصادر والمراجع**، فقد تنوعت بتعدد المواضيع التي طرقتها في هذا البحث فاضطررت إلى مراجعة كتب الأدب العامة أستشف منها لمحات عن الذوق العربي والبيئة العربية ثم التفاسير القرآنية، وما يتعلق بالقرآن والفقه من دراسات في هذا الباب والمعاجم اللغوية لأتتبع فيها معاني الكلمة ودلالتها وبعض الكتب الجغرافية لأجد فيها ملامح البيئة العربية. وقد اعتمدت على الدواوين الشعرية أستشف منها صور البيئة العربية التي خلدها الشعراء فيها وقد حاولت أن أجد نسبة للأبيات، ولكن هناك أبياتاً تمثل بها المفسرون أنفسهم دون نسبتها إلى قائليها فهي بين أمرين؛ أمّا أنها كانت معروفة في زمانهم فاستغنوا عن ذكر قائلها، وأما أنّها لشاعر مجهول تمثلوا بأشعاره. فسرت على هذا المنهج ولم أكتف بالشعر الجاهلي، بل جاوزته إلى الإسلامي والأموي لأن منهج الشعراء لم يتبدل إلاّ قليلاً، ثم إنني وجدت المفسرين يتمثلون

بأشعار هؤلاء عند شرحهم لآيات القرآن الكريم كابن عباس، والطبري، والزمخشري ولعل أكثر من وجَّه اهتمامه للاستفادة من النصوص الشعرية في التعابير القرآنية هو ابن عباس حين سأله نافع بن الأزرق بعض المسائل المتعلقة بالقرآن الكريم، فكان يتمثل بشواهد شعرية، ليؤكد لنافع أن العرب كانت تعرف هذا المعنى. أما الحديث النبوي الشريف فلم أعتمد عليه اعتماداً كلياً إلاّ في التعابير التي تعاضدت على فهم معانيها كتب اللغة والتفاسير، وأيتها نصوص الشعر لأن المحدثين جوزا رواية الحديث النبوي بمعناه.

وقد خصصت بالبحث التعابير التي لها دلالة على البيئة العربية، وأهملت فيها التعابير التي ليس لها دلالة واضحة على البيئة العربية.

وأخيراً:

نقول إن هذا الكتاب كتبته من سنوات بعيدة تجاوزت ربع قرن وتزيد. وقد كان باكورة أعمالي، فهو في الأصل رسالة نلت عليها شهادة الماجستير من جامعة بغداد بإشراف الدكتور جميل سعيد رحمه الله.

وأراني بعد هذه السنوات الطوال أنظر إلى كتابي نظرة إعجاب ومودة، شأني في ذلك شأن الأم التي تنظر إلى أبنائهاوقد تجاوزوا الطفولة والشباب، تنظر إليهم بعين الحب والرعاية التي كانت تحيطهم بها وهم يدرجون أمام ناظريها لهذا كلِّه لم أشأ أن أغيِّرَ ما كتبته آنذاك، إلا أنني آثرت تعديل العنوان إلى التعابير القرآنية في مشاهد يوم القيامة دراسة دلالية جمالية؛ لأنني وجدت الدراسة معنية بالحقول الدلالية، وربطها بالبيئة العربية في حقول مثلتها المشاهد التي وزعت عليها الفصول والمباحث.

والحمد الله من قبل ومن بعد...

الفصل الأول

النفير (بعث الناس من القبور)

١ – وسائل النفير:

أ– الصّور والناقور

ب – الداعي والمنادي

ج – الصّيحة والزجرة

٢ – مدة النفير

1

الفصل الأول

النفير (بعث الناس من القبور)

أولاً – وسائل النفير

إن أول مشاهد القيامة في القرآن الكريم هو مشهد النفير المفزع الذي يثير الناس إلى البعث، ويحشرهم من قبورهم إلى ساحة الحساب والقضاء.

ومشهد النفير هذا صورته عدة تعابير كل منها يوحي بصورة خاصة من صور النفير، حتى إذا اجتمعت هذه الصور المتعددة تشكلت في الذهن صورة جامعة حية متحركة لمشاهد النفير، والبعث.

أ – الصُّور والناقور:

أما الصورة الأولى، فيرسمها تعبيران هما الصُّور والناقور. والصُّور هو الذي يحدد يوم القيامة. قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ وقد صورت الآيات الكريمة الصدى البعيد الذي يحدثه نفخ الصُّور، وذلك أنهن يُفزعُ كل من في السموات والأرض: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾[1].

(١) سورة النمل ٢٧: ٨٧

ومع الفزع الذي يوقظ الناس يُزعجون من قبورهم، ويُهْرعون أفواجاً أذلاء لتلبية صوت النفير المفزع: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾(1).

وقال تعالى أيضاً: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾(2)

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾(3).

وقد اختلف المفسرون في تفسير معنى الصُّور. قال أبو عبيدة (يقال إنها جمع صُورة تُنفَخُ فيها رُوحها، فتحيا)(4). فأبو عبيدة هنا لم يفسر الصّور على أنه آلة ينفخ فيها للتنبيه والنفير، وإنما هي عنده جمع صورة فالأرواح البشرية تعود إلى الحياة في أجسامها إذا نفخ فيها. ويؤيد رأي أبي عبيدة قراءة الحسن البصري (يُنْفَخُ في الصُّوَر)(5).

أما التفسير الثاني وهو الذي عليه معظم المفسرين، فهو قولهم إن الصُّور قرن يُنْفَخُ فيه(6). ورفع هذا التفسير إلى النبي ﷺ حين سئل عنه(7)، كما روي عنه ﷺ في

---

(1) سورة يس ٣٦ : ٥٠ – ٥٢

(2) سور النبأ ٧٨: ١٨.

(3) سورة الكهف: ١٨-١٠٠.

(4) مجاز القرآن ١: ١٩٦، جامع البيان ٧: ٢٤، وانظر أيضاً قول الخليل في العين.

(5) الصحاح ٢٩: ٧١٦.

(6) جامع البيان ٧: ١٤١ التبيان ٧: ١٨٧.

(7) جامع البيان ٧: ٢٤١.

حديثه عن الدّجال[1]، وإنه يقول حين يتمثل لهم: (ألا تستجبونَ؟ فيأمرهم بالأوثان فيعبدونها، وهم في ذلك دارّة أرزاقهم، حسن عيشهم، ثم يُنْفَخُ في الصُّور، فلا يسمعه أحد إلاّ أصغى له، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه، ثم لا يبقى أحد إلاّ صُعِق)[2] . وهذا الحديث يرسم لنا الصُّور، وكيف أنه إذا نُفخَ فيه سبَّب صوتاً قوياً مفزعاً يصعق من يسمعه. وفي ووصف ﷺ صاحب الصّور فقال:

فقال: (كيف أَنْعُم وصاحُب الصُّور قد التقم الصُّور، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر متى يُؤمر[3] وفي رواية أخرى (قد التقم القرن) [4] وهذا الاختلاف في الرواية يؤيد تفسير الصور بالقَرنْ؛ لأنه يدلنا على أنهما تعبيران لهما الدلالة نفسها في الذهن العربي، وقد ذكر هذا المبارك إبن الأثير حين رجّح معنى القرن بقوله: (والصحيح الأول، لأن الأحاديث تعاضدت عليه تارة بالصّور، وتارة بالقَرْن)[5]ثم إن وصف صاحب الصُّور في الحديث النبوي الشريف يمثل لنا صورة شخص قد وضع آلة النفخ في فمه، وحنى جبهته وأصاخ سمعه، ينتظر الأمر بالنفخ في آلته تماماً كما ينفخ في بوق مثلاً.

---

(١) الدجال: المموه يقال إنه رجل من يهود، يخرج في آخر أيام هذه الأمة سمي بذلك لأنه يدجل الحق بالباطل، وقبل بل لأنه يغطي الأرض بكثرة جموعه، وقيل لأنه يدعي الربوبية، انظر لسان العرب ١٣: ٢٥١.

(٢) مسند الإمام أحمد ٢: ١٦.

(٣) ن. م. ٣: ٧٣.

(٤) جامع البيان ٢٩: ١٥١ التبيان ٧: ١٨٧.

(٥) النهاية في غريب الحديث ٣: ٥.

أمّا اللغويون، فقد ذهب معظمهم إلى تفسير الصُّور بالقَرْن [1] . وناقش بعضهم كون الصُّور جمع صورة. قال الفرّاء: (كل جمع على لفظ الواحد الذكر سبق جمُعه واحدته، فواحدتُه بزيادة هاء فيه، وذلك مثل الصوف ومثل الوبَر، والشعر، والقُطْن، والعُشْب، فكل واحدة من هذه الأسماء اسم لجميع جنسه، فإذا أفردت واحدته زيدت فيه هاء، لأن جمع هذا الباب سبق واحدته، ولو أن الصوفة، كانت سابقة الصُوف لقالوا صُوفةٌ وصُوف وبُسرةٌ وبُسرٌ كما قالوا غُرفة وغرف، وزُلفة زلَفٌ. أما الصُور القرن فهو واحد لا يجوز أن يقال واحدته صورة، وإنما تُجمع صُورة الانسان صُوراً ؛ لأنّ واحدته سبقت جمعه)[2].

وقال أبو الهيثم[3] مناقشاً أبا عبيدة متهمه بقلة معرفته باللغة، والغريب قال: (ولا نعلم أحداً من القُراء قرأها فأحسَن صُورَكمُ، وكذلك قال: ونُفَخ في الصُوَر، فمن قرأ نُفخ في الصُور أو قرأ فأحسن صُورَكم فقد افترى الكذب، وبّدل كتاب الله، وكان أبو عبيدة صاحب أخبار، وغريب، ولم يكن له معرفة بالنحو) [4]، ولكن أبا عبيدة ليس وحده القائل بهذا الرأي، فقد مرّت بنا آنفاً قراءة الحسن البصري والتي فيها تأييد لما قاله بعده أبو عبيدة[5].

---

(١) جمهرة اللغة ٢: ٣٣٨، الصحاح ٢، ٧١٦، لسان العرب ٦: ١٤٦، تاج العروس ٣: ٣٤٣، وكذا فسرها ياقوت في شرحه لمادة صور انظر معجم البلدان ٣: ٤٣٣، وانظر:

- Arabic Ebglish Lexicon, Book I, Book I, Part ٤, p. ١٧٤٤.

(٢) لسا ن العرب ٦: ١٤٦

(٣) لم أعثر على ترجمته.

(٤) لسان العرب ٦: ١٤٦ وانظر أيضاً قول ابي علي في المخصص ١: ٥٣.

(٥) انظر ص: ١٦.

ويضاف إلى الأدلة التي تعاضدت على تفسير الصُّور بالقرْن أن البيئة العربية تعضدّنا في هذا التفسير، ذلك لأن القرون مما توفر في حياة العرب، ولا بّد أنهم استغلوا وفرتها في الاستفادة منها في بعض شؤون حياتهم، من ذلك اتخاذهم القرن آلة في إتمام حياكة الثياب، وهي تلك يسمونها بالّصيّصة. قال ابن دريد: (صِيصيُة الحائك: الشوكُة التي يمُّدها على الثوب وأنشد لدريد بن الصمة[1]:

فَجئــتُ اليــه والرمــاحُ تَنُوشُــه

كوقــعِ الصــيّاصِي في النســيجِ المُمَّــدِ

وأصل الصيصية القّرْن[2]. واستعمل القرن كذلك لقلع التمر، وأُطلق عليه أيضاً اسم الصيصية[3]. وهناك مجال آخر استعملت فيه القرون، وذلك أنها تركّب في الرماح مكان الأسنة كما يقول الجوهري[4] وربما كان هذا الاستعمال أكثر من غيره نظراً لأهمية الرماح والسلاح في البيئة العربية الحربية.

وكل هذا يدلنا على أهمية القرون في البيئة العربية، ويقرب لنا معنى الصُّور وكونه البوق الذي يُصنَعُ من القرن، إلا أننا نفتقر في هذا الباب إلى الشواهد الشعرية، وذلك لأنه لم يرد فيما وصل إلينا من الشعر الجاهلي ذكر للصّور إلا الشاهد الذي أورده الجوهري وهو:

---

(١) دريد بن الصمة الجشمي شاعر جاهلي قيل عمر مائتي سنة، حتى سقط حاجباه على عينه، وأدرك الاسلام ولم يسلم، وقتل يوم حنين كافراً. انظر: المعمرون: ٢٧ المؤتلف والمختلف: ١٦٣.

(٢) الصحاح ٣: ١٠٤٤، وانظر أيضاً غريب الحديث: ٨٤، المخصص ١٢: ٢٦ لسان العرب ٨: ٣١٨.

(٣) لسان العرب ٨: ٣١٩.

(٤) الصحاح ٣: ١٠٤٤، وانظر أيضاً لسان العرب ٨: ٣١٨.

لقــد نَطَحنــاُهم غَــدَاة الجمعــين

نَطَحــاً شَــديداً لا كــنطْحِ الصــورين[1]

ولا يمكن الاعتماد على هذا الشاهد،لأنه لم ينسب الى قائله، ولم يقل الجوهري إن مفرد الصّورين هو نفس الصُّور الذي ينفخ فيه يوم القيامة .

وهناك لفظة عبرية الأصل، تقارب معنى الصور ودلالته، تلك هي كلمة الشّبُّور التي تعني البوق، وهي في الأصل شوفار: وكان يستعمل في الأعياد الكبرى كرأس السنة، والعيد الأكبر عيد الصيام[2]، وأول من أشار إلى أصلها العبري – فيما وصل إلينا – هو ابن الأثير حين قال (وفي حديث الأذان ذُكر له الشبُّور، وجاء في الحديث تفسيره بأنه البوق، وفسَّروه أيضاً بالقبع، واللفظة عبرانية)[3].

ونجد في روايات أخرى ذكراً للبوق، وأن الرسول ﷺ أراد أن يجعل بوقاً كبوق اليهود الذي يكون لصلاتهم ثم كرهه، ثم أمر بالناقوس فنحت)[4]. وبوق اليهود هذا سمي في روايات أخرى بالقَرْن (قرنا مثل قرن اليهود)[5]. والظاهر أن الرسول ﷺ كره اتخاذ البوق، لأنه آلة ينفخ فيها اليهود، وهم هم ما عليه من البغض والكراهية للإسلام.

---

(١) الصحاح ٣: ١٠٤٤.

(٢) هكذا حققها الاستاذ عبد السلام هارون في هامش كتاب الحيوان ٤: ٥٢٥.

(٣) النهاية في غريب الحديث ٢: ٢٠٢

(٤) سيرة النبي ٢: ١٢٨، وانظر أيضاً ذيل لمقال الألفاظ السريانية مجلة المجمع العلمي العربي م ٢٦ ح ٤: ٤٨٧.

(٥) صحيح مسلم ١: ٢٨٥، سنن الترمذي ١: ٣٦٢ سنن النسائي: ٢:٢

كل هذا يقدم لنا صورة للفظة الشَّبور العبرية، ودلالتها الواضحة في الذهن العربي، وقد ورد ذكرها في الاستعمال اللغوي مقترنة باليهود [1] ومع أن هذه الكلمة تعطينا الدلالة نفسها التي توحيها كلمة الصّور، وأنها القَرْن الذي ينفخ فيه من المستعبد أن يقال إن كلمة الصّور متطورة عن الأصل العبري الشَّبْور أو الشوفار، لتباين مخارج حروفها وعددها [2] إلا أن معرفة الشَّبور يعطينا صورة لمعرفتهم البوق الذي ينفخ فيه، وأنَّه كان يُصنع من القرن في أكثر الأحيان، وكان يستعمل للنفير، والتنبيه.

ومن هنا جاء التعبير القرآني (الصُّور) والذي فسر بالقرن ليرسم صورة النفير ليوم القيامة، وأنه يكون بالنفخ فيه، وتنبيه الناس من قبورهم، ومما يؤيد تفسير الصّور بالبوق، أن ذكّر البوق ورد في التوراة بأن الناس يُحْشَرون من قبورهم على صوته المفزع[3].

أمّا التعبير الآخر الذي يصور لنا آلة النفير فهو الناقور. قال الله تعالى: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾[4]

---

(١) الحيوان ٤: ٢٥ مجالس العلماء: ١٨.

(٢) مع ان السين مقارنة للصاد فإنّ إقحام الباء هنا يبعد كون الصور متطوراً عن الشبور وقد استأنست في هذا برأي الاستاذ إبراهيم السامرائي – والأستاذ مصطفى جواد، ولم يشر إلى أصلها غير العربي أحد من الذين كتبوا في الدخيل كالجواليقي والسيوطي والخفاجي وغيرهم.

(٣) انظر الكتاب المقدس متى ٢٤: ٣١، تسالونيكي ٤: ١٥.

(٤) سورة المدثر ٧٤: ٧–١٦.

لقد فسّر معظم المفسرين الناقور بأنه آلة ينفخ فيها يوم القيام إعلاناً وتنفيراً وقرنوا بينه وبين الصور[1]. وقد أوردوا الحديث الشريف الذي مّر انفاً في تفسير الصور (كيف أنعم وصاحب القرن، قد التقم القرن وحنى جبهته.......)[2].

أمّا الفريق الثاني فكما فسّروا الصّور على أنه جمع صُورة، فكذلك فسروا الناقور، ذكر الطبري (الناقور الصور، والصّور الخلقُ)[3].

وروي عن ابن الاعرابي أنه فسر الناقور بالقلب[4]، فكأنّ النفخ يكون سبباً لإحياء القلوب ونستبعد هنا هذا التفسير، لأن إيحاء الآيات الكريمة بعيد عن معنى القلب. وقد مر بنا تفنيد هذا الرأي حين فسّر به الصّور. أما تفسير الناقور بالقَرْن فهو الذي عليه معظم اللغويين[5]، وهذا التفسير أمر يلفت النظر، لأن أول ما توحيه كلمة النقر هو الضرب الذي يستتبعه صوت ما، وهو معنى يرسم في الذهن صورة الدّف[6] الذي هو بعيد عن معنى الصور، والبوق لاختلاف موحيات كل منهما عند سماع صوتها. ويسند معنى النقر، والضرب قول ابن فارس: (النون والقاف فيه والراء أصلّ

---

(١) غريب القرآن: ٢٤٩، جامع البيان ٢٩: ١٥١ التبيان ١٠: ١٧٤، وكذا قال الخليل في العين الورقة ٣٦.
(٢) جامع البيان ٢٩: ١٥١.
(٣) جامع البيان ٢٩: ١٥١.
(٤) لسان العرب ٧: ٨٩.
(٥) غريب القرآن: ٢٤٩، جامع البيان ٢٩: ١٥١، التبيان ١٠: ١٧٤.
(٦) وقد ورد النقر مقترنا بالدف في قول عامر بن عمر:
ولا تَنْقرينـــي نَقــرَكِ الــدَّف دائـــماً
فإنــك لا تــدرينَ كيَــف المُغَيَّـــبُ

(٦) مقاييس اللغة ٥: ٤٦٨

يدلُّ على قرع شيء حتى تُهزَم فيه هُزمة ثم يتوسع فيه)[1] والذي يقارن بين معنى النقر الذي هو النفخ في تفسير من فسّر الناقور بالصُّور، وبين معنى الضربِ والقَرع يجد لأول وهلة أن هناك هوّة بعيدة بينهما، ويخيل إليه أنه لا رابط بين المادتين، ولكن محاولة ترتيب التدرج التاريخي لمعاني الكلمة، تفيدنا في فهم الدلالتين المختلفتين.

وأقرب المعاني لكلمة النقر، هو نقر الخيل الأرض بحوافرها، وذلك إذا أسرعت في سيرها، فصوتت بسنابكها، واحتفرت الأرض. قال الليث [2] (انتقرت الخيلُ بحوافرها نقراً أي احتَفَرتْ بها) [3]. وقد وردت بهذا المعنى في شعر المرقش الأكبر[4] واصفاً سير ناقته من وجيف، وإبساس، ونقر:

وَجِيـــفٌ وإبســـاسٌ ونَقْـــرٌ وهـــزَّةٌ
إلى أن تَكِـلَّ العـيسُ والمـرءُ حـادسُ [5]

---

(٢) الليث بن المظفر، وقيل بن نصر بن سيار الخراساني، كان من اكتب الناس في زمانه بارعاً في الأدب، بصيراً بالشعر، والغريب، والنحو. أملى الخليل عليه كتابه العين. وقال الأزهري انه انتحل كتاب العين للخليل، ليرغب فيه.

انظر نزهة الألباء: ٢٩، بغية الوعاة: ٣٨٣.

(٣) لسان العرب ٧: ٩٠.

(٤) هو عمرو بن سعد بن مالك بن ضبيعة شاعر من مُتَّيَمي العرب، وفرسانها.

انظر المؤتلف والمختلف: ٢٨١.

(٥) المفضليات: ٢٢٥.

وقال عمرو بن الأهتم [1]:

وقَــــوم ينظـــــرونَ إليَّ شَزْراً
عيـــونُهُم مـــن البَغْضِـــاء عُـــورُ

قَصَـــدْت لهـــم بمخزيـــةٍ إذا مـــا
أصـــاخَ القـــومُ وأسْـــتُمِع النقـــيرُ [2]

وقد فسر الأستاذ عبد السلام محمد هارون النقير هنا من النواقر، وهي الدواهي، وقال إنه معنى لم يرد في المعاجم [3]، والذي يبدو أن تفسير النواقر بالدواهي هنا، وإنما يصيخ القوم لوقع قوائم الخيل المسرعة نحوهم، فتكون الداهية نتيجة الغارة، ونقر الخيل الأرض بحوافرها وسرعة هجومها عليهم.

والملاحظ في هذا الاستعمال المادي أنه يجمع بين الصوت الشديد، وبين ما يتبع هذا الضرب من السير من قرع الأرض، وحفرها، وهو أصل ماديَ ملازم للبيئة العربية التي تَعَوَّد فيها العربي الغارات المفاجئة وسرعة الخيل حين تضرب الأرض بقوة فتنقرُ فيها نُقَرا صغيرة.

---

(١) هو عمرو بن سنان بن خالد كان سيدا من سادات تميم خطيباً بليغاً شاعراً، وقد قدم إلى رسول الله ﷺ مع وفد من تميم وهو الذي قال الرسول عن كلامه (إن من البيان لسحرا) توفي حوالي سنة ٥٧ هـ انظر البيان والتبيين ١: ٥١ لباب الآداب ٣٥٥ الإصابة ٢: ٥١٧، ٥١٨.

(٢) المفضليات: ٤١١.

(٣) المفضليات الهامش: ٤١١.

ومن هذا الصوت الذي تثيره الخيل بقوائمها استعملت الكلمة في مجال آخر، وهو التصويت الذي يُسكَّن به الفرس، وقد وصفه الخليل بقوله: (النَّقْر أنْ تُلْزِقَ لِسانك بِحنْكِكَ ثم تُصوت وقد نقرْت بالدابةِ)[1].

وقد نقل المبرد قول الشاعر:

أنا ابنُ ماويةَ إذْ جَّد النَّقَرْ[2]

فقال معلقاً عليه: (يريُد النَقر يا فتى، وهو النَّقْرُ بالخيل..... النقير: صويت باللسان يسكّن به الفرس إذا اضطرب بفارسه قال امرؤ القيس:

أُخَفِّضُـــهُ بـــالنَقْرِ لمـــا عَلَوْتُـــهُ

ويَرفُـع طَرفـاً غـير جَـافِ غضـيّض[3]

والنقر أيضاً تصويت الأصابع وذلك: (ضَمُّك الإبهامَ إلى طرف الوسطى، ثم تنَقر، فيسمع صاحبك ذلك)[4]

---

(١) الخليل عن المخصص ٦: ١٨٢، وانظر أيضاً الصحاح ٢: ٨٣٤، الأفعال: ١١١، اساس البلاغة ٩٨٥، لسان العرب ٧: ٨٨.

(٢) الكامل للمبرد ٢: ٥٠٢.

(٣) المصدر السابق. والشطر الثاني من قول ابن ماوية (وجَاءت الخيلُ أثاني زمر) لسان العرب ٥: ٨٨ والظاهر أن الشاعر لم يقصد بقوله هذا الصوت الذي يسكن به الفرس، وإنما المقصود به سرعة الخيل في الحروب وهو الذي يفتخر به ابن ماوية، إذ يكون أهلاً للحروب والغزوات التي تسمع فيها قوائم الخيل المسرعة هجومها عليه زمراً كثيرة، وهو المعنى الذي يكمله الشطر الثاني، وربما جاء حديث المبرد عن النقير الذي هو التصويت على سبيل الاستطراد، وبيت امرئ القيس في ديوانه: ٥٧.

(٤) الصحاح ٢: ٨٣٥، لسان العرب ٧: ٨٩.

هذه هي المعاني التي اقترنت في إيحاءاتها، بنقر الخيل، ومنها أيضاً، تطور معنى آخر وهو قولهم: النقرة: الحفرة،(1) ثم أطلقت على الآبار وعلى كل منخفض(2).

ونجد للنقر معنى حسياً آخر مستمداً من معنى الحفر، وذلك أن يُنقر الخشب فتحفر فيه نقرة لغرض من الأغراض(3).

ونستعيد الآيات الكريمة التي وردت فيها كلمة الناقور. ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾(4).

ومن سياق هذه الآيات يتضح لنا معنى الناقور، وكيف أنهم قرنوا بينه وبين الصّور آلة النفير. فإذا كان الصُّور أشبه ما يكون بالبوق، وأنه أطلق آنذاك على القرن ينفخُ فيه ، فإن الناقور الذي جعل مرادفاً له عند بعض المفسرين يكون على هذه الشاكلة، ويقرب نقر الخشب صورته، أن تنقر الخشبة حتى تصبح مجوفة ينفخ فيها، ويفيدنا في رسم هذه الصورة قولهم النقير، لأصل الخشبة التي تنقر، فينُبْذ فيها الرطب والبُسر(5)، مما يعطينا صورة للنقر الذي يجوِّف الخشبة أو أي آلة يعمل فيها.

---

(1) لسان العرب ٧.٩٠، وانظر أيضاً قول المخبل السعدي في المفضليات: ١١٦.

(2) مقاييس اللغة ٥: ٤٦٨، لسان العرب ٧: ٨٦-٩، وانظر أيضاً قول المخبل السعدي في المفضليات: ١١٦، ديوان ابن مقبل: ٣٤١.

(3) الصحاح ٢: ٨٣٥ مقاييس اللغة ٥: ٤٦٩، أساس البلاغة: ٩٨٥ لسان ٧: ٨٦.

(4) سورة المدثر ٧٤: ٨-١٧.

(5) الصحاح ٢: ٨٣٥، لسان العرب ٥: ٨٦.

وبما أن النقر قد اقترن بالصوت المفزع، وهو نقر الخيل في الشدائد، فإننا نستطيع أن نجد في الآية الكريمة إيحاء آخر في رسم صورة الفزع الأكبر الذي يحيط النفخ بالصور والناقور، وكيف أنه يرهب من يسمعه، ويجعل الكافر موقناً بالمصيبة العظيمة التي ستحل به، ويذكره هذا بالرعب والفزع الذي يشعر به حين يسمع نواقر خيل الأعداء القوية، ويساعده جو الآيات العام على هذا التصور. وهو معنى واضح الملامح عميق الصلة بالبيئة العربية التي كثرت الغارات فيها وتعوّد العربي صريخ الخيل وسرعة سيرها، وما يوحيه نقر قوائم الخيل خاصة عند الغارات من معاني الفزع والهول مما يقرن يوم القيامة بصورة الفزع والرعب المفاجئ، وهو معنى تشترك فيه كل التعابير التي تخُصُّ القيامة منذ ساعة النفير.

وبما أن النقر قد اقترن بالصوت المفزع إلى جانب معنى الضرب والحفر، فإنّ إيحاء آخر يضاف إلى الكلمة، وهو دلالتها على الصوت. وهذا المعنى هو الذي فسّر به بعضهم قول طرفة المشهور:

يالَكِ من قُبَّرَة بِمَعْمَرِ
خلا لكِ الجُوُّ فَبيضي واصْفِري

ونقِّري ما شئتِ أن تُنَقِّري
قد رَحَلَ الصيادُ عنكِ فابشِري[1]

---

(١) ديوان طرفة: ١٩٣.

فقيل التنقير مثل الصفير[1].

أما معنى النفخ الذي يفهم من كلمة النقر ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾[2] فهو معنى جديد اكتسته الكلمة من طبيعة استعمال الآلة حيث ينفخ فيها. ونستطيع أن نقول أن كلمة النقر قد ضُمنتْ معنى النفخ في الآية الكريمة على أسلوب العرب في تضمين كلامهم معاني لم يعرفوها من قبل[3]. ومن هنا عُدي الفعل (نقر) بالحرف (في)، واستعمال هذا الحرف هو الذي يبعد معنى الضرب الذي قد يتبادر إلى الذهن فلو كان معنى النقر كذلك لقيل نُقِرَ الناقورُ، أو نُقِرَ بالناقورِ، كما قيل نَقَرْتُ الشيء ثَقَبْتُهُ بالمنقار ونَقَرَ الطائرُ الحبَّ بمنقاره، ونَقَرَ النقَّارُ الرَّحى بمنقارِهِ، ونَقَرَ العودَ، والدفَّ، ونقَر رأسَهُ بإصبعه نقرةً)[4] أما تعدية النقر بالحرف (في) فإنه يقوِّي ما ذهب إليه المفسرون من أن معنى النقر هو النفخ وأن الناقور هو الذي ينفخ فيه.

ومن هذين التعبيرين تتشكل الصورة الأولى للنفير في يوم القيامة، إذ يُدعى الناس، ويحشرون من قبورهم على صوت مفزع يبعث من آلة هي الصّور أو الناقور،

---

(١) لسان العرب ٥: ٨٧، الصحاح ٢: ٨٣٦، ومن الجائز أن يراد بالنقر هنا المعنى المادي وهو التقاط الحب.

(٢) سور المدثر ٧٤: ٧.

(٣) قال ابن هشام في موضوع التضمين: (قد يشربون لفظاً فيعطونه حكمه ويسمى ذلك تضميناً، وفائدته أن تُؤدي كلمة مُؤدي كلمتين) . مغني اللبيب ٢: ٦٨٥، وانظر أيضاً شرح ألفية ابن مالك ١: ٤٠٥، همع الهوامع ٢: ١٣٠.

(٤) الصحاح ٢، ٨٣٤، أساس البلاغة: ٩٨٤، لسان العرب ٧: ٨٠، ٨٦

وقد ورد في الكتاب القديم ذكر للبوق الذي ينبه الناس ويحشرهم من قبورهم[1]، مما يؤكد تفسير الصُّور والناقور على أنهما آلتان ينفخ فيهما يوم القيامة.

ب – الداعي والمنادي:

أما الصورة الثانية فيشكلها تعبيران آخران هما الدّاعي والمنادي.

فقد ورد الداعي في قوله تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾[2]. وقال أيضاً: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾[3].

الداعي في هذه الآيات الكريمة هو الذي يدعو الناس إلى موقف القيامة فيحشرهم في هذه الآيات الكريمة هو الذي يدعو الناس إلى موقف القيامة فيحشرهم إليه[4]، وقد خشعت أبصارهم، ونُكِّست رؤوسهم، وأدركوا حقيقة الذي يدعوهم، وإذا كان السياق العام هو الذي يوحي لنا بهذه الصورة المرعبة فإن كلمة الداعي وحدها تعطي من الصورة والإيحاءات المتعددة ما يزيد ملامح صورة النفير وضوحاً، ويعكس لنا جوانب متعددة من البيئة العربية.

---

(١) جاء في سفر متى ٢٤: ٣١ (ويرسل ملائكته ببوق، وصوت عظيم فيجمعون مختاريه من الرياح الأربع من أقاصي السماوات إلى أقاصيها)، وانظر أيضاً سفر تسالونيكي ٤: ١٥.

(٢) سورة طه ٢٠: ١٠٥–١٠٨.

(٣) سور القمر ٥٤: ٦–٨.

(٤) جامع البيان ٢٦: ٢١٤، ٢٧: ٨٩، التبيان ٩: ٤٤٥.

فالداعي في المجال اللغوي استعمل للدلالة على معان مختلفة قد تبدو بعيدة الأصل عن المعنى القرآني، ولكن معرفة الصور الحسية التي تفرَّعت عنها تعيننا على ربط المعاني بعضها ببعض، وفهمها من التعبير القرآني الكريم.

ومن الصور الحسية الأولى الواردة في الشعر الجاهلي صورة تداعي الكثيب إذا تحرك بعض الرمل فانهال وانهدم.

قال ابن منظور: (تداعى الكثيب من الرمل إذا هيل فانهال) [1] ، وقال النابغة ذاكراً الكثيب المتداعي.

تَحَفْــي بأَظْلافِهــا حتــى إذا بَلَغَــتْ
يُبْسَ الكَثيب تَداعَى التُّربُ فانهدما[2]

وقال زهير بن أبي سلمى واصفاً صورة قريبة من صورة النابغة:

يَمْــري بأَظْلافــهِ حتــى إذا بَلغَــتْ
يُبْسَ الكَثيب تَداعَى التُّربُ فانْحَرفا[3]

فسرعة سير الثور، وركضه تهدم الكثيب، وتهيل ترابه مرة واحدة وهذا هو الذي يطلق عليه اسم التداعي، وقال طرفة متغزلاً:

---

(١) لسان العرب ١٨: ٢٨٧.

(٢) أمالي المرتضى ٢: ١٣، والبيت غير موجود في ديوان النابغة الذبياني ومقارنته ببيت زهير المذكور في أعلاه يثير الشك في نسبته إلى قائله.

(٣) شرح ديوان زهير: ٤٦.

وإذا قامَـــتْ تـــداعى قاصِـــفٌ

مـــالَ مـــن أعْـــلى كثيـــبٍ مُنْقَعِـــرِ[1]

أما داعية اللبن فهو ما يترك في الضرع ليدعو ما بعده[2]. وقد ورد في الحديث النبوي الشريف، أن الرسول ﷺ قال لرجل بعثه لحلب ناقته أن دَعْ داعي اللّبن[3].

وقال ابن منظور شارحاً قول الرسول ﷺ السابق: أي ابق في الضرع قليلاً من اللبن، ولا تستوعبه كله؛ فإن الذي تبقيه فيه يدعو ما وراءه من اللبن فينزله، وإذا استقصى كل ما في الضرع أبطأ درةّ على حالبه. قال الأزهري: "ومعناه عندي: دع ما يكون سبباً لنزول الدَّرة؟ وذلك أنه إذا ترك في الضرع لأولاد الحلائب لبنية ترضعها طابت أنفسها فكان أسرع لإفاقتها"[4].

وحركة تداعي الكثيب واضحة قي داعية اللبن، ولكنها على صورة أخرى فهي أيضاً حركة ناتجة عن وجود أخرى سابقة لها، وهي البقية القليلة من اللبن التي تستدعي نزول ما بعدها إلاّ أن ما تحتويه من الصور بعيد عن معنى داعي النفير، لأن في اللبن ايحاء الخير والفرح، أما داعي النفير فإنه محاط بالفزع، والهول وما يتبع ذلك من صور رهيبة مرعبة.

---

(١) ديوان طرفة : ٧٣.

(٢) الصحاح ٦: ٢٣٣٧، مقاييس اللغة ٢: ٢٨٠، ثمار القلوب: ٤٩٤ أساس البلاغة: ٢٧٢، لسان العرب ١٨: ٢٨٢.

(٣) مسند الإمام أحمد ٤: ٧٦، وانظر أيضاً سنن الدرامي ٢: ٨٨.

(٤) لسان العرب ١٨: ٢٨٤، أنظر أيضاً المخصص ٧: ٤٠.

ومن هذا الاستعمال المادي جاء قولهم المجازي: "تداعت عليهم القبائل من كل جانب أي اجتمعت عليهم، وتألبت بالعداوة" [1]. وبهذا المعنى وردت في الحديث النبوي الشريف [2].

هذه الصور المتداخلة نستطيع أن نجدها في أحد جوانب صورة الداعي المفزع؛ فالناس يتراكضون نحوه، ويتدافعون بسرعة كما تتدافع أجزاء الكثيب حين ينهال بعضها فوق بعض. ونفهم أنهم في تدافعهم نحو الدّاعي يسيرون بصورة تلقائية تماماً كما ينهال كثيب الرمل إذا تساقطت بعض أجزائه.

ونستطيع أن نلمح في الدّاعي صورة أخرى لها دلالة أعمق للبيئة العربية، وذلك أن الدّاعي أطلق في بيئتهم الحربية المتنازعة على الشخص الذي ينفّر ويدعو للأمر الملم الشديد، ويستصرخ قومه، فكأن صياحه يكون سبباً لتداعي قومه حوله ونجدتهم له. وقد كثر افتخار شعرائهم بتلبية دعوة الداعي وتسارعهم نحوه مع الفزع الذي يثيره في نفوسهم، قال متمم بن نويرة [3] راثياً أخاه.

---

(١) أساس البلاغة ٢٧٢، وانظر شواهد الشعر في الطرائف الأدبية: ١٤.

(٢) مسند الامام أحمد ٤: ٢٧٨، ٢٦٨، ٢٧٤، ٥: ١٧٨، سنن الدارمي ٢: ٤٢٦، لسان العرب ١٨: ٢٨٧.

(٣) متمم بن نويرة بن جمرة بن شداد بن يربوع يكنى أبا نهشل شاعر جاهلي أدرك الاسلام فاسلم وحسن اسلامه، واستفرغ شعره في مراثي اخيه مالك بن نويرة الذي قتل في حروب الردة توفي نحو سنة ٣٠ هـ إنظر كتابنا: مالك ومتمم إبنا نويرة اليربوعي ٣٣.

وقد كـانَ مجـذاماً إلى الحَـربِ ركِضُـهُ

سريعـاً إلى الـداعي إذا هـو أفْزَعـا[1]

أي أنه كان شجاعاً بطلاً يسرع إلى استجابة صرخة الداعي، مع أن غيره يفزع منها ويهرب.

وقال النابغة الجعدي [2] مفتخراً.

يَسْـتَخفّونَ إلى الـداعي بِهِـمْ

وإلى الضـيف إذا الضـيفُ نـزَل[3]

وحين يسمع صوت الداعي في الحي يسرع الرجال نحوه، ويتتابع ركض الخيل المسومة إلى حومة القتال، ويقصدون بها الفرسان الذين يمتطونها:

متـى مـا ادعُ في أسـدٍ تُجبنـي

مُسَـومةٌ عـلى خَيْـلٍ صـيامِ

تَتَـابَعُ نحـو داعِيهـا سِراعـاً

كـما انْسـلَ الفريـد مـن النِظـام

(١) أمالي اليزيدي: ١٩.

(٢) شاعر معمر عاش في الجاهلية والإسلام، وقد اختلف في اسمه هل هو قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة بن جعدة أم حبان بن عبد الله إلاّ أنهم اتفقوا على أنه من مصر وأن سبب تلقيبه بالنابغة لأنه قال الشعر في الجاهلية، ثم أجبل دهراً ثم نبغ بالشعر في الاسلام توفي نحو سنة ٥٠ هـ أنظر طبقات فحول الشعراء ١٠٣، والشعراء ١: ٢٤٧، الأغاني ٥: ٥، المؤتلف والمختلف: ٢٩٣.

(٣) ديوان النابغة الجعدي: ٩٧.

ووصف طرفة بن العبد دعوة الداعي في الحي، وكيف أنّها تثير الفزع، الهَلَع فيُجرد الشجعان سيوفهم، ويعتلون جيادهم الطوال السريعة.

حـينَ نـادى الحـيُّ لمـا فزعـوا
ودعـا الـدّاعي وقـدْ لَـجَّ الـذُّعُرْ

أيُّهـا الفِتيـان في مَجْلِسـنا
جَـرِّدُوا منهـا وراداً وشُـقُرّ

أعُوَجبـات طِـوالاً شُزَّبـاً
دُوخِـلَ الصـنعةُ فِيهـا والضُّـمُرْ(1)

فالداعي في هذه الصور المتعددة(2) يعكس لنا جانباً من جوانب البيئة العربية التي ساد فيها الاضطراب والفوضى، فالأمن مفقود، والأحياء مُعَرَّضة للغارات المفاجئة، وما يتبعها من السلب، والنهب، والقتل....... ويأتي دور الداعي الذي يستصرخ قومه، وينبههم إلى الحادث المفاجئ، فاستعمال الداعي هنا يستلزم صياح أحد، أو استغاثة مهولة تتبعها إجابة من الآخرين، فكأن في المسألة طرفين متلازمين تلازم حركة الكثيب الأولى بانهدام الرمل والكثيب من جميع جوانبه، أو حركة داعية اللبن التي

---

(1) ديوان طرفة: ٨٠ ط صادر.

(2) أنظر شواهد أخرى للداعي في ديوان عامر بن الطفيل: ٨٢، ديوان عبيد: ١٣١، ديوان بشر: ٨٦، ديوان طرفة: ٧٧، ديوان الشماخ: ١٠، المفضليات: ١٦٦، الوحشيات: ٤٣، العين: ٤٢، الصناعتين: ١٨٦، الأشباه والنظائر ١: ١٠٥، ديوان الحماسة: ٥٨.

تستدر ما بعدها، فالداعي يستصرخ ويستنجد، فيجاب ويغاث، وحتى إذا لم ينجد فإن دعوته في الأصل كانت طلباً للإجابة والنجدة.

ويستدل على هذا بالاستعمال القرآني للكلمة، ومشتقاتها، وتلازم الإجابة لها في كثير من الآيات القرآنية، فالله سبحانه وتعالى يستجيب دعاء من يدعوه مخلصاً ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[1] وكذلك اقترنت الاجابة بالدعاء في الحديث عن الآلهة التي اتخذها المشركون من دون الله تعالى فجاءت الآيات القرآنية الكريمة تبين لهم بأنهم انما يعبدون ما لا يسمع دعاءهم، ولا يستجيب لهم: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[2] أو أن الدعاء في الأصل انما يكون في انتظار الإجابة.

هذه الإجابة ملازمة لدعوة الداعي يوم القيامة قال تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾[3] حين نقرأ هذه الآيات الكريمة المتسلسلة السياق ترتسم في الذهن صورة الناس حين يفزعون لصيحة الداعي المهولة التي تنفّرهم إلى ساحة الحساب فيتراكضون حوله، ويستجيبون له بصورة

---

(١) سورة الكهف ١٨: ٥٤، وانظر أيضاً القصص ٢٨: ٦٤، الشعراء ٢٦: ٧٢، فاطر ٣٥: ١٤، الأحقاف ٤٦: ٥١، الأعراف ٧: ١٩٤.

(٢) سورة غافر ٤٠: ٦٠.

(٣) سورة طه ٢٠: ١٠٥-١٠٨.

تلقائية يتبع بعضهم البعض الآخر، وقد ملأ الفزع، والهلع قلوبهم. وتساعدنا صورة الداعي في الحروب على فهم إيحاءات مختلفة لهلع صيحة الداعي ونفيره، فهي لا توحي بمعنى الاجابة فحسب، إنما ترسم في الذهن كل ما توحيه البيئة الحربية في حياة العرب حين يفاجئ الحي بصريخ الداعي الذي يخبرهم بالغارة، وتضاف إلى هذا صورة تداعي الكثيب التي تصور لنا الناس في تراكضهم نحو الداعي بأنهم يتدافعون بعضهم فوق بعض، وقد ملأ الرعب والفزع قلوبهم.

أما المنادي فانه تعبير آخر للشخص الذي يدعو الناس يوم القيامة والذي سمي أيضاً بيوم التَناد قال تعالى على لسان الرجل المؤمن حين يخاطب قوم فرعون محاولا هدايتهم: ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾[1] وقال سبحانه وتعالى أيضاً ﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾[2]

هذه الآيات الكريمة صورت لنا حقيقة الموقف حين يهب الناس على صوت المنادي فيهرعون نحوه ملبين نداءه، مسرعين إلى ساحة الحشر المهولة.

أما المفسرون فقد اختلفوا في تفسير التناد نتيجة لإختلافهم في قراءتها.

---

(١) سورة غافر ٤٠: ٣٠-٣٣.

(٢) سورة ق ٥٠: ٤١-٤٢.

إن عامة قراء الأمصار (يوم التناد) بتخفيف الدال وترك اثبات الياء بمعنى التفاعل من تنادى القوم تناديا[1] وقال الأزهري: القراء على التخفيف الدال[2] وهذه القراءة توجه تفسير الآية عدة توجيهات.

١ – فسر التناد على أنه الخطاب والكلام الذي يكون بين الناس يوم القيامة، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3]﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[4] فلذلك تأوله قارئو هذه القراءة[5].

ونجد أن هذا التوجيه اعتمد على قول العرب: التنديدُ رفع الصوت[6].

قال أبو زيد[7]، وهو مجرد النداء الذي يكون بصوت مرتفع عال[8]. وقد وردت بهذا المعنى في أربع وخمسين آية[9]، ولكننا نجد أن السياق العام الذي ورد يه تعبير التناد

---

(١) جامع البيان ٢٤: ٦٠.

(٢) لسان العرب ٤: ٤٢٩.

(٣) سورة الأعراف ٧: ٤٤.

(٤) سورة الأعراف ٧: ٥٠.

(٥) جامع البيان ٢٤: ٦٠، وانظر أيضاً الكشاف ٣: ٥٣.

(٦) لسان العرب ٤: ٤٣، ابن السكيت عن المخصص ٢: ١٣٣، الفاخر: ٢٨٨.

(٧) أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري كان عالماً باللغة والنحو أخذ عن أبي عمرو بن العلاء، وأخذ عنه أبو عبيد القاسم بن سلام، والسجستاني. وكان ثقة من أهل البصرة وكان سيبويه إذا قال سمعت الثقة يريد به أبا زيد، توفي في البصرة سنة ٢٤١ أو سنة ٢٥١، أنظر نزهة الألباء: ٨٥–٨٨.

(٨) المفردات في غريب القرآن: ٥٠٥.

(٩) راجع المعجم المفهرس: ٦٦١.

أو المنادي مليء بالرعب والفزع لا مجرد مخاطبة الناس بعضهم بعضاً، فالناس في خوفهم يسرعون نحو الداعي وقد ذلت نفوسهم، وخشعت. وإنما تكون مخاطبة الناس كما تصوره سورة الأعراف بعد الحساب حين يساق المجرمون إلى جهنم، وينعم المؤمنون بالجنة. أما ساعة الحشر حين يجتمع الناس على صوت المنادي فلا مجال للمحاورة والحديث بينهم.

٢ – وفسر البعض الآخر ممن قرأ (التناد) بالتخفيف ان المقصود به ليس مجرد المخاطبة بين الناس، وإنما هو أعظم من ذلك وأكثر رهبة حيث يتصايح الناس خوفاً ورهبة مما ينتظرهم من العذاب. وقد روي عن رسول الله ﷺ هذا التأويل حيث قال:" مُدْبِرين ينادي بعضهم بعضا، وهو الذي يقول الله يوم التناد"(١). وسنجد أن هذا التفسير يعضد التفاسير الآخرى في رسم صورة المنادي.

٣ – ويمكن أن يفسر التناد بأنه اليوم الذي يُنادى فيه الناس، فيجتمعون لصوت المنادي الذي ينبههم وينفرهم من قبورهم. وهو التفسير الذي فسر به قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾(٢). فقد وصفوا هذا المنادي بأنه " ملك قائم على صخرة بيت المقدس وينادي أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة(٣). ويقوي ويقوي هذا التفسير الصور السابقة التي مرت بنا والتي تصور قيام الناس بعد النفير الذي يوجه إليهم بواسطة الصُّور، أو الناقور أو الداعي. وقد اعتمد في هذا التفسير

(١) جامع البيان ٢٤: ٦١.

(٢) سورة ق ٥٠: ٤١.

(٣) جامع البيان ٢٦: ١٨٣، التبيان ٩: ٣٧٦، وانظر أيضاً مجالس ثعلب ٢: ٣٨٦.

على أحد معاني الكلمة، وهو دلالتها على الإجتماع. قال أبو زيد: "نَدَّ القومُ وانتدوا: اجتمعوا، والنادي والنّدي المجلس مجتمعين فيه، فاذا تفرقوا فليس بندي"[1] قال بشر بن أبي خازم:

وما يَنْـدُ وهـمُ النـادي ولكـنْ
بكـل مَحَلَّـة مـنهمْ فِئـامُ[2]

الفِئامُ الجماعة من الناس. يريد أن قومه كثيرون لا يجمعم زاد، وإنما تجد منهم جماعة في كل مكان. ومعنى الجمع تؤكده آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ [3] وكذلك تسمية يوم القيامة بالحشر؛ لأن الناس يجمعون، ويساقون فيه إلى الحساب[4].

أما قراءة من قرأ (التنادّ) بتشديد الدال، فإنه قد اعتمد فيها على صورة وثيقة الصلة بالبيئة العربية، تلك هي صورة الإبل حين تفر من صاحبها وتهرب بعيداً عنه، فيقال عنها حينذاك (ندَّت). هذا المعنى هو الذي اعتمد عليه في هذه القراءة من الندّ

---

(١) المخصص ٣: ١٤٥، وانظر أيضاً مقاييس اللغة ٥: ٤١١، المفردات ٥٠٥، أساس البلاغة ٩٤٦، وقد وردت بهذا المعنى في سورة العنكبوت ٢٩: ٢٩٠، وسورة العلق ٦٩: ١٧، وانظر الشعر في ديوان طرفة: ٨٠.

(٢) ديوان بشر بن أبي خازم ٢٠٩، المفضليات: ٣٣٦.

(٣) سورة الكهف ١٨: ١٠٠.

(٤) مجاز القرآن ١: ٢٠٤، ٢: ٢٠، وانظر أيضاً الصحاح ٢: ٦٣٠، مقاييس اللغة ٢: ٦٧.

(وذلك إذا هربوا فندّوا في الأرض كما تندُّ الابل إذا شردت على أربابها)[١] وقال أبو الهيثم: (هو من ندَّ البعير نداداً أي شرد)[٢].

وهذا التفسير أقرب التفاسير إلى الحياة البدوية، لأن الصورة التي يوحيها أسرع إلى الذهن من الصورة الأخرى؛ لأنها صورة عالقة في ذهن العربي، مرتسمة أمام ناظريه، لأن الابل عماد حياته في الصحراء قد شهدها في هدوئها، ونِفارها، وخبر حركاتها وسكناتها، ومن هنا وفرت التعابير التي تخصُّ الإبل، ورسخت في الذهن العربي وتوحي له بالصورة المادية حتى إذا استعارها للتعبير عن معنى جديد مشابه لها أثارت في الذهن الصورة الحسية الأولى إلى جانب المعنى الجديد الذي استعملت فيه.

قال ذو الاصبع العدواني[٣] مفتخراً بكرامته، وعزة نفسه حيث يشرد وينفر من البلد الذي لا كرامة فيه متمثلاً في ذهنه صورة الإبل حين تنفر من صاحبها قال:

عَفٌّ نَدُودٌ إذا ما خفْتُ من بَلَد
هَوناً فَلَسْتُ بوَقافٍ على الهونِ[٤]

(١) جامع البيان ٢٤: ٦١.

(٢) عن لسان العرب ٤: ٤٢٩، وانظر ايضاً جمهرة الغة ١: ٧٧، ٣: ١٩٠، والصحاح ١: ٥٤٠، مقاييس اللغة ٥، ٤١١، المخصص ٧: ٥٨ باب ترك الابل وإهمالها.

(٣) ذو الإصبع العدواني واسمه حرثان بن حارثة بن محرث، وقيل له ذو الإصبع لأن أفعى ضربت إبهام رجله فقطعها، وهو أحد الحكماء الشعراء قيل أنه عمِّر دهراً، انظر الشعر والشعراء ٢: ٥٧٩، المعمرون: ٥٨، المؤتلف والمختلف: ١٧٠.

(٤) المفضليات: ١٦٣.

فصورة الإبل حين تنفر من صاحبها واضحة في ايحاءات البيت السابق ولكن موحيات التعبير القرآني أعمق آثاراً؛ لأنها ترسم حول التعبير صوراً أخرى تزيد ملامح صورة نفار الإبل وضوحاً وبياناً، فيوم التناد هو اليوم الذي يفر الناس فيه بعضهم من بعض، يشبهون في ذلك الإبل حين تندّ على وجهها بعيداً عن أصحابها، وتنفر هاربة منه، ومن الطبيعي أن الإبل لا تفرّ من أصحابها إلاّ إذا فزعت واضطربت اضطراباً شديداً. وبذلك شبه بها حال الناس حين يسمعون صوت النفير المفزع، يفر كل إنسان بنفسه ناسياً أهله وأولاده؛ لأن هول الموقف لا يبقي لهم تفكيراً، ويكون الناس عند سماعهم صوت النفير كما تصورهم الآيات الكريمة: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ [1].

ومع أننا نجد أن المعاني الأخرى التي توحيها كلمة المنادي، والتناد، تجتمع كلها لترسم صورة ساعة النفير إلا أن صورة الابل الشاردة أوضح ملامح، وأعمق أبعاداً من الصور المعنوية الأخرى. وهذا التوجيه للآية الكريمة يرسم صورة الناس المفزوعين المدبرين الذي يتصايحون، ويتصارخون بالويل والثبور؛ لأن الآية التي ورد فيها (التناد) قد أتبعت بقوله جل من قائل: ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [2].

---

(١) سورة المعارج ٧٠: ٨-١٤.

(٢) سورة غافر ٤٠: ٣٣

وإذا عدنا إلى التفاسير السابقة نجد أن المفسرين اعتمدوا على أربع استعمالات للكلمة –كما مرت بنا– وهي النداء بمعنى رفع الصوت بالمخاطبة، ثم التنادي بمعنى التصايح من الخوف والثبور، وثالثها النداء حيث يجتمع الناس على صوت يناديهم، وهو الاستعمال الذي قد يبدو متعارضاً مع الاستعمال الرابع الذي هو النفور.

وتبدو هذه التفاسير بعيدة بعضها عن البعض الآخر، ولكن تتبع استعمال الكلمة يعيننا على ايجاد تفسير واحد يجمع كل التفاسير السابقة، وذلك اذا اعتبرنا الفعل الثلاثي المضعف (نَدَّ) هو أصل الكلمة أو هو يدل على التجمع، ثم فك ادغام الحرف الأخير فقيل (نَدى). قال ابن فارس: (النون والدال والحرف المعتل يدل على تجمع)(١). ومنه الندى الذي هو البلل والرطوبة(٢)، ثم استعير من هذا وصف الصوت الندي من حيث أنه من تكثر رطوبة فمه يُحسن كلامه، ولهذا يوصف الفصيح بكثرة الريق(٣)، وهو معنى نلمحه أيضاً في المنادي؛ لأن صوته يكون عالياً يُسمع كل من في القبور.

تطورت الكلمة إلى ندَّ بمعنى تفرق كما مر بنا(٤). ثم قيل نادى بمعنى صاح وخاطب ولا يوجد فرق أو تضاد بين معنى ندَّ الذي هو التفرق وبين ند الملازمة

(١) مقاييس اللغة ٥: ٤١١.

(٢) عدَّ ابن فارس هذا المعنى أصلاً آخر للكلمة بعد أن وضع لها الأصل الأول الذي هو التجمع، ولكننا نجد أنه استعمال آخر للكلمة بعد أن فُكَّ ادغام حرفها الأخير، ويظهر فيه معنى التجمع أيضاً، لأن الرطوبة او البلل تنتشر على النبت إذا وجدت.

(٣) المفردات: ٥٠٥.

(٤) يلاحظ في هذا الباب قول الخليل في الثنائي المضاعف كالصلصلة مثلاً: لسان العرب (ندد).

للمنادي يمعنى التجمع، كل تجمع يكون نتيجة لتفرق وكل تفرق. متأتٍ عن تجمع، فكلاهما حركة متصلة تصل الأولى الثانية وتكون نتيجة لها[1].

والتفسير الذي نراه جامعاً لكل المعاني السابقة يوضحه لنا استعمال كلمة المنادي في الشعر الجاهلي، لأنها اطلقت مرادفة لمعنى الدّاعي الذي مرّ بنا سابقاً، فالمنادي هو الذي يستخرص القوم عند الحروب والغارات المفاجئة، ويدعوهم إلى الأمر الهام الذي ينتظرهم. قال بشر بن أبي خازم:

بشِيبٍ لا تخيمُ عن المنادي

ومُردٍ لا يُروِّعها اللقّاء[2]

وصريخ المنادي يرهب من يسمعه في الحروب. ومن هنا فهو مدعاة للمفخرة بين الشعراء فيفخر شاعرهم بنجدته لصريخ المنادي، ودعوته إلى الحرب والدفاع. قال دريد بن الصمة:

إني إذا نادى المُنادي لَيْلَةً

إحدى ليالي الحَقِّ لم أتغفل[3]

(١) وقريب من هذا بحث ابن جني حول مادة (قول)، فإنها كما يقول (اين وجدت، وكيف وقعت من تقدم بعض حروفها على بعض وتأخره عنه إنما هو للخفوف والحركة" إنظر الخصائص ١: ٥.

(٢) ديوان بشر بن أبي خازم: ٦.

(٣) الوحشيات: ٢٥٥.

فالمنادي اقترنت صورته بصورة الفزع والرعب الذي يثيره الصريخ المُفاجئ، فما أن يسمع القوم صوته حتى يعرفوا حقيقة أمرهم، وهي أن غارة مفاجئة قد داهمتهم قال الكلحبة العربني[1].

ونــادى منــادي الحــيّ أنْ قــد أُتِيُمُ

وقــد شُرِبــتْ مــاء المَــزادَةِ أجْمعــا[2]

وحين ينادي المنادي مؤذنا للحرب والغارة يجتمع حوله الناس، ملبين نداء الدفاع عن القبيلة وشرفها، ومن الناحية الاخرى قد يسبب صريخ المنادي هرب الجبناء من الناس ومن هنا جاء معنى التفرق والتجمع الذي يفهم من كلمة المنادي في الآية الكريمة.

وينادي القوم بعضهم بعضاً في الحروب والهجمات المفاجئة، ليحملوا الجميع على الحرب والاغاثة قال طفيل الغنوي.

فَبــاتُوا يَســنُّونَ الزّجــاجَ كــأنَّهم

إذا مــا تَنَــادوا خَشْرــمٌ مُتحَــدِّبُ[3]

ونعود إلى الآية الكريمة حيث نجد أن كلمة التناد استعملت مطلقة دون الاشارة إلى تناد الابل، أو تنادي القوم وصياحهم، واستعمالها مطلقة هو الذي يزيد من

(١) اسمه هبيرة بن عبد مناف بن ثعلبة بن يربوع، أحد فرسان بني تميم وساداتها، شاعرٌ محسِّن والكلحبة لقبه ومعناه في اللغة صوت النار. المؤتلف والمختلف: ٢٦٣ – ٢٦٤، خزانة الأدب ١: ١٨٩.

(٢) المفضليات : ٣١.

(٣) ديوان طفيل: ٢١، وانظر تنادي الخيل في الحرب ديوان بشر بن أبي خازم: ١٠ المخصص ٦: ١٤١.

هول الوصف والفزع ليوم القيامة، وتجتمع كل المعاني التي تتداعى عند ذكر كلمة التناد، وتتعاون كلها على رسم صورة الناس المدبرين من الفزع، وقد أشار الزمخشري إلى هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ ﴾[1]. قال: (فإن قلت فأي فائدة في الجمع بين المنادي وينادي؟ قلت: ذكر النداء مطلقاً ثم مقيداً بالإيمان تفخيماً لشأن المنادي، لأنه لا منادي أعظم من منادٍ ينادي للإيمان! وذلك أن المنادي إذا أطلقت ذهب الوهم إلى منادٍ للحرب أو لإطفاء نائرة، أو لإغاثة المكروب، أو لكفاية بعض النوازل أو لبعض المنافع)[2].

ومن هنا جاءت الروعة في التعبير القرآني، وتجلّى الإعجاز في كلمة واحدة مطلقة عن التحديد بايحاء خاص، فأوحت بكل ما توحيه كلمة المنادي بمعانيها المختلفة. فهي ترسم في الذهن شتى الصور الزاخرة بالحركة والانفعال، ذلك لأن الناس يهبّون من قبورهم أثر منبه مفزع هو المنادي الذي يدعوهم إلى يوم الحساب فيجتمعون تلبية لندائه، ولكنهم في الوقت نفسه يتنادون بينهم ويتصايحون خوفاً وهلعاً، ويفر بعضهم من بعض هارباً على وجهه كما تندُّ الابلُ بكل ما يحمله هذا المعنى الأخير من إيحاءات وثيقة الصلة بالبيئة العربية.

وعلى هذا فكل تفاسير المفسرين السابقة يمكن أن تفهم مجتمعة في التعبير القرآني، وهي الإيحاءات نفسها، المرعبة المليئة بالحركة السريعة التي مرت بنا في

---

(١) سورة آل عمران ٣: ١٩٣

(٢) الكشاف ١: ٣٦٩.

الدّاعي. ومن تعبيري الداعي والمنادي تتشكل الصورة الثانية من صور النفير العام الذي يكون قوامه صوتاً مفزعاً ينادي الناس، ويجمعهم من قبورهم إلى ساعة الحساب.

ج - الصيحة والزجرة:

وأخيراً فهناك اللوحة الثالثة التي يشكلها تعبيران أيضاً هما الصيحة والزجرة، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٤٨) مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾[1]

وقد فسرت الصيحة بالنفخة[2]، وتفسيرها هذا متأتٍ من طبيعة استعمالها وكونها مبهمة غامضة، فهي توحي مع السياق العام بكل معاني الرعب والفزع. وبما أن النفخ في الصُّور أو الناقور يتبعه صوت شديد يلائم شدة يوم القيامة فهذا الصوت هو الذي فهم منه معنى الصيحة فقالوا إنّها النفخة، وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾[3]. روي عن ابن عباس انه فسر المنادي بالصيحة[4]. ونفهم هذا التفسير إذا تذكرنا أن نداء المنادي، وصريخه عند الملمات إنما يكون بصوت مرعب عال – كما مرّ

(١) سورة يس ٣٦: ٤٨ – ٥٣.
(٢) جامع البيان ٢٣: ١٤، التبيان ٩: ٣٧٦/ الكشاف ٣: ١٦٥.
(٣) سورة ق ٥٠: ٤١
(٤) جامع البياان ٢٦: ١٨٣.

بنا – وأن صوت المنادي يوم القيامة يكون مرعباً مفزعاً عالياً؛ لينبه الناس من قبورهم ويدعوهم ليوم الحساب.

والصياح في الأصل هو الصوت الشديد الجافي كما يقول صاحب العين[1]. وقال السجستاني الصرخة: الصيحة الشديدة عند الفزع وقيل هو الصوت الشديد ما كان[2]. وهو الاصل الذي وضعه ابن فارس للكلمة حين قال (الصاد والياء والحاء أصل صحيح وهو الصوت العالي)[3].

وكما لازم المنادي والداعي البيئة العربية في حروبها، وصريخها عند الملمات كذلك الصيحة؛ إذ أنها اطلقت على الغارة إذا فُوجئ الحي بها[4]. وتصايح القوم بمعنى تداعوا[5] ولما كان الصياح مقابلاً للصريخ الذي هو صوت غير اعتيادي، فإن سماعه يؤذن بشر، وأذى يلحق القوم وإنذار من حادث مفاجئ مرعب. فاذا سمع الصياح تبادر إلى الذهن الرعّب، والفزع، قال النابغة الذيباني:

كـأن عـلى الحـدوجِ نعـاج رَمْـل

زهاهـا الرّعـبُ أو سـمعت صـياحاً[6]

(١) عن المخصص ٢: ١٣٣

(٢) نفسه ٢: ١٣٢

(٣) مقاييس اللغة ٣: ٣٢٤

(٤) لسان العرب ٣: ٣٥٣

(٥) أساس البلاغة: ٥٥٠

(٦) ديوان النابغة الذيباني: ٢٧، وانظر شواهد أخرى من الشعر في المفضليات : ١٢٤، الوحشيات: ٦٩، الحيوان ٥: ٦٠٢.

وقال أيضاً مادحاً بني جديمة بأنهم إذا سمعوا الصياح بادورا إلى الإجابة:

قـــومٌ إذا كثُــرَ الصـــياحُ رأيـــتهم
وُفْـــراً غـــداةَ الـــرَوعِ والإنفـــارِ[1]

وفي هذا دلالة على ما توحيه كلمة الصيحة من أنها وسيلة للنفير مقترنة بالرّاعب والصوت المفزع في البيئة العربية.ولما كانت الصيحة مقترنه بالفزع، فإن الهلاك متوقع بعدها، لأن فيها انذاراً لما بعدها. ومن هنا فسّر أبو عبيدة الصيحة بالهلاك قال: (فأخذتهم الصيحة مصبحين أي الهلكة، ويقال صيح بهم أي أهلكوا)[2] وذلك لأن الهلاك يتبع الصيحة القوية الصادرة عن الرعب، وهو الحادث.

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ﴿٩﴾
يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ
زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾[3].

فقد فسرت الزجرة هنا بالنفخة[4] وقرنت بالصّور. قال السجستاني: (زجرة واحدة يعني نفخة في الصور)[5]ثم فسر نوع الزجرة ودلالتها فقال: (الزجرة: الصيحة بشدة وانتهار)[6].

---

(١) ديوان النابغة الذيباني: ٦.

(٢) مجاز القرآن ١: ٣٥٤.

(٣) سورة النازعات ٧٩: ٦ – ١٤، والساهرة: وجه الأرض المستوية أنظر الكشاف ٣: ٣٠٩، المخصص ١٠: ٦٨، ١٤٦.

(٤) تنوير المقياس: ٣٨٠، جامع البيان ٣٠: ٣٥.

(٥) غريب القرآن: ١٢٢.

(٦) نفسه.

أما الزمخشري فقد فسَّرها بالصيحة ثم حدد الصيحة بأنها النفخة الأولى قال: (فإن قلت بم تعلق قوله فانما هي زجرة واحدة؟ قلت بمحذوفٍ معناه، لا تستصعبوها فإنما هي زجرة واحدة، يعني لا تحسبوا تلك الكرة صعبة على الله عز وجل فإنه سهلة هينة، ما هي إلا صيحة واحدة يريد النفخة الأولى)[1]، وحددها الطوسي بالنفخة الثانية[2].

وكما استطعنا أن نتعرف على سبب جمع المفسرين بين الصيحة والتعابير الأخرى للنفير، كذلك هنا، لأنه لما كانت الآيات الكريمة التي تخص النفير يوم القيامة مرتبطة كلها بصوت مرعب مفزع، فإن هذا الجو نفسه يملأ إيحاء كلمة الزجرة مما يوجه المفسرين إلى تفسيرها بالنفخة والصيحة، ولم تقترن الزجرة بالصريخ المفزع عند الملمات كما هو الحال بالصيحة فحسب انما الملاحظ اقترانها بالشدة والهول أكثر مما هو في الصيحة، لما في الأولى من ايحاء القوة والعنف.

هذا المعنى الشديد المرعب استمد ايحاءه من البيئة العربية نفسها حيث اطلقت الكلمة على معنى حسّي يشهده العربي في كل وقت وهو معنى الصيحة والانتهار التي يزجر بها الحيوان ويساق على أثرها بشدة، وعنف، قال الخليل: (نَعَق الراعي الغنم نعيقاً: صاح بها زاجراً[3])، وقال ابن سيدة في باب الزجر بالخيل، والبغال، والحمير: (زجرت الدابة والرجل والسبع ونحو ذلك ازجُرهُ زجراً، وازدجرتُهُ فانزجر وازدجر)[4].

---

(١) الكشاف ٣: ٣٠٩.

(٢) التبيان ١٠: ٢٥٤.

(٣) العين ١: ٨٩.

(٤) المخصص ٦: ١٨٢.

وقال الراغب: (الزجرة طردٌ بصوتٍ ... ثم يستعمل في الطرد تارة، وفي الصوت أخرى، واستعمال الزجر لصياحهم بالمطرود نحو أن يقال أغرب وتنح وراءك)[1].

وقد اختلف في هذا الصوت الذي يُزجر به الحيوان تبعاً لنوعه، وما اعتاده من الصوت الذي يؤثر فيه ويزجره[2]. ومن هنا قيل زَجَرَ البعير أي ساقه[3]، لأن السوق نتيجة للصيحة أو نتيجة لزجر الراعي لها بشدة تدفعها نحو السير، ومن هنا جاء تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ① فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾[4] حيث فسرت الزاجرات بالملائكة لأنها تزجر السحاب أي تسوقه[5].

وسوق الإبل بالزجر ينمّ عن قوة وشدة اعتاد العربي أن يسوق إبله بها إذا أراد إسراعها أو إذا أحجمت عن المسير، ومن هنا عابوا على امرئ القيس قوله في مفاخرته مع علقمة الفحل واصفاً فرسه:

فللساقِ الهوبُ وللسَوطُ دِرَّةٌ

وللزجرِ منه وقعُ أهوجَ مِنْعَبِ[6]

لأن الفرسَ الجيدة لا تحتاج إلى القوة والزجر في سيرها، فعدَّ هذا مأخذاً عابوه عليه[7].

(١) المفردات: ٢١١.

(٢) المخصص ٧: ٨٠.

(٣) الصحاح ٢: ٦٦٨، لسان العرب ٥: ٤٠٧.

(٤) سورة الصافات ٣٧: ١ – ٢.

(٥) جامع البيان ٢٣: ٣٣، أساس البلاغة: ٣٩٤.

(٦) ديوان امرئ القيس: ٥١.

(٧) الصناعتين: ٧٤٠.

وإذا زجرت الإبل فإنها لا تسرع فحسب، بل تصيبها الخفة والطيش لما في الزجرة من نهر شديد يثير رعبها وخوفها، ومن هنا فخروا بالناقة التي لا ترعب إذا زجرت [1].

وإذا كانت الغارات المفاجئة تستدعي السرعة في الهجوم والكرّ والفرّ فقد اقترن الزجر باختلاط أصواتهم في الحروب، قالت الخرنق بنت هفان [2].

قــومٌ إذا ركبــوا ســمعْتَ لهــم

لَغطـــاً مـــن التأييـــهِ والزجـــرِ [3]

وأنشد أبو عثمان المازني [4]:

لّمـــا ســـمعت زجـــرهم هِقَـــطُ

علمـــت أن فارســـاً مُـــنْحطٌّ [5]

(١) أراجيز العرب: ١٧، أنظر أيضاً المخصص ٧: ١٢٣.

(٢) هي الخرنق بنت بدر بن هفان وبعضهم يسميها الخرنق بنت هفان بني ضبيعة، وهي أخت طرفة بن العبد لأمه، شاعرة من الشهيرات في الجاهلية تزوجها بشر بن عمرو بن مرثد سيد بني أسد وقتله بنو أسد فكان أكثر شعرها في رثائه ورثاء أخيها طرفة أنظر خزانة الأدب ٢: ٣٠٦، ٣٠٧.

(٣) ديوان الخرنق بنت هفان ٤٥.

(٤) هو بكر بن محمد بن حبيب بن بقيه، أبو عثمان المازني من مازن أحد الأئمة في النحو. من أهل البصرة، ووفاته فيها. انظر معجم الأدباء ٢: ٢٨٠ فما بعدها.

(٥) الكامل للمبرد ١: ٢٣٧.

ومن هذا المعنى الحسي جاء الاستعمال المعنوي للزجر وهو دلالته على النهر، والردع مطلقاً، قال الزجاج الزجر: النهر[١]. وقد وردت بهذا المعنى في الشعر الجاهلي[٢]، ومنها قالوا: الزواجر: المواعظ؛ لأنها تزجر الانسان وتمنعه عن السيآت[٣].

ومن هنا يتضح لنا أن استعمال الزجرة في القرآن الكريم مطلقة يزيد من إيحاء العنف والقوة الذي لازم ساعة النشور؛ لأنها صوت مبهم، ولكنه مفزع يرعب كل من يسمعه، وقد قرن الزمخشري الزجر بمعناه الحسي حين فسر الآية قال هو (من قولهم زجر البعير اذا صاح عليه)[٤]وقد مر بنا أن زجر البعير ليس صياحاً عليه فحسب بل هو نهر، وسوق بشدة وقوة مما جعل الزجرة في القرآن الكريم وسيلة للنفير تثير في الذهن صورة للبيئة العربية مقترنة بالرعب والسرعة والسوق الشديد، فكأن الناس لا يوقظون على الصوت المفزع فحسب، إنما يساقون ويدفعون بكل ما تحمله كلمة السوق.

فحشر الناس من قبورهم مصحوب في كل صور النفير بالرعب والفزع، وقد أضاف تعبير الزجرة معنى آخر هو الذل والعنف، كما أن توكيدها بكلمة (واحدة) يدل على القوة والسرعة، لأنها تبين سهولة قيام الساعة عند الله، وسرعة قيامها إثر صيحة وزجرة واحدة لا أكثر.

---

(١) لسان العرب ٥: ٤٠٧، وانظر أيضاً الصحاح ٢: ٦٦٨.

(٢) أنظر ديوان النابغة الذبياني: ٦٨، ديوان الحطيئة: ١٧٥، ديوان عروة بن الورد: ٧٢، شرح ديوان كعب بن زهير: ٢١٣، الكامل للمبرد ١: ١١٦.

(٣) أساس البلاغة : ٣٩٤ . وهو المعنى الذي فسر به قوله تعالى في سورة القمر ٥٦: ٤ (ولقد جاءهُم من الأنباء ما فيه مزدجر)، فقصص الأنبياء، والأقوام السالفة زجر للمشركين، لأن فيها ما يردعهم، ويزجرهم عمّا هم عليه مقيمون من التكذيب بآيات الله. جامع البيان ٢٧: ٨٩.

(٤) الكشاف ٣: ٣٠٩.

وبهذين التعبيرين الصيحة والزجرة تتشكل في الذهن لوحة ثالثة للنفير وحشر الناس إثْرَ منبه عظيم يرعبهم.

هذه اللوحات الثلاث عرضت في القرآن الكريم لبيان غرض واحد هو النفير الذي يُحْشر بواسطته الناس يوم القيامة، وإذا كانت هذه التعابير قد اختلفت وتنوعت، فإن الروح مشتركة فيها جميعاً، فالصور والناقور قِوام اللوحة الأولى هما وسيلتا النفير ينفخ فيهما فيسببان صوتاً مرعباً يجتمع على إثره الناس. أما الداعي والمنادي فإنهما يصيحان بصوت مرعب مفزع، فيهرع الناس نحوهما تلبية للنداء، وقد ذهلت عقولهم، وفزعت قلوبهم.

أما الصيحة والزجرة فقد صورتا النفير بصوت مرعب واحد يفاجئ الناس فيحشرهم ليوم القيامة. فصوت النفير المرعب مشترك في اللوحات الثلاث، كما أن الايحاءات التي ترسمها الآيات الكريمة في الذهن هي نفسها في كل التعابير ألا وهي الفزع وإسراع الناس نحو النفير، وقد ذلت نفوسهم وأحاطهم الرعب والفزع، وشُغِل كل منهم عن غيره، لا يفكر إلاّ في الهول الذي ينتظره، والذي رأى بوادره في النفير المفزع الذي دعوا بواسطته.

٢ — مدة النفير

حين كثرت التعابير التي تصور النفير اختلط على المفسرين أمر تحديد المرات التي يدعى فيها الناس إلى النفير، لذلك نراهم مثلاً قد اختلفوا في تحديد الصيحة. فقد فسّرت مطلقة عن التحديد بالنفخة الأولى، أو الثانية أو الثالثة عند بعض المفسرين[1]

(١) جامع البيان ٢٣ : ١٤، الشكاف ٣: ٥٥.

وعند الطوسي والزمخشري النفخة الثانية[1] وفسّرها الطبري بالنفخة الثالثة[2]، وكذلك الحال مع الزجرة[3].

واختلاف المفسرين في تحديد المرات التي يدعى فيها الناس يمكن أن نجد له تعليلاً، فهم لم يفهموا أن التعابير الستة التي مرت بنا إنما هي وسائل متعددة الوجوه لبيان صورة واحدة هي صورة النفير الذي يدعى بواسطته الناس وأن هذه التعابير تشترك كلها في بيان هذه الصورة، ثم اننا نجد في سياق الآيات التي ورد فيها ذكر الصُّور إشارات الى تكرر النفخ فيه، مما يدفع الذهن إلى الاعتقاد بتكرار النفير أكثر من مرة قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[4].

وقال أيضاً: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾[5].

ويبدو أنه لا تعارض بين توكيده عز وجل الآيات التي تخص النفير بكلمة (واحدة) ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾[6]. لا تعارض بين هذا التوكيد وبين فهم المفسرين للنفخات وتحديدها بالأولى والثانية والثالثة! لأن النفير الذي يدعى إليه الناس إنما يكون مرة واحدة سواء كان ذلك بالصُّور أو بدعوة الداعي،

---

(١) التبيان ٩: ٣٧٦، الكشاف ٣: ١٦٥.

(٢) جامع البيان ٢٣: ١٧.

(٣) التبيان ١٠: ٣٥٤، الكشاف ٣: ٣٠٩.

(٤) سورة الزمر ٣٦: ٦٨.

(٥) سورة النازعات ٧٩: ٦ - ٧

(٦) سورة ص ٣٨: ١٥.

وإنما يُنْفَخُ في الصُّور أول مرة فتموت الخلائق، وهي التي يصعق لها من في السماوات والأرض، وتختم فيها الحياة، وتتلو هذه نفخة أخرى وهي نفخة النفير التي تبعث الناس من قبورهم إعلاماً لساعة الحساب، ومن هنا نجد أن النفير يوم القيامة إنما يكون بنفخة واحدة لا علاقة لها بالنفخة الأولى التي تسبق موت الخلائق، وفناء العالم، وهي بهذا لا تدخل ضمن بحثنا للنفير وحشر الناس من قبورهم. ونجد لهذا التوكيد دلالة أخرى وهي تصويرها لسرعة مدة النفير، وإنه يكون بطواعية ودون تأخير، ومما يؤكد كون التعابير الستة السابقة وسائل عديدة لتصوير النفير، وإنها لا يراد بها تحديد عدد المرات أن كلمة (واحدة) لازمت النفخة، والصيحة، والزجرة، فلو كان القصد إظهار العدد للازمت تعبيراً واحداً دون التعابير الأخرى.

وعند النفير المرعب الذي ينبه الناس بواسطته يجدون أنفسهم وجهاً لوجه أمام الهول والفزع، وتنفصم الأواصر الدنيوية التي يتقرب بها الناس بعضهم إلى بعض، فلا أنساب تنفعهم ولا سلطان ينتشلهم من العذاب الذي ينتظرهم يتمنون العودة إلى الحياة الدنيا، وآنى لهم ذلك إذ لا مفرّ لهم بعد أن قامت الساعة ونُودي للحساب. هذه الفكرة صورت بتعبير رائع في آية قرآنية كريمة تعكس لنا صورة زاجرة بالحياة الإنسانية وفيها انعكاس للبيئة العربية:

قال سبحان وتعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ ۚ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾[1].

---

(١) سورة ص ٣٨: ١٢-١٥.

وقد اختلف المفسرون في قراءة الفُواق بالفتح أو الضم، واختلفوا في تفسيرها تبعاً لذلك قال الفراء: (ما لها من فُواق يقرأ بالضم والفتح أي مالها من راحة، ولا إفاقة، ولا نظرة، وأصلها من الإفاقة في الرضاع إذا ارتضعت البهيمة أمها ثم تركتها حتى تنزل شيئاً من اللبن فتلك الإفاقة الفواق)[1]. وقال أبو عبيدة ما لها من فُواق من فتحها قال: ما لها من راحة، ومن ضمُّها فُواق، وجعلها من فُواق ناقة وهو ما بين الحلبتين)[2].

أما الطبري فاختلاف القراءة لا تعني عنده اختلافاً في المعنى لأنهما قراءتان لكلمة واحدة تعنيان معنى واحداً[3].

وقد جمع الزمخشري المعنيين في تفسيره حين قال: (ما لها من فواق وقرئ بالضم ما لها من توقف مقدار فُواق الناقة وهو ما بين حلبتي الحالب، ورضعتي الراضع، يعني إذا جاء وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان كقوله تعالى: (فإذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يستأخرون ساعةً)[4].

أما عند اللغويين فنجد أن ابن فارس قد وضع معنى الأوبة والرجوع أصلاً للكلمة، وحاول أن يربط المعاني الأخرى به كُفواق الناقة مثلاً، ولكن الظاهر أن معنى الأوبة والرجوع متأخر عن معنى فُواق الناقة، وذلك لأن الثاني معنى حسّي سابق في

(١) لسان العرب ١٢: ١٩٤.

(٢) مجاز القرآن ٢: ١٧٩، غريب القرآن: ١٨٥، تأويل مشكل القرآن ١١٣، مجالس ثعلب١: ١٦١، الصحاح ٤: ١٥٤٦، مقاييس اللغة ٤: ٤٦١، المخصص ٧: ٣٧.

(٣) جامع البيان ٢٣: ١٣٣.

(٤) الكشاف ٣: ٤٦١.

الوجود في البيئة العربية التي اهتمت أول ما اهتمت بالمعاني المتعلقة في بيئتها، ثم اشتقت منها المعاني الأخرى ومنها المجازية مثلاً.

وفُواق الناقة رجوع اللبن في ضرعها بعد الحلب[1]، أو هو ما بين الحلبتين من الوقت؛ لأنها تحلب ثم تترك يرضعها الفصيل، لتدر ثم تُحلب[2] وقد وردت في الشعر الجاهلي دالة على هذا المعنى الحسي كما وردت في شواهد أخرى دالة على المعاني المجازية قال الأعشى:

حتى إذا فِيقَة في ضَرْعِها اجتمعت

جاءت لترضع شقَّ النَّفس لو رَضعا [3]

قال أيضاً متغزلاً بصاحبته مشبها إياها بالظبية ثم يستمر واصفاً الظبية:

ما تعادى عنه النهارَ ولا تعـ

ـجوهُ إلا عفافة أو فواق

أي أنها لا تبتعد عن رضيعها طوال النهار، ولا تؤخر رضاعته إلا ريثما يجتمع في ضرعها بعض اللبن[4].

وقال الطرماح وهو الشاهر الخارجي الذي ينحو في شعره نحو الإعراب وأهل البادية قال يصف سرعة قداح أُجيلت فيشبهها بغزلان تذكرت فيقة آرامها:

تخُورُ بالأيدي إذا اسْتُعِجلَتْ

(١) الصحاح، لسان العرب (فوق)، مقاييس اللغة ٤: ٤٦١.
(٢) تأويل مشكل القرآن: ١١٣، الصحاح ٤: ١٥٤٦، غريب القرآن: ١٨٥.
(٣) ديوان الأعشى: ١٣، وانظر أيضاً شرح القصائد السبع: ١٣.
(٤) ديوان الأعشى: ٣٢.

عَـــدْواً عــــلى خِفِـــة أجســـامها

خــــوارَ غـــزلان لِـــوى هيـــثَمِ

تــــــذكرت فِيقـــــة آرامهـــــا [1]

ووردت كذلك في الحديث النبوي الشريف في قوله ﷺ: من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة [2]. وروى عنه ﷺ أنه قال: عيادة المريض قدر فواق الناقة [3]. ومن هذا المعنى الحسي اشتقت باقي المعاني الأخرى المعنوية منها والمجازية. فالأفاويق ما اجتمع من السحاب من ماء فهو يمطر ساعة بعد ساعة [4]. وصورة فواق الناقة واضحة هنا في اجتماع الماء في السحاب بين الفينة والأخرى.

ومن المجاز تَفَوقْتُ الماء شربته شيئاً بعد شيء [5]. وكذلك الفُواق وهو الذي يأخذ الإنسان عند النَزع، وكذلك الريح التي تشخص في صدره [6] والفواق ترديد الشهقة [7] فكأن نزع الموت سمي فواقاً؛ لأن الروح عند النزع تقبض ثم تعود، كما يرجع اللبن عند فواق الناقة.

---

(١) ديوان الطرماح: ١٦٣.

(٢) سنن الدارمي ٢: ٢٠١، وانظر أيضاً مسند الأمام أحمد ٢: ٢٠٦.

(٣) لسان العرب ١٢: ١٩٤.

(٤) أساس البلاغة: ٧٣٢، المخصص ٤: ٣٨.

(٥) أساس البلاغة: ٧٣٢، المخصص ٧: ٣٨، ٩: ١٠٨.

(٦) الصحاح ٤: ١٥٤٦، المخصص ٣: ١١٧، ٥: ٧٨

(٧) لسان العرب ١٢: ١٩١، النوادر ١: ١٠٣، المخصص ٦: ٢٣

وقولهم ما يفيق وما يستفيق من الشرب [1]. واستفاق من مرضه وأفاق[2]. وهذا المعنى مستمد أيضاً من المعنى الحسي المستعمل في الآية، وهو فواق الناقة وقد صَرَّحَ المفضل بن سلمة بهذا الأصل وعلاقته بإفاقة الشرب (ما يَفيقُ وما يستَفيق من الشرب معناه أنه لا يدعه، وأصل هذا من قولهم استفقتُ الناقةَ وهو أن تحلبها ثم تدعها حتى يثوب لبنها ثم تحلبها. فقولهم ما يفيق وما يستفيق أي ليس له وقت ملعوم) [3].

ومن هنا نرى أن قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ [4]. إنما يرسم للسامع صورة واضحة الملامح للبيئة العربية إذ أنها توحي أول ما توحي بالأصل الحسِّي وهو فواق الناقة إلى جانب المعنى المجازي المراد من الآية وهو معنى العودة والرجوع. ونحن نعرف أهمية الناقة في الحياة العربية وصلة العربي بها، وكيف أن لغته قد وفرت بالألفاظ التي تخص الإبل [5] وتنقل الآية الكريمة إلى الذهن الوقت القليل الذي يستلزمه فواق الناقة. ويعكس لنا هذا المعنى أهمية الناقة، وكيف أنها ربطت حياة العرب بها حتى صار يحدد بعض أوقاته، بظاهرة تحدث أمام ناظريه، وهي المدة القصيرة التي تستدعي نزول اللبن من الضرع. ومن هنا جاء الإعجاز القرآني ليرسم صوراً شتى في ذهن القارئ في كلمة واحدة لها دلالتها على البيئة العربية كالفواق بدل أن يقرر بتعبير معنوي خالص بأن النفير الذي يدعى إليه الناس لا مفر

---

(١) الفاخر: ٢٨١.

(٢) الصحاح ٤: ١٥٤٧، المخصص ٥: ٨٧.

(٣) الفاخر: ٢٨١

(٤) سورة ص ٣٨: ١٥.

(٥) انظر المخصص كتاب الإبل ٧: ١-١٧٤.

منه ولا مهرب من عذابه وقد أكد هذا المعنى في آيات أخرى للدلالة على سرعة قيام الساعة ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾[1]. ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمْحِۭ بِٱلْبَصَرِ﴾[2].

هذه هي صورة النفير بتعابيرها المختلفة التي تصور سرعة قيام الناس من قبورهم والهلع الذي يعتورهم عند سماعهم صوت النفير المفزع. وفي كل هذه الصور وجدنا ملامح متعددة الجوانب للبيئة العربية تسرع إلى الذهن، لترسم صورة حية إلى جانب المعنى المعنوي المراد إيضاحه في الآيات الكريمة.

---

(١) سورة النحل ١٦ : ٧٧.

(٢) سورة القمر ٥٤: ٥٠.

الفصل الثاني

اضطراب السماوات والأرض

١ – اضطراب الأرض:

أ – رَجتها وزلزلتها

ب – تكسر الجبال وتفتتها

٢ – اضطراب السماوت

أ – تحولها إلى سائل

ب – دورانها

ج – تشققها وانفطارها

د – تناثر النجوم

2

الفصل الثاني

اضطراب السماوات والأرض

١ – اضطراب الأرض

بعد مشهد النفير المفزع الذي مرَت بنا صورة سابقاً تحدث في الكون عدة ظواهر تشترك كلها في إظهار جو رهيب مفزع يقف الناس أمام هوله. وفي كل تعبير نجد تصويراً انسانياً رائعاً وتجسيداً واضحاً للبيئة العربية.

أ – رجتها وزلزلتها

إن الظاهرة التي تعرض للأرض عُبّر عنها بعدة تعابير تشترك كلُّها في إيجاد صورة واحدة تتمثل فيها حالة الارض بعد النفير. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[١].

فالأرض بعد صيحة المنادي تتصدع وتتفظر كما يقول المفسرون[٢]. وفي سورة الواقعة نجد تصويراً لحال الأرض فيه حركة ملازمة للتشقق، والتصدع.

---

(١) سورة ق ٥٠: ٤١ – ٤٥.

(٢) مجاز القرآن ٢: ٢٤٧، جامع البيان ٢٦: ١٨٤، التبيان ٩: ٣٧٥، الكشاف ٣: ١٦٥.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ [1]. فرجة الأرض هنا معناه اضطرابها، وحركتها السريعة أثر صعقة النفير[2] .

والرُّج في اللغة (أصل يدل على الاضطراب ..... والرجُّ تحريك الشيء تقول رججت الحائط رجا، وارتج البحر)[3].

وقال ابن دريد (وسمعت رجة القوم، أي أصواتهم، وكذلك رجة الرعد أي صوته)[4].

فكأن القوم لا يسمع صوتهم إلاّ إذا اضطربوا، وارتجوا لأمر مفزع، وكذلك الرعد يسمع صوته حين تصطدم سحابتان بعضها ببعض، فكأن صوتها يأتي نتيجة الاضطراب والرجة.

وهناك دلالة حسية أخرى غير معنى الاضطراب، وهي تلك التي أشار إليها أبو عبيدة بقوله مفسراً رجّة الأرض: (اضطربت والسهم يرتج في الغرض) [5] . وقال

(١) سورة الواقعة ٥٦: ١-٥.
(٢) مجاز القرآن ٢: ٢٤٧، جامع البيان ٢٧: ١٦٧، التبيان ٩: ٤٨٨.
(٣) مقاييس اللغة ٢: ٣٨٤، وانظر أيضا المفردات: ١٨٦، أساس البلاغة: ٣٢٣، لسان العرب ٣: ١٠٦.
(٤) جمهرة اللغة ١: ٥١، وانظر شاهد الشعر في ديوان امرئ القيس: ٢١٦.
(٥) مجاز القرآن ٢: ٣٢٤٧.

الطبري: (إذا رجت الأرض رجا، يقول تعالى إذا زلزت الأرض، فحركت تحريكاً من قولهم السهم يرتج في الغرض بمعنى يهتز ويضطرب)[1].

وهذا التفسير ينقل إلى الذهن صورة الرمح حين يرتج ويضطرب. بالإضافة إلى دلالته على لصوق صورة الرمح في البيئة العربية المضطربة، حيث الغزوات المفاجئة والموت المحتم إذا اهتز الرمح، واضطرب في يد حامله. ولطالما ذكر الشعراء الرماح وآلات الحرب في أشعارهم، ووصفوها بدقة، لأنه ركن أساسي في حياتهم المضطربة[2].

ومع اقتران هذا التوجيه بصورة واضحة من البيئة العربية وهي اهتزاز الرماح، فإن هناك تصويراً أشمل لرجة الأرض المرعبة، وذلك أن ترج الأرض، فيضطرب على أثرها كل ما وجد عليها من بناء، وجبال، فتتداعى أركان الكون الواحد تلو الآخر وقد ذكره الطوسي إلى جانب اهتزازه الرمح بقوله: (وقيل ترتج الأرض بمعنى أنه ينهدم كل بناء على الأرض)[3]. قال الزمخشري: (رجت الارض، حركت تحريكاً شديداً حتى ينهدم كل شيء فوقها)[4].

فالأرض عند اضطرابها ترتجج رجاً شديداً مرعباً مثل ارتجاج الرمح عند اشتداد الحروب. وهذه دلالة جزئية، بينما ترسم رجّة الأرض بمعنى اضطرابها وزلزلتها الرعب الرهيب الشامل، وهي اللالة الانسانية المفهومة في رجّة الأرض وزلزلتها ونتيجة لهذه الإضطرابات السريعة يسود الاضطراب الكون كله، فينهدم كل ما عليها من بناء وجبال.

(١) جامع البيان ٢٧: ١٦٧، وانظر أيضاً التبيان ٩: ٤٨٨، الكشاف ٣: ١٩٩.

(٢) انظر في هذا الموضوع بحث وصف الرماح في البيئة الجاهلية في كتاب الوصف في شعر العراق: ٥٨.

(٣) التبيان ٩: ٤٨٨

(٤) الكشاف ٣: ١٩٣

والزلزلة تعبير آخر يصور الظاهرة التي تعرض للأرض، وقد فسرت بالاضطراب، والحركة الشديدة. قال ابن عباس (تزلزلت الأرض زلزلة واضطربت الأرض اضطرابا، فانكسر ما عليها من شجر والجبال والبنيان)[1]. ولعل أقرب المعاني الحسية التي وصلت إلينا لاستعمال الكلمة هي زلزلة الأرض بكونها احدى الظواهر الطبيعية التي تحدث في الأرض. قال ابن دريد: (الزلزلة الاضطراب. أخذ من زلزت الأرض زلزلاً)[2].

ومن هذا المعنى زلة القدم، وذلك أن يقال: (زَلَلْت يا فلانَ بالفتح، تزلُّ زليلاً، إذا زلَّ في طين)[3]. و(زحلوقة زُلّ أي زَلَق، قال الزاجر:

لمـــــن زحلوقـــــة زُلّ

بهـــا العينـــانُ تَنْهَـــلّ[4]

وهذا الاستعمال مرتبط بالاستعمال المادي، وهو الاضطراب، فكأن الأرض تضطرب تحت قدمي الرجل، فيقال عنه زلت قدمه[5].

لقد اقترنت الزلزلة بالاضطراب والحركة المفزعة في الذهن العربي لما تتركه من أخطار، وآثار جسيمة في أرواح الناس، وممتلكاتهم. وهذا الاقتران هو الذي جعلهم

---

(١) تنوير المقباس: ٣٩٤، جامع البيان ٣٠: ٣٦٥، وانظر أيضاً جمهرة اللغة١: ١٤٩، مقاييس اللغة ٣: ٤، لسان العرب ١٣: ٣٢٧.

(٢) جمهرة اللغة ١: ١٤٩، معجم مقاييس اللغة ٣: ٤.

(٣) لسان العرب ١٣: ٣٢٥

(٤) الصحاح ٥: ١٧١٧، وانظر أيضاً لسان العرب ٣ : ٣٢٥، والبيت غير منسوب.

(٥) أنظر في هذا ديوان الحطيئة: ٥٥، المفضليات ٩٥، ٢٣٩، شرح ديوان الحماسة ٢: ٨٩٧، ١: ٤٥٣.

يطلقون الكلمة على المصيبة والداهية(١). قالت الخنساء ترثي أخاها بأن الجبال الشوامخ رُجَّت لمصيبة فقده، وأن الأرض هي الأخرى اضطربت وزلزلت:

فــإن تــك مُـرَّةٌ أودَتْ بــه

فقــد كـان يكثـر تَقْتالَهـا

فَخَـرَّ الشـوامخُ مـن فقـدِهِ

وزُلزلـت الارضُ زِلزالهـا(٢)

ومن هنا يتضح معنى الزلزلة وما توحيه من الاضطراب، والحركة السريعة الشديدة وحين نفهم هذه المعاني نستطيع أن نتحسس اي معنى مفزع، وحركة مرعبة توحيها الآيات الكريمة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾(٣). فنجد فيها تصويراً حياً لحال الأرض بعد النفير بحيث ترج رجاً شديداً وتزلزل بما فيها من جبال وأناس، وتلفظ ما في جوفها من الدفائن وهي ترسم في الأذهان زلزلة الأرض، واضطرابها الشامل كما ترسم لنا ذلك

---

(١) جمهرة اللغة ١: ١٤٩، والصحاح ٥: ٧١٧، أساس البلاغة: ٤٠٥، لسان العرب ١٣: ٣٢٧، وبهذا المعنى فسر قوله تعالى (وزلزلوا زلالزلاً شديداً) سورة الأحزاب ١٣: ١١، إنظر مجاز القرآن ٢: ٢٣٤ تفسير التستري: ١٦، تفسير ابن حاتم الرازي: الورقة ٣ (ب) لسان العرب ١٣: ٣٢٧.

(٢) الكامل للمبرد ٣: ١٢١٦، والبيت الثاني غير موجود في شرح ديوان الخنساء: ٢١٨، وانظر أيضاً الأمالي: اليزيدي: ٣٢، وانظر أيضاً ديوان المزرد بن ضرار: ٣٥-

(٣) سورة الزلزلة ٩٩: ١ - ٤.

الاضطراب الذي يعترِي الإنسان، فيشعر كأن الأرض تهتز تحته، وتضطرب وهي زلزلة شاملة تعُم الأرض جميعاً، وتترك الدمار على الجبال، ودفائن الأرض وأمواتها.

ب - تكسر الجبال وتفتّها:

أما الجبال فإنها هي الأخرى يصيبها من الإضطراب ما يصيب الأرض من هول موقف القيامة ولتصوير حال الجبال، واضطرابها عدة تعابير قرآنية تجتمع كلها لإيجاد صورة واحدة لاضطراب الجبال يوم القيامة.

وفي كل تعبير منها نجد دلالة واضحة للبيئة العربية وأول هذه التعابير هو:

١ - سير الجبال وتشبيهها بالسراب:

إنّ تسيير الجبال من أول الصور التي تصور حال الجبال يوم القيامة: قال الله تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ (١).

وفي سورة النمل شُبّه سير الجبال بمرور السحاب: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾(٢). قال ابن عباس: (ساكنة مستقرة، وهي تمر مرّ السحاب في الهواء)(٣). وعند الطبري رواية أخرى عن ابن عباس أيضاً تعلل كون الجبال جامدة (لأنها تُجمعُ، ثم تُسَيَّر: فيحسب رائيها لكثرتها أنها واقفة، وهي تسير سيراً حثيثاً كما قال الجعدي:

---

(١) سورة الكهف ١٨: ٤٦.

(٢) سورة النمل ٢٦٧: ٨٨

(٣) تنوير المقباس: ٢٣٩، وانظر أيضاً جامع البيان ١٥، ٢٥٧، ٢١ الكشاف ٢، ٢٦١.

بـأرْعَنَ مثـلَ الطَـوْدِ تَحْسَـبُ أنهـم

وقـوفُ لحـاجٍ: والركـابُ تَهْمَلـجُ[1]

وأضاف الطوسي: (أي من أجل كثرتهم، والتفافهم تحسب أنهم وقوف، فكذلك الجبال)[2] متحركة خصوصاً إذا كان المؤء يتحرك مع حركتها: فيكون أسرع كراكب السفينة، فإنه يظن مع سائر الركاب أنهم ساكنون، وإن كان يتحركون اسرع حركة.

ومشهد سير الجبال شبه في سورة النبأ بالسراب، وسنجد ما لهذا التعبير، من دلالة على الهيئة العربية، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾[3].

قال الطبري مفسراً هذا التشبيه: ونسفت الجبال، فاجتثت من أصولها: فصيرت هباء منبثاً لعين الناظر كالسراب الذي يظن من يراه عن بعد ماء وهو في الحقيقة هباء)[4] وقد قال اللغويون عن السراب بأنه الذي تراه في نصف النهار كأنه ماء[5].

وتشبيه الجبال بالسّراب له دلالة جميلة على البيئة العربية: فطالما عانى العربي في صحرائه الواسعة من خداع السّراب حين يراه أمام ناظريه ويتصوره ماء، ولكنه في

---

(١) جامع البيان ٢٠، ٢١ ، والبيت في ديوان النابغة الجعدي ١٨٧ ، الأرعن يريد به الجيش العظيم شبهه بالجبل الضخم ذي الرعان وهي الفضول، وقيل الأرعن لكثرته، وتهملج تمشي الهملجة وهي السير الحسن في سرعة. والبيت شاهد أن الشيء الضخم تراه وهو يتحرك فتحسبه جامداً ساكناً مع أنه مسرع في سيره...... وذلك هو شأن الجبال يوم القيامة.

(٢) التبيان ٨: ١٢٤، وانظر أيضاً ٢: ٤٦٣.

(٣) سورة النبأ ٧٨: ١٨-٢٠ .

(٤) جامع البيان ٣٠: ٨، وكذا فسر قوله تعالى في سورة التكوير ٨١: ١، وانظر جامع البيان ٣٠/ ٦٥، الكاشف ٣/ ٣١٥.

(٥) الصحاح ١: ١٤٧، لسان العرب ١/ ٤٤٨.

حقيقته من خدع الصحراء ومن خيال العربي المتعطش إلى الماء. قال الأعشى في حديثه عن سد مأرب: وكيف أنه بتدميره أضاع المياه على بني حمير.

فطــــارَ القُيــــولُ وقيلاتُهــــا

بـــــيهماءَ فيهـــــا سرابٌ يَطِـــــمْ[1]

وذكر القاضي عبد الجبار بن أحمد[2] تعليلاً آخر لهذا التعبير: وهو قوله، (وقد قيل قيل أنها تبلغ في سرعة الحركة، ما لا يكاد يظن أنها يريد بذلك أن هؤلاء القيول قد أبدلوا بالماء الوفير الذي كان متوفراً قبل انفجار سد مأرب بالحرمان من الماء: والضلال في الصحراء الواسعة حين لا يجدون إلا السراب الخداع المؤلم. وقال لبيد مفتخراً بناقته التي تتحمل المسير في البيداء حيث يرتفع فيها السّراب، ويشتد الحر:

فبتلك إذ رقصَ اللَّوامعُ بالضحى

واجتاب أردية السرابِ أكامها[3]

(١) ديوان الأعشى: ٤٣.

(٢) هو عبد الجبار بن أحمد الهمداني، قاضٍ أصولي كان شيخ : المعتزلة في عصره ولقب بقاضي القضاة توفي سنة ٤١٥ هـ انظر تاريخ بغداد ١١: ١١٣ لسان الميزان ٣: ٣٨٦.

(٣) شرح ديوان لبيد: ٣١٢: ٣٠١ المفضليات: ١٧١.

قال آخر راسماً صورة قوم يخدعهم السراب فيسيرون على غير هدى بقوله:

ومَهْمــهٍ فيــه الـــسرابُ يســبحُ

يــدابُ فيــه القــوم حتــى يطلحــوا

ثــم يبيتــونَ كــأنْ لم يَبْرحــوا

كــأنما أمسَــوا بحيــث أصــبَحوا(١)

أنها صورة خالدة في الذهن العربي: صورة السراب الذي تتأمله العين فتخدع: وتتصوره ماء، ولكن سرعان ما تتبين خيبتها حين يجدُّ الإنسان في السير، فلا يجد غير الخيبة، والفشل، وبهذا استعير السراب لكل من يتأمل شيئاً لا وجود له. وقد ورد بهذا المعنى في القرآن الكريم في تشبيه أعمال الكافرين التي تذهب هباء يوم القيامة:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾(٢)

وهنا نستطيع أن نتصور حال الجبال يوم القيامة، ودلالة التعبير الدقيق على البيئة العربية إذ تُهشم الجبال، وتتكسر فتبدو كأنها سراب خادع كالذي يشهده العربي في صحرائه الواسعة. وبهذا تحمل الآية إلى جانب التصوير المادي لحال الجبال كل معاني الخيبة، وضياع الأمل يوم القيامة حين يواجه الكافر هذا الاضطراب المفزع، وهو صفر اليدين من الأعمال الحسنة.

(١) الصناعتين: ٢٨٤ والبيت غير منسوب.

(٢) سورة النور ٢٤: ٣٩.

٢- نسفها:

والتعبير الثاني الذي يصور تفتت الجبال، وانهدامها الهائل هو نسفها في قوله تعالى حين سأل المشركون الرسول ﷺ عن الجبال إذا قامت القيامة: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [١].

وقد فسر نسف الجبال هنا بمعنى قلعها، واجتثاثها. قال ابن عباس: (يقعلها ربي قلعاً (فيذرها) فيترك الأرض (قاعاً) مستوية (صَفْصَفا) أملس، لا نبات فيها (لا ترى فيها عوجاً) وادياً، ولا شقوقاً (ولا أمتا) ولا شيئاً شاخصاً في الأرض)[٢].

وأضاف الطبري إلى معنى القلع معنى التذرية والتفتت قال: (يذريها ربي تذرية) ويطيرها بقلعها، واستئصالها من اصولها: ودك بعضها على بعض وتصييره إياها هباء منبثا) [٣] وقد اعتمد في هذا التفسير على المعنى اللغوي المعروف وهو قولهم: (نسفت البناءَ نسفاً: قلعتُهُ) [٤]، و (المِنسفة آلة يقلع بها البناء) [٥].

وإذا تتبعنا الترتيب التاريخي للكلمة نجد أنَّ معنى الفعل معنى متطور عن معنى حسّي آخر، ذلك هو معنى نسف الريح التراب إذا كانت شديدة فتذروه في الجو (انتسفت الريح الشيء مثل التراب: والعصف، كأنها كشفته عن وجه الأرض. وسلبته)[٦].

(١) سورة طه ٢٠: ١٠٥-١٠٧.

(٢) تنوير المقباس: ١٩٨.

(٣) جامع البيان ١٦: ٢١١، وانظر ايضاً التبيان ١٠: ٢٢٥.

(٤) الصحاح ٤: ١٤٣١، وانظر أيضاً أساس البلاغة: ٩٥٣، لسان العرب ١١: ٢٤٢.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) مقاييس اللغة ٥: ٤١٩، وانظر ايضاً المخصص ٩: ٨٩ لسان العرب ١١/ ٢٤١.

وقد تكرر ذكر نسف الرياح الترب في أشعارهم، ومقدماتهم الطللية حين وصفوا ديار الحبيبة بعد أن هجرتها، وكيف لعبت بها الرياح ونسفت ترابها. قال النابغة:

أهاجكَ من سعداك مغنى المعاهدِ

بروضةِ نعمّي فذات الأساودِ

تعاورها الأرواحُ يَنْسِفْنَ تُربَها

وكلُّ ملثٍ ذي أهاضيبَ راعدِ[1]

ومن هذا المعنى الحسي استعار العرب معنى حسياً آخر يتكرر أيضاً في حياتهم اليومية حين تنسف الإبل التراب بقوائمها، فتذروه على جانبي مسيرها، فقيل: (ناقة نسوف إذا نسفت التراب بخفي يديها في سيرها)[2]. وهو معنى يظهر فيه معنى القلع المصحوب بتطاير وتذرية.

واحتاج العربي في بيئته إلى ما يذري به طعامه، وينسفه ليستخلص الجيد من الرديء، وهو الذي أطلق عليه النسافة[3]: ومنه المِنسف، وهو الغربال[4].

وحركة التراب تذروه الرياح واضحة كل الوضوح في كل المعاني الأخيرة حيث يتطاير التراب تحت قدمي الناقة بعد أن تقتلعه، وكذلك حين تقتلع النبات بمقدم فيها،

---

(١)ديوان النابغة الذبياني: ٤٢، وانظر ايضاً المنازل والديار: ٢٠٦.

(٢) أبو زيد عن لسان العرب الذبياني: ٤٢، وانظر ايضاً النوادر ١: ٤١٩، الصحاح ٤: ١٤٣٢، مقاييس اللغة ٥: ٤١٣، المخصص ٦: ١٧٢، ٧: ٩١ وانظر الشعر في شرح ديوان زهير: ١٩١، ديوان سحيم: ٤٨.

(٣) لسان العرب: (نسف).

(٤) الصحاح١: ١٤٣١، أساس البلاغة: ٩٥٣

وأخيراً في حركة المنسف الذي تنسف فيه الحبوب، فيظهر النسف، وحركة تطايره في تطاير الحبوب، واستخلاص الجيد من الرديء منها. ويتبين لنا فيها أن الاستعمال المادي الأول ما زال محافظاً على معناه في كل معاني الكلمة، وبقيت صورته الأولى هي الصورة الغالبة على الذهن العربي حيث تقتلع الريح التراب، وتنسفه في الجو وتذروه فقوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾[1] نجد فيه صدى البيئة العربية التي طالما اجتاحها الرياح القوية، فانتسفت الرمال من الصحراء الواسعة وقد رد في القرآن الكريم تصوير رائع لهذا المشهد، حيث شبهت به أعمال الكافرين التي تذهب هباء ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾[2].

٣- بسها:

قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾[3].

فبسُّ الجبال – وهو تفتتها –[4] استعمل مجازاً. وهذا المجاز ينقل إلى الخيال صورتين من صور البيئةالعربية:

(١) سورة طه ٢٠: ١٠٥-١٠٧.

(٢) سورة ابراهيم ١٤: ١٨.

(٣) سورة الواقعة ٥٦: ١-٥.

(٤) اللغات في القرآن: ٤٨.

الأولى إنّ تفتت الجبال حتى تكون كالعجين، والسويق قال ابن السكيت، (بَسَستُ السويقَ، والدقيقَ أبسُّه بَسّا: إذا بللته بشيء من الماء، وهو أشَّد من اللتِّ)[١] والبسيسةُ هي (التي تُلَتُّ بسمنٍ أو زيت ولا تُبَلُ)[٢].

ومن هذا المعنى الحسي فهم بعضهم الآية الكريمة السابقة فقال أبو عبيدة مفسراً بس الجبال: (مجازُها كمجازِ السويق المبسوس أي المبلول والعجين. قال لص من غطفان وأراد أن يخبز، فخاف أن يعجل الدقيق، فأكله عجيناً وقال:

لا تخبزا خبزاً و بُسّاً بَسّا[٣]

وصورة بس السويق التي ينقلها أبو عبيدة تفسر لنا الآية الكريمة، وتصور حال الجبال يوم القيامة، وكيف أنها إذا زلزلت الأرض واضطربت يصيبها الاضطراب، فتتفتت وتحطم، حتى تكون كالعجين المبسوس الذي طالما استعمله العرب في حياتهم ومعيشتهم، فعرفوا مدى ما يصوره تعبير البسّ للجبال من الدقة في التحطيم. والتحول إلى فتيت ناعم.

أما الصورة الثانية للبسّ فإنها مستمدة أيضاً من البيئة العربية:وهي صورة سوق الإبل: وتسييرها. قال الزجاج شارحاً الآية: (يجوز أن يكون معنى بست: سيقت وأنشد:

وانبس حبات الكثيب الأهيلِ[٤]

(١) عن لسان العرب.

(٢) الصحاح ٢: ٩٠٥، لسان العرب ٧: ٣٢٤، ٣٢٥.

(٣) مجاز القرآن ٢: ٢٤٧ وانظر أيضاً جامع البيان ٢٧: ١٦٧ التبيان ٩: ٤٨٨ الكشاف ٣: ١٩٣، والبيت مذكور مع أبيات في الحيوان ٤: ٤٩، جمهرة اللغة ١: ٣٠، الصحاح ٢: ٩٠٥، وروي في المخصص عن صاحب العين (ونُسَا نَسّا) ٧: ١٠٤.

(٤) عن التبيان ٩: ٤٨٨، وانظر الزجر في الحيوان ٤: ٢٥٦.

وقال الزمخشري مضيفاً إلى التفسير الأول قوله: (من بس الغنم إذا ساقها كقوله (وسيرت الجبال) [1]. فهذا التفسير يعطينا صورة للتعبير الذي استعملت فيه الكلمة للدلالة على السوق قيل (البسُّ: السوق اللين وقد بَسَتُ الابل أبسُّها بالضم بَسّا) [2].

قال ابو زبيد [3] واصفاً الراعي بالمبسّ:

فلحـــا اللهُ طالـــبَ الصــلحِ منـــا

مـــا أطـــاف المُـــبِسَ بالـــدهماء [4]

وقال عبدة بن الطبيب [5] يصف فرسه، وكيف أنه يستجيب له إذا أبسّه وساقه بين الخيل:

إذا أبـــسَّ بـــه في الألـــفِ بَـــرَّزَهُ

عـــوج مركبـــة فيهـــا براطيـــلُ [6]

---

(١) الكشاف ٣: ١٩٣.

(٢) جمهرة اللغة ١: ٣٠، الصحاح ٢: ٩٠٦، اساس البلاغة: ٤٦، المخصص ٨: ٩ وانظر ايضاً ديوان النابغة الجعدي: ٣، ديوان الشماخ: ٣٣.

(٣) هو المنذر بن حرملة من بني حية وقيل حرملة بن المنذر بن معد يكرب، وكان نصرانياً وعلى دينه مات: وهو ممن أدرك الجاهلية. ذكره السجستاني في المعمرين: توفي نحو ٦٢ هـ: انظر المعمرون: ١٠٨ الأغاني ١١: ٢٣.

(٤) جمهرة اللغة ١: ٣٠، ديوان الحماسة: ٣٥.

(٥) هو عبدة بن الطبيب شاعر مخضرم أدرك الاسلام فأسلم: شهد مع المثنى بن حارثة قتال هرمز سنة ١٣ هـ وكان مع الذين حاربوا الفرس بالمدائن توفي نحو سنة ٢٥هـ. انظر الاغاني ١٨: ١٦٣ تاريخ الامم والملوك ٤: ٤٣، ٢١٥.

(٦) المفضليات: ١٤٣

وسواء كان بسُّ الإبل سوقها باللين، أو سوقها زجراً، يدل المعنى على دفع واستجابة لهذا الدفع إلا أن دلالتها على القوة والزجر ترسم في الذهن ايحاء الهول والفزع المقترن بكل مظهر من مظاهر النفير وما يتبع ذلك من قوة في اضطراب السموات والأرض، وهذا المعنى ينسجم مع السياق العام الذي مرت بنا صوره في تعبير الزجرة: وما فيها من دلالة السوق والزجر.

وهناك استعمال آخر للبس، وهو أن تبس الإبل، والغنم، وتهدأ بصوت خاص حتى تدر لبنها يقال: (ابْسَسْتَ بالمعزِ إذا أشليّتها إلى الماء)[1] و(ابسَّ بالإبل عند الحلب اذا دعا الفصيل إلى أمه، وأبسَّ بأمه له[2]). ومن هنا قيل في الناقة التي لا تدر إلاّ عند الرفق بها والإبساس لها: بأنها تبس[3]، وأنشد الأزهري[4] قول الراعي واصفاً حال الناقة يعاملها صاحبها تارة بالإبساس، وأخرى بالنقر:

لعاشرةٍ وهو قد خافها

فظلَّ يُبَسْبِسُ أو يَنْقُرُ[5]

وقال آخر يصف ناقته إذا جالت، واضطربت: وكيف يُهدئها بالبسّ:

---

(١) الصحاح ٢: ٩٠٦

(٢) لسان العرب ٧: ٣٢٥

(٣) الصحاح ٢: ٩٠٥

(٤) هو محمد بن أحمد بن الأزهر: ابو منصور ولد سنة ٢٨٢ هـ اخذ عن الربيع بن سليمان، ونفطويه، وابن السراج، وأدرك ابن دريد ولم يرو عنه، صنف كتاباً مشهوراً في اللغة وهو ((تهذيب اللغة)) توفي سنة ٣٧٠ هـ انظر نزهة الالباء: ٢٢١-٢٢٢ بغية الوعاة: ٨.

(٥) لسان العرب ٧: ٣٢٥.

عَـــنسٌ أذا جالـــتْ بـــه أبسّـــا

وبَلَغـــتْ منـــه التراقـــي نفســـا[1]

فمعنى البسُّ هنا واضح، وهو دعوة الغنم، أو الإبل نحو الماء، أو عند الحلب ويلاحظ في هذه الدعوة أنها تترك الحيوان ليناً سلس القياد، يستجيب لدعوة الراعي. وفي كلا المعنيين نجد استجابة وطاعة، فالإبل إذا سقيت، وزجرت استجابت للسوق وسلمت لراعيها، فسارت أمامه طائعة، وكذلك الإبل، والغنم إذا بست نحو الماء، أو للحلب، استجابت الى صوت راعيها، فدرّت حليبها، أو سارت معه نحو الماء. وفي هذا المعنى نجد روعة التصوير القرآني لحال الجبال؛ لأن الإضطراب الذي يسود السموات والأرض، يصيب الجبال، فتزلزل، وتكون ارتجافها إطاعة لأمر الله سبحانه وتعالى حين يأمر بقيام الساعة.

وفي معنى البسّ صورة واضحة للبيئة العربية التي اعتادها العربي ورأى فيها بسَّ الحيوان، ودعوته، وترتسم في الذهن صورة ما يتخيل في بسّ الجبال، واستجابتها لدعوة الله عزَّ وجلّ، فيزداد إيحاء الآية الكريمة وترتسم في الذهن سرعة الأحداث، والاضطرابات يوم القيامة، لأن الطواعية والاستجابة السريعة لإرادة الله سبحانه وتعالى تنتج منها سرعة مذهلة في الاضطراب الكوني.

وفي سورة الحاقة تعبير آخر يصور حال الجبال: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾[2].

(١) ديوان الحطيئة: ٢٨٦، والشطر الأول في شرح ديوان زهير ٣٥٥ وهو غير منسوب إلى قائله.

(٢) سورة الحاقة ٦٩: ١٣-١٦

في هذه الآيات الكريمة نجد تصويراً جامعاً لاضطراب الأرض وتفتت الجبال معاً يتجسد في تبعير الدك بما يحمله من معاني القوة والرعب، ما تعجز عنه صفحات، فالدك في اللغة يحمل معنى الهدم الذي يصاحبه دق، وتفتت[1].

٤-تشبيهها بالعهن:

إن انهدام الجبال، وتفتتها بسبب تناثر أجزائهاوتطايرها تبعاً للانكسارات السريعة التي تصيب الجبال. هذا التناثر صُوّر في القرآن الكريم بصورة مادية طالما لصقت في ذهن العربي لطول ما اعتادها، وشاهدها في بيئته، وذلك تشبيهها بالصوف قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾[3].

---

(١) الصحاح ٤: ١٥٨٣، مقاييس اللغة ٢: ٢٥٨، أساس البلاغة ٧٨: وقدا اعتبر الاب ماراغناطيوس الدك كلمة سريانية قال: دَكدكَ دقَّ مراراً: صيَّر شيئاً تراباً ورمياً، تدكدكتْ الجبال، تهدمت. أنظر الألفاظ السريانية مجلة المجمع العلمي العربي دمشق م ٢٣ ج" ٤٩٧.

(٢) سورة المعارج ٧٠: ٨-٩

(٣) سورة القارعة ١٠١: ١-٥.

وقد فسر المفسرون العهن بالصوف[1]. وكذا ورد المعنى في كتب اللغة[2]. وهذا التشبيه له دلالته على البيئة العربية؛ لأن الصوف من منتجات حيوانها الذي هو عماد حياتها، وقد تكرر ذكر الصوف أو آلات غزله في الشعر الجاهلي،[3] ثم إننا نجد للصوف لمحات في إحدى صور البيئة العربية التي اعتادها العربي، وهي تلك التي نجدها في وصف الأطلال وما تبقى فيها من الدمن، والآثار، ومن بينها الصوف المتناثر قال زهير بن أبي سلمى:

كــأنّ فتــاتَ العِهْــنِ في كــل منــزلٍ

نــزلنَ بــه حَــبُّ الفنــا لمْ يُحَطَّــمِ[4]

قال ثعلب شارحاً البيت بأنه " شبه ما تفتت من العهن الذي علق بالهوادج إذا نزلن بمنزل بحب الفنا "[5]. وقول ثعلب هذا يعطينا توضيحاً آخر لأهمية الصوف في الحياة العربية، ولصوقه في الذهن العربي واستعمالهم الصوف لتزيين الهوادج، وهي الصورة التي طالما ذكرها الشعراء في أشعارهم، وشبهوها – باختلاف ألوان الصوف – بالبسر الأحمر والأصفر مع خضرة النخل[6].

٥- سرعة انهيارها:

---

(١) تنوير المقباس: ٣٦٧، غريب القرآن: ١٧٧، جامع البيان ٢٩: ٧٣ . الكشاف ٣: ٢٦٨، وفي قراءة ابن مسعود كالصوف المنفوش بدل كالعهن، وقد علق ابن قتيبة على هذه القراءة بأنها "مما يغير صورتها في الكتاب، ولا يغير معناها" انظر تأويل مشكل القرآن: ٢٨-٢٩.

(٢) العين: ٤٣، الصحاح ٦: ٢١٦٩ مقاييس اللغة ٤ : ١٧٧ المسلسل: ١٨١ المحكم ١: ٦٦ لسان العرب ١٧: ١٧٠.

(٣) ديوان امرئ القيس: ٢٥ ، أمثال العرب " ١٧

(٤) شرح ديوان زهير: ١٣

(٥) نفسه: ١٣

(٦) أنظر ديوان إمرئ القيس: ٤٣، ٥٧، ١١٥

أما سرعة انهيار الجبال فقد صورت بتعبير الكثيب المتداعي المنهال في قوله تعالى: ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾[1].

قال ابن عباس مفسراً الآية الكريمة (تراباً مهيلاً: وهو الشيء الذي إذا رفعت أسفله سقطَ عليكَ أعلاه مثل الرمل)[2].

وقال الطبري: (يقول: وكانت الجبال رملاً سائلاً متناثراً: والمهيل مفعول من قول القائل: هلت الرملَ فأنا أهيله، وذلك إذا حُرِكَ أسفله، وانهالَ أعلاه)[3] .

والكثيب عبارة عن قطعة تنقاد محدودبة كما يقول الأصمعي [4]، فإذا تحرك من إحدى جوانبه انهال بسرعة. ومن هذه الصورة الحية المجسدة في الذهن العربي جاء التصوير الرائع لحال الجبال في اضطرابها وسرعة انهيارها، وهو تصوير يستطيع العربي أن يتمثله أمام ناظريه؛ نظراً لتكرر صورة الكثبان في الجزيرة العربية، وما يطرأ عليها من صور انهيار رملها؛ وتساقطها. وقد لصقت صورة الكثيب في أذهانهم، فراحوا يكررونها في تشبيهاتهم وتعابيرهم[5].

(١) سورة المزمل ٧٣: ١١-١٤
(٢) تنوير المقباس: ٣٧١، وانظر أيضاً غريب الحديث ١: ٢٥٢
(٣) جامع البيان ٢٣: ١٣٦.
(٤) لسان العرب: هيل
(٥) المفضليات: ٥٩٢، الطرائف الأدبية: ٣٣٧

هذه التعابير تشترك كلها في رسم صورة الجبال حين تضطرب وتنهار فتتناثر أجزاؤها وتتلاشى عظمتها، وتصبح هباء منثوراً، وحالها في هذا حال الأرض بصورة عامة حين تزلزل وتضطرب بعد صعقة النفير.

ومن التعابير التي مرت بنا مجتمعة تتشكل نا صورة رهيبة لاضطراب الأرض، وما عليها يوم القيامة. اضافة إلى دلالة كل تعبير على مظهر من مظاهر البيئة العربية كما مرَ بنا.

٢- اضطراب السماوات:

أ- تحولها إلى سائل:

ويشمل الاضطراب السماء أيضاً، فيصيبها ما يصيب الأرض من اختلال التوازن، وانهيار النظام الكوني فإذا بها تنشق، وتتحول إلى سائل عُبِّر عنه بالوردة، وشبهت حالها بالدّهان قال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾[١]

لقد ذهب المفسرون في تفسير الآية الكريمة إلى توجيهين:

الأول هو أنها تكون ملوّنة كألوان الدّهن، أو الورد. وهذا التفسير لا يحدد لونها، وهو تعميم للألوان المختلفة. قال ابن عباس (فصارت ملونة كالدّهان، كألوان الدّهن، ويقال: وردة كألوان الورد)[٢]

---

(١) سورة الرحمن ٥٥: ٣٧، هناك تفصيلات كثيرة ودقيقة درسناها في كتابنا الذي صدر حديثاً عام ٢٠١٠ (جمالية التشكيل اللوني في القرآن الكريم) يمكن مراجعته للمزيد من التحليلات.

(٢) تنوير المقباس: ٣٣٧

وقال أبو عبيدة: (فكانت وردة كالدّهان في لونها: جمع دهن، تمور كالدهان صافية وردة لونها كلون الورد، وهو الجُلّ)[1].

أما التوجيه الثاني: فهو أن السماء يكون لونها يوم القيامة الحمرة مع السواد، وقد ذكره ابن عباس أيضاً حين قال: (ويقال كالأديم المغربي أي حمرة مع سواد)[2]. وقال الراغب: (وقيل في صفة السماء إذا احمرت احمراراً كالورد إمارة للقيامة. قال (فكانت وردة كالدهان)[3].

ويبدو أن الذين فهموا الآية الكريمة على أن السماء تكون ملونة كألوان الورد، لم يذهبوا بكلمة الورد إلاّ إلى الورود الحقيقية التي تكون بطبيعتها متعددة الألوان، والأشكال. ومن الناحية الثانية فإن السماء شبهت في الآية الكريمة بالدّهان، والدّهان أيضاً لا يحدد لونه.

أما الذين قالوا بأن لون السماء يكون أحمر يوم القيامة، فانهم ذهبوا إلى لون معروف؛ ولكثرة هذا اللون في الورود اقترنت كلمة الورد به، ثم أطلق الورد بصورة عامة على اللون الأحمر، فأطلق على الحيوانات التي على هذه الصفة في اللون، واقترن أكثر ما اقترن، بالخيل. قال الأصمعي معدداً ألوان الخيل: الوردة: فرس وَردٌ، ووردة وخيل وراد)[4].

---

(١) مجاز القرآن ٢: ٢٤٥، وانظر أيضاً الصناعتين: ٢٤١ التبيان ٩: ٤٧٦، المخصص ٦: ١٥١.

(٢) تنوير المقباس: ٣٣٧، وانظر أيضاً أدب الكاتب: ١٤٣.

(٣) المفردات: ٥٤١، وانظر أيضاً الخيل: ١٠٦، ديوان الشماخ: ٣٠.

(٤) عن المخصص ٦: ١٥٠، وانظر أيضاً الخيل: ١٠٦، ديوان الشماخ: ٣٠.

ومن هنا نقل لنا توجيه آخر اقترن أول ما اقترن بالخيل الوارد التي تغنّى الشعراء بذكرها، وتمتع بالنظر اليها الفرسان، هذا التوجيه هو الذي نقله الفارسي فيما روى[1] عن أبي عبيدة: (أما قوله – فإذا انشقت السماءُ فكانتْ وردة كالدهان – فقيل إنّه أراد – والله أعلم – فرساً وردة وتكون في الربيع إلى الصفرة، فإذا اشتد البرد كانت وردة حمراء، فإذا كانت بعد ذلك، كانت وردة إلى الغبرة، فشبه تلون الوردة من الخيل، وشبه الوردة في اختلاف ألوانها بالدهن، واختلاف ألوانه)[2]، ويبدو أن أبا عبيدة لم يقصد أن السماء تكون كالفرس، لأن مثل هذا التفسير لم يذكره في مجازه، كما لم يذهب إليه أحد غيره، وإنما أراد به أن السماء تكون متعددة الألوان يوم القيامة كتغير لون الفرس الورد. وهو بهذا يعطينا تعليلاً لتسمية هذا الضرب من الخيل، ذلك لأنها تتلون باختلاف فصول السنة فتضرب ألوانها إلى الصفرة في الربيع، والى الحمرة في البرد ثم إلى الغبرة بعد ذلك.

وبهذا نستطيع أن نجمع بين هذا التوجيه، والتوجيه الأول الذي حدد فيه لون السماء بالحمرة، وتشبيهها بالورد، وفي كلا التوجيهين نجد صدى البيئة العربية واضحاً في الصور التي تثيرها الآيات الكريمة. فكون السماء متعددة الألوان يوم القيامة يرسم في الذهن صورة الورود المنتشرة في الصحراء العربية حيث تفترش الأرض أيام الربيع بشتى الصور والألوان الزاهية، وهي التي شبه بها لون السماء، ولكن مثل هذا التفسير

---

(١) هو أبو علي الحسن بين أحمد بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي النحوي، من أكابر أئمة النحويين أخذ عن أبي بكر بن السراج، وأبي اسحاق الزجاج، فضله بعضهم على المبرد توفي سنة ٣٧٧ هـ أنظر نزهة الألباء: ٢١٧

(٢) لسان العرب: (ورد)

- وإن امدنا بوجه الشبه وهو تعدد الألوان – لا ينسجم مع السياق الذي وردت فيه الآية الكريمة: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[1] . كما أن هذا التفسير لا ينسجم مع الآيات الأخرى التي ورد فيها ذكر السماء، ووصف حالها يوم القيامة؛ لأن ما توحيه الورود بل الزرع بصورة عامة، إنما هو إيحاء الفرحة والنشوة[2]. وهو إيحاء بعيد كل البعد عن الموقف الرهيب يوم القيامة، ذلك الموقف الذي تضطرب فيه السماوات والأرض، فتتساقط أرجاؤها ويتبدل حالها.

أما التوجيه الثاني، فإنه ينسجم تماماً مع السياق العام للايات الكريمة فالسماء تكون كلون الأديم الأحمر أو الفرس الورد، ونجد فيه وجه الشبه وهو تعدد الألوان وتلونها، نظراً لانكفاء السماء واضطرابها. وبهذا التوجيه نبعد عن الذهن صورة الورود الممتعة التي لا تنسجم مع سياق الهول والفزع الأكبر يوم القيامة.

وتحول السماء إلى سائل متلون شبه في تعبير آخر بالمُهْل قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ ﴾[3]. وقد فسر المُهْل بتفسيري الأول ما ذكره إبن عباس وهو قوله: (كالمُهل: كدري

(١) سورة الرحمن ٥٥: ٣٧-٤٣.
(٢) أنظر الفصل السادس (الثواب الجنة) ١- وصف طبيعتها.
(٣) سورة المعارج ٧٠: ٦-١٠.

الزيت)[1] أما التفسير الثاني فهو الفضة المذابة أو المعادن المذابة بصورة عامة. وقد ذكره ابن عباس أيضاً إلى جانب التفسير الأول قال: (ويقال كالفضة المذابة)[2].

أما أبو عبيدة فقد ذهب إلى أن كل معدن إذا أذيب أطلق عليه المهل. قال مفسراً قوله تعالى: (يغاثوا بماء كالمهل...)[3] قال: (كل شيء أذبته من نحاس أو رصاص، ونحو ذلك فهو مُهْل)[4]ومثل هذا الاضطراب في تفسير المهل نجده في أقوال اللغويين فهو دردي الزيت تارة[5] والنحاس الذائب تارة أخرى[6]، وهو الصديد عند آخرين[7].

ويبدو أن مرد هذا الاضطراب يرجع إلى التعميم الذي أطلق فيه اللفظ في البداية اذ هو – كما يبدو – أطلق على كل فلز ذائب كما ذهب أبو عبيدة من قبل. وقد سئل ابن مسعود عن قوله تعالى: ﴿ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾[8] عن المهل (فدعا بفضة

---

(١) تنوير المقباس: ٣٦٧، وانظر أيضاً جامع البيان ٢٩: ٧٣، التبيان ١٠: ١١٦، الكشاف ٣" ٢٦٧، ودردي الزيت وغيره ما يبقى في أسفله، الصحاح ١: ٤٦٧.

(٢) تنوير المقباس: ٣٦٧، وانظر أيضاً الكشاف ٣: ٢٦٨، نقلاً عن ابن مسعود.

(٣) سورة الكهف ١٨: ٢٩.

(٤) مجاز القرآن ١: ٤٠٠.

(٥) هو قول أبي عمرو بن العلا، كما في الصحاح ٦: ١٨٢٢، لسان العرب ١٤: ١٥٥ ونقل مثل هذا عن أبي زيد في المخصص ٥: ٩٠، وانظر أيضاً مقاييس اللغة ٥: ٢٨٢.

(٦) الصحاح ٦: ١٨٢٢، مقاييس اللغة ٥: ٢٨٢، لسان العرب ١٤: ١٥٦.

(٧) جمهرة اللغة ٣: ١٧٥، الصحاح ٦: ٧٢٢، أساس البلاغة: ٩٢٢، لسان العرب ١٤: ١٥٥.

(٨) سورة الكهف ١٨: ٢٩.

فأذابها فجعلت تميع، وتلَّون، فقال: هذا من أشبه ما أنتم ترون)[1]، وقال ابن دريد: (المهل ما ذاب من صفر أو حديد)[2].

أما اطلاق لفظ المُهْل على الزيت، أو على الدهان، فبسبب مشابهة الزيوت والدّهون للمعادن المذابة بكونها سوائل أولاً ، وأنها متنوعة الألوان بتنوع الأشكال ثانياً. ومن هنا فلا تضاد في معاني المهل ، لأنه متأتٍ من تعميم اللفظ، ثم إطلاقه على أجزاء متعددة.

أما ملامح البيئة العربية فنجدها واضحة في تشبيه حال السماء بالمهل؛ لأن الزيوت، والدهان بنوعيها النباتية أو المستخلصة من المعادن المذابة مما اعتاده العربي في بيئته واحتاج اليها في شؤون حياته البسيطة، فكثيراً ما يطلى البعير بالمُهْل، فترتسم صورة المُهْل المذاب في الذهن العربي سواء في كونه مذاباً أو للونه الخاص. وذكر أن الإبل تطلى بنوع من القطران في الشتاء مما يدل على معرفتهم المُهْل، واعتيادهم عليه باعتباره مادة مهمة، يحتاجون إليها كل شتاء لإبلهم – أعز حيوانهم – روى ابن منظور: (المهل والمهلة ضرب من القطران ما هيٌّ رقيق يشبه الزيت، وهو يضرب إلى الصفرة من مهاوته وهو دسم تدهن به الإبل في الشتاء)[3].

ومن الطبيعي أن يكون المهل الذي عرفه العربي، واستعمله في طلي إبله متعدد الضروب، والألوان. ومن هنا جاء اختلافهم في تفسير المهل لأنه أطلق في البداية على أنواع من السوائل المذابة.

---

(١) انظر لسان العرب ١٤: ١٥٦.
(٢) جمهرة اللغة ٣/ ١٧٥، لسان العرب ١٤/ ١٥٦.
(٣) لسان العرب ١٤/ ١٥٦.

ومن هنا نجد أن قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾[1]. يعطينا الايحاءات والصور نفسها التي أوحتها من قبل الآية التي ورد فيها ذكر (وردة) والتي شُبِّهَ فيها سيلان السماء بالدهان. قال الأزهري معقباً على تفسير المهل: (ومثله قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾[2]، قال أبو اسحاق كالدهان: أي تتلون كما تتلون الدهان المختلفة)[3].

أما قتادة، فقد فسر تحول السماء إلى مهل بتحولها إلى لون الحمرة[4]. وقد اعتمد في هذا التفسير أيضاً قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾. وفي كل هذه التفاسير التي مرّ ذكرها وجدنا صورة البيئة العربية واضحة الملامح، تتداعى في الذهن عند قراءة الآيات الكريمة، فتجسد هول القيامة ومشاهد الاضطراب المفزع.

ب- دورانها

قال سبحانه وتعالى واصفاً اضطراب السماء يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[5] فعبر عن اضطراب السماء بتعبير المور. وقد فسره بعضهم بالدوران قال ابن عباس: (تدور السماء موراً بأهلها دوراناً كدوران الرحى وتموج الخلائق بعضها في بعض من الهول)[6].

---

(١) سورة المعارج ٧٠: ٦-١٠.

(٢) سورة الرحمن ٥٥: ٣٧.

(٣) لسان العرب ١٤: ١٥٦.

(٤) جامع البيان ٢٩: ٧٣.

(٥) سورة الطور ٥٢: ٩-١١.

(٦) تنوير المقباس: ٣٢٩.

وقال أيضاً في مور السماء بأنه شقها وانفطارها[1].

وقال بعضهم معنى مور السماء انكفاؤها. قال أبو عبيدة: (يومَ تمور السماءُ مَوراً) أي تكفأ قال الأعشى:

كـأن مشـيتها مـن بيـت جارتهـا ... مـورُ السـحابةِ لا ريـثٌ ولا عجـلٌ[2]

وفي معاني الكملة اللغوية ما يجمع بين التفسيرين السابقين، ذلك لأن الريح إذا كانت قوية، فإنها تسفي التراب فيقال مارت[3] والموار الغبار[4] وهي صورة اعتادها العربي في بيئته الصحراوية الرملية. وقد تكررت بصورة خاصة في شعر شعرائهم حين ذكروا ديار الحبيبة، ووصفوها بعد أن هجرت، وتركت خواء تسفيها الرياح، وتمور عليها رمال الصحراء، فمن ذلك قول الحطيئة:

لمـن الـديارُ كـأنهنَّ سـطور ... بلـوى زَرود سـفى عليهـا المُـورُ[5]

وقال زهير بن أبي سلمى واصفاً الديار المهجورة:

لَعِـبَ الريـاحُ بهـا وغيرَّهـا ... بعـدي سـوافي المُـورِ والقَطْـرِ[6]

---

(١) الغات في القرآن: ٤٧.

(٢) مجاز القرآن ٢: ٢٣١، ورواه الجوهري عن أبي عبيدة والأخفش. أنظر الصحاح ٢: ٨٢٠، ورواية ديوان الأعشي: (مرَّ السحابة): ٥٠، ومن رواية أبي عبيدة والأخفش.

(٣) جمهرة اللغة ٢: ٤١٧، وانظر أيضاً شرح ديوان كعب بن زهير: ٢٥٣.

(٤) الصحاح ٢: ٨٢٠، مقاييس اللغة ٥: ٢٨٥.

(٥) ديوان الحطيئة: ٣٧٦.

(٦) شرح ديوان زهير ٨٦، وانظر أيضاً شرح ديوان كعب بن زهير ٢٥٣.

أما الناقة المَوّارة فهي السريعة[1]. وهو استعمال مادي أيضاً وله علاقته الوثيقة بالاستعمال السابق، لأن الناقة اذا أسرعت تركت التراب يمور على جانبي طريقها وتدفعه بيدها في سيرها السريع قال طرفة:

صهابية العثنون موجدة القرى ... بعيدة وخد الرجل موارة اليد[2]

(١) الصحاح ٢/ ٨٢٠، مقاييس اللغة ٥/ ٢٨٥، المخصص ٧/ ١٢٩.

(٢) أنظر قول ثعلب في شرح ديوان زهير: ٧٨، وانظر أيضاً شرح ديوان الحماسة ٤: ١٦٣٧.

ومن هنا نفهم قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾[1] أي تدور دوراناً سريعاً. وفي حركة دوران أي جسم تقلب أعاليه على أسافله فالتراب حين تسفيه الرياح، ويمور موراً سريعاً ينقلب، والناقة الموارة تقلب التراب على جانبي طريقها، وتجعل يدور بسرعة سيرها ومن هنا يتضح لنا سبب تفسيرهم مور السماء بانكفائها، ودروانها.

وهناك استعمال آخر لتعبير المور، وهو قولهم مار الدم على وجه الأرض أي سال، وانصب[2]، وقد وردت في الشعر الجاهلي أيضاً في وصفهم للحروب، وذكرهم لها نستطيع أن نقرن هذا المعنى بمور التراب، ذلك بأن سيلان الدماء على الأرض فيه اضطراب، ودوران وحركة وهي صورة كثيراً ما تتكرر في بيئة العرب الحربية حيث الغارات والحروب الدامية التي تترك الدماء بين عشية وضحاها تمور على الأرض، وتسيل. ومن الناحية الأخرى فإن هذا المعنى يعيننا على تصور اضطراب السماء ودورانها يوم القيامة، وذلك أن حركتهم تشبه حركة التراب السريعة حين تسفيه الرياح وتمور جوانبها كما يمور الدم على الأرض.

ويبدو أن هذه الصورة كانت أقرب إلى ذهن الزمخشري حين فسر الآية الكريمة فقال: (تمور السماء: تضطرب وتجيء وتذهب، وقيل المور تحرك في تموج)[3].

---

(١) سورة الطور ٥٢/ ٩

(٢) انظر قول ثعلب في شرح ديوان زهير: ٧٨، وانظر شرح ديوان الحماسة ٤/ ١٦٣٧. .

(٣) الكشاف ٣/ ١٧٢.

جـ - تشققها وانفطارها:

من الطبيعي أن دوران السماء وانكفاءها الذي صورته الآيات السابقة لا يترك السماء الا منهارة الجوانب، متصدعة الأرجاء. وقد صور هذا التصدع بتعبير آخر هو قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾[1].

وقال تعالى أيضاً: ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ۝١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾[2]. فقد فسر الانفطار بالانشقاق[3]. وهو معنى تؤكده آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾[4]. وقد وردت كلمة الانفطار في مواضع أخرى من القرآن الكريم في غير هذا المعنى كقوله تعالى﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[5].

وقد فسر الإنفطار في الآية السابقة بالخلق والإبداع[6]. ومن ظاهر اللفظ تبدو العلاقة بين الاستعمالين بعيدة، ولكن معرفة التطور التاريخي للكلمة يدلنا على أنهما

---

(١) سورة الانفطار ٨٢: ١-٥.

(٢) سورة المزمل ٧٣: ١٧-١٨.

(٣) تنوير المقباس: ٣٧٢، مجاز القرآن، ٢: ٢٧٤، جامع البيان ٣٠: ٨٥، درة التنزيل: ٣٨٨، التبيان: ١٠: ٢٩٠، الكشاف ٣: ٢٨٣، ٣١٩، وقد وردت بالمعنى نفسه في غير مواضع القيامة وذلك في سورة مريم ١٩: ٩٠، الشعراء ٤٢: ٥، الملك ٦٧: ٣.

(٤) سورة الحاقة ٦٩: ١٦.

(٥) سورة الأنعام ٦: ٧٩، وانظر أيضاً المعجم المفهرس: ٥٢٣.

(٦) تنوير المقباس: ٩٠، مجاز القرآن ١: ١٨٧، ٣٨٢، المفردات ٢٣٩ – الكشاف ١: ٤٧٩.

يرجعان الى أصل واحد، ومعرفة هذا الأصل يعكس لنا صورة من البيئة العربية وأثرها في ابتداع الألفاظ وتطورها.

فمن المعاني الحسية التي استعملت فيها الكلمة هو قولهم تفطر النبت (وذلك عند أول طلوعه)(١). ومنه قيل: فطر ناب البعير أي طلع وانشق، وبعير فاطر(٢).

ومن هنا جاء الاستعمال المعنوي للكلمة، وهو إطلاق اللفظ على الشق بصورة عامة، وذلك أن النبت حين يطلع يكون طلوعه بعد تشقق الأرض، ونموه وكذا الحال مع نمو الأسنان، وطلوعها. أما معنى الخلق والابداع الذي جعله ابن فارس الأصل الأولي للكلمة، فإنه معنى متطور عن المعنى الحسي الأول، ويوضحه قول ابن عباس: (كنت لا أدري ما معنى فاطر السماوات والأرض حتى اختصم إليّ أعربيان في بئر فقال أحدهما أنا فطرتها، أي ابتدأتها)(٣). ذلك لأن شق البئر ابتداع في حد ذاته.

ومن هنا نفهم العلاقة الوثيقة بين قوله تعالى واصفاً تشقق السماء وانفطارها وبين الآيات التي ورد فيها معنى الانفطار بالخلق والإبداع، وأنهما من أصل حسي واحد هو تفطر النبت أو الأسنان.

وبعد هذا العرض السريع لمعنى كلمة الانفطار تتبين لنا الدلالة العظيمة والصور الرهيبة التي توحيها الآيات الكريمة في تصوير انفطار السماء، وذلك أنها حين

---

(١) انظر قول أبي حنيفة في باب (بدء النبت وانتهائه) المخصص ١٠: ٨٦، ٢١٣، وانظر أيضاً مجالس ثعلب ١: ٢٩١، ٢٩٢، المفردات ٣٩٠، وانظر الشعر في ديوان امرئ القيس: ١٥٧.

(٢) العين ٢٦١، مجاز القرآن ١: ١٨٧، ٢: ١٢، الزينة: الورقة ١٩٦ (ب)، الصحاح: ٢: ٧٨١، أمالي القالي ١: ٢١، الكشاف ٣: ٢٥٣، وانظر باب أسنان الأولاد وتسميتها في المخصص ١: ٣٣.

(٣)الزينة: الورقة ١٩٦ (ب) الكشاف ١: ٤٩٧.

تمور، وتضطرب تتصدع جوانبها، وتنشق، ولا تعكس الآية الكريمة معنى الفطر الذي هو الشق فحسب، وإنما تنقل لنا تلك التلقائية التي تظهر في استجابة الكون كله لأمر الله تعالى، وهي التي نجدها في فطر النبات، وفطر ناب البعير وانشقاقه، لأن هاتين الظاهرتين انما تحدث للنبت أو للبعير بصورة طبيعة، وفق نظام الخلائق الذي وضعه الله سبحانه وتعالى . ويؤكد هذا المعنى الأسلوب البياني الذي سارت عليه الآيات الكريمة حيث أسند الفطر والشق إلى السماء مباشرة، وصرف عن الإسناد إلى مُحدثِ الفطر والشق وهو الله سبحانه وتعالى، لأجل توجيه الذهن إلى أن الظواهر التي تحدث يوم القيامة مسخرة لهذه الأحداث، مهيأة لها. وهي ظاهرة تطَّرِد فيها كل التعابير القرآنية التي تخص اضطراب السماوات والأرض. وأول من التفت الى هذه الناحية – فيما قرآت – الدكتورة بنت الشاطئ بقولها (ولا أعرف أحداً من المفسرين، أو البلاغيين، التفت الى اضطراد هذه الظاهرة الأسلوبية في القرآن، مع وضوحها إلى درجة العمد، والإصرار وسرها البياني دقيق جليل. فاطِّراد إسناد الحدث الى غير محدثه بالبناء للمجهول، والإسناد المجازي أو المطاوعة، يدل على العمد المقصود به ما نسميه التلقائية، والإقناع النفسي بأن الكون كله مهيأ يومئذ للحدث الخطير، وإن الكائنات مسخرة بقوة لذلك الحدث، فما تحتاج فيه إلى أمر ولا الى فاعل فالأرض تزلزل تلقائياً، وتدك بانبعاث قاهر، والجبال ترج وتنسف، والبحار تسجر، والنجوم تطمس، وتبعثر، في طواعية تلقائية)[1].

(١) التفسير البياني: ٧٠

د – تناثر النجوم:

ومن الطبيعي أن يصيب الخلل والاضطراب النجوم أيضاً، بعد أن يختل النظام الكوني العام، فتنهار السماء، وتمور موراً عظيماً ينتج عنه تغير حال النجوم، وانهيارها أيضاً. قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ ..... فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾[١] فبعد القسم القرآني تتابعت الآيات الكريمة تعرض الظواهر التي تصيب الكون، ومن بينها النجوم قال ابن عباس مفسراً طمس النجوم بأنه إذا (ذهب نورها)[٢].

أما في اللغة فإن حقيقة الطموس هي (الدروس والإمحاء.... وانطمس الشيء، وتطمس أي انمحى ودرس)[٣]: وقال ابن فارس هو (أصل يدل على محو الشيء ومسحه)[٤].

فتفسير طمس النجوم في الآية الكريمة بذهاب نورها من باب الامحاء والمحق؛ لأن النجوم إذا تغيرت، وامحّت معالمها ذهب نورها، وهو معنى أكدته آيات كريمة أخرى كقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ ...عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾[٥] فقد فسر الانكدار بالتساقط والإسراع

---

(١) سورة المرسلات ٧٧: ١-٣، ٨-١٢

(٢) تنوير المقباس: ٣٧٧

(٣) الصحاح ٢: ٤١، لسان العرب ٧: ٤٣٢

(٤) مقاييس اللغة ٣: ٤٢٤، لسان العرب ٧: ٤٣٢

(٥) سورة التكوير ٨١: ١-٤، ١٤

تارة، والتغير تارة أخرى قال ابن عباس: (إذا النجوم انكدرت: تساقطت على وجه الأرض) [1] وقال أبو عبيدة: (انكدرت: يقال انكدر فلان انصب) [2] . أما تفسير الانكدار بالتغير فقد نقله الطبري ابن عباس وآخرين[3].

وتعبير الانكدار يعيد لنا تعبير الطمس في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴾[4] لأن لأن تساقط النجوم يؤدي إلى تغير لونها وإلى إمحائها أيضاً، ولكن الانكدار يعطينا إيحاء آخر أكثر من معنى التغير والسقوط، إيحاءً مرتبطاً بالبيئة العربية، وصورها المألوفة، وذلك إطلاقهم الكدرة على خلاف الصفو في الماء [5]. وللماء أهميته العظيمة في البيئة العربية الصحراوية وسنبحثه بالتفصيل فيما بعد[6]. تلك الأهمية التي جعلت منه الركن الركن الاساسي في حياتهم فإذا بتعابير الماء تصبغ كلامهم، وصوره تملأ مخيلتهم، وإذا أراد شاعرهم الفخر فإنما يفتخر بشربه الماء الصافي العذب قبل غيره من الناس لعزته ومنعته، بينما يشرب أعداؤه الماء الكدر بعد أن يرده هو وقبيلته قال عمرو بن كلثوم:

وأنـــا الشّـــاربون المـــاء صـــفواً ويَشربُ غيْرُنا كدراً وطينا[7]

(١) تنوير المقباس: ٣٨٢

(٢) مجاز القرآن ٢: ٢٨٧: وانظر أيضاً جامع البيان ٣٠: ٦٥، الكشاف ٣: ٣١٥.

(٣) جامع البيان ٣٠: ٦٥

(٤) سورة المرسلات ٧٧: ٨

(٥) انظر جمهرة اللغة ٢: ٢٥٢، الصحاح ٢: ٨٠٣ مقاييس اللغة ٥: ١٦٤

(٦) انظر الفصل الخامس: ٥- شراب أهل النار، والفصل السادس، أ- انهار الماء.

(٧) شرح القصائد السبع" ٤١٩: ٢٧٣، وانظر أيضاً ديوان حاتم الطائي: ٣٦.

وأقصى ما يمدح به المرء أن يشبه بالماء العذب في جوده وكرمه، وإذا مدح شخص بهذا، فسرعان ما يبعد عنه أن يكون ماء كدراً، وإنما يمدح بأنه كالماء العذب البارد.

أنشد الأعرابي:

لو كنت ماءً كنت غير كدرٍ[1]

فالماء الصافي هو الصورة المحببة للعربي في بيدائه الشحيحة، فيطيب عيشه إذا توفر الماء، وطاب، فإن ساءت معيشته، أو أصابته مصيبة استعاروا كدرته للتعبير عن العيش الضنك، والحياة الذميمة، فقالوا: " كدر عيش فلان وتكدرت معيشته "[2].

ومن هنا ندرك مدى التصوير البليغ المعجز، الذي يصوره تعبير الانكدار في تصوير حال النجوم حين تتغير، وتفقد بهاءها، فتكون صورة بغيضة تنقل الى ذهن العربي صورة الماء الكدر، والعيش الكدر وكل ما يناقض الصفو والجمال. وتغير النجوم بهذه الصورة المحزنة ينتج من اضطراب الكون كله، ومور السماء، وانكفائها. فكدرة النجوم وتغيرها يدل على تغير واضطراب سريع في نظام سيرها، ذلك الاضطراب الذي يؤدي بها الى الانهيار السريع. ومن هذه الوجهة جاء تفسير من قال: إنّ معنى انكدرت "" أسرعت "[3].

---

(١) الصحاح ٢: ٨٠٣، والشعر غير منسوب إلى قائله.

(٢) نفسه: ٨٠٤، وانظر أيضاً مقاييس اللغة ٥: ١٦٤، وانظر شواهد الشعر في ديوان الأعشى: ٤٣، ديوان النابغة الجعدي: ٦٩، ٧٣، ديوان عدي بن زيد العبادي: ٦٠، شرح ديوان عنترة: ٨٠، جمهرة أشعار العرب: ١٢٦، شرح ديوان الحماسة ١: ١١٩.

(٣) مقاييس اللغة ٥: ١٦٤.

ومما مرّ بنا يبدو أن الإسراع ليس أصلاً ثانياً للكلمة كما ذهب ابن فارس[1]، وإنما هو متطور عن المعنى الأول، لأن إسراع النجوم ناتج عن اضطراب النظام الدقيق الذي يسير الكون عليه، فسرعان ما تهوى، وتتساقط بسرعة رهيبة.

وقد صور هذا المعنى بتعبير آخر هو قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾[2]. ويزيد من دقة الوصف ما توحيه كلمة النثر من سقوط النجوم وتهاويها، حتى تعود صغيرة، متناثرة، لأن النثر مقترن بالأجسام الصغيرة كما توحيه الكلمة.

وبعد أن مرّت بنا التعابير المختلفة التي صورت الظواهر الطبيعية التي تحدث في الكون يوم القيامة تتشكل في الذهن صورة متعددة الجوانب، مليئة بالحركات لاضطراب الأرض والسماء، وما فيهما من جبال وكواكب، فالأرض ترج رجاً شديداً، وتزلزل زلزالاً عظيماً شاملاً وتحدث انكسارات للجبال فتفتت أجزاؤها، وتتناثر جوانبها متلاشية في الكون المضطرب، والبحار تختلط في هذا الخضم الكوني المختل النظام[3] أما السماء فتنهار متحولة إلى سائل متعدد الألوان وقد تغير لون شمسها ونجومها، وتهاوت كلها أثر الاختلاف الكوني العام.

---

(١)مقاييس اللغة ٥٠/ ١٦٤ .

(٢) سورة الانفطار ٨٢: ١-٣

(٣) قال الله تعالى: (اذا الشمس كورت) سورة التكوير ٨١: ١، وفسر تكوين الشمس بامحّائها، وذهاب نورها. أنظر تنوير المقباس ٣٨٢، مجاز القرآن ٢/ ٢٨٧ جامع البيان ٣٠: ٦٣، وانظر أيضا المخصص ٩: ٢٤.

لقد مرّت بنا الإيحاءات المختلفة التي أوحتها التعابير القرآنية في وصف هذه المشاهد، وما تعكسه من صور البيئة العربية، فلنا أن نتساءل: هل استطاع الذهن العربي أن يتصور هذه الظواهر الرهيبة كما صورها القرآن الكريم؟

وإذا بحثنا في جوانب البيئة العربية وجدنا بعض ملامح هذه الصور المفزعة التي يصفها القرآن الكريم، وهي وإن كانت ملامح بسيطة لا تقاس بشيء مما يحدث يوم القيامة، فإن لها دلالتها على البيئة العربية والذهن العربي.

إنها ملامح الزلازل والبراكين التي تحدث في الحياة الدنيا. فهل تصور الذهن العربية الزلازل والبراكين؟ ومن ثم الاضطراب الكوني يوم القيامة؟ أما المصادر العربية فإنها لم تذكر حدوث زلازل في الجزيرة العربية في العصر الجاهلي، إنما الذي نجده وصفاً لبقايا البراكين وقد ذكرها الذين كتبوا في جغرافية بلاد العرب من المحدثين فوصفوا آثار البراكين.

قال الشرقاوي يصف هضبة الجزيرة بقوله: (تتغطى هذه الحافة في اليمن بطبقة من اللافا، وهي نوع من الصخور البركاني)[1].

وقال بيربي واصفاً جبال الحجاز حتى خليج عدن (ووراءه ترتفع جبال سوداء جرداء، إنها جبال الحجاز التي تخترقها ممرات قليلة تربط بين الساحل والداخل، وإذا توجهنا جنوباً نحو خليج عدن، وجدنا الصخر البركاني)[2].

أما هضبة نجد فوصفت بأنها: (مغطاة بحمم السائل البركاني)[3].

---

(١) هذا العالم: ٣٣٣

(٢) جزيرة العرب لبيربي: ٢٠

(٣) جزيرة العرب لوهبة: ١٤

أما الحرات فهي من بقايا البراكين في الجزيرة العربية وهي كما وصفتها المراجع القديمة: (أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار)[1].

ويقول شليفر إن هذه الحرات من مظاهر البراكين التي شملت الصحراء فغطت وجهها بالحجارة السود، وربط بينها وبين زلزال وصفه السمهودي في حوادث سنة ٦٥٢ هـ قال: (وأصل هذه الحرات البراكين الباطنية التي غطت باستمرار وجه الصحراء المتموجة بطبقة من الحمم، وهي توجد بصفة خاصة في شرق حوران وتمتد من هناك إلى المدينة)[2].

وربط الزلازل بالبراكين ظاهرة طبيعية أيضاً، ذلك لأنهما تحدثان نتيجة لعوامل جغرافية يسببها تخلخل في طبقات الأرض، وحركة، واضطراب شامل[3]. وهناك نوع من الزلازل سميت البركانية (وهي التي ترتبط هزاتها بالهزات الناجمة عن انبثاق اللاّفات في فوهات البراكين)[4]. وقد حددت منطقة الزلازل في الجزيرة العربية بأنها تلك التي توازي السواحل الشرقية الآسيوية[5].

---

(١) جمهرة اللغة ١/ ٥٩، الصحاح ٢/ ٦٢٦، معجم مقاييس اللغة ٢/ ٧، شرح القصائد السبع ٤٧٤، المخصص ٥/ ٢٥٢، ١٠/ ٨٦ وانظر عن وجود الحرّات في ديوان النابغة الذبياني ٥٦، مختصر البلدان ٣١، معجم البلدان ٢/ ٢٠٥، جغرافية العالم ١/ ٣١.

(٢) وفاء الوفا ١/ ١٤٢، ١٥٠، دائرة المعارف الإسلامية مادة (حرة) ٧/ ٣٦٣. .

(٣) الزلازل عبارة عن حركات تموجية تصيب قشرة الأرض في مناطق واسعة) أنظر قشرة الأرض: ٣٤٨.

(٤) نفسه.

(٥) نفسه.

هذه الدراسات الجغرافية تثبت كلها وجود البراكين والزلازل في الجزيرة العربية، لأنها أرض عرفت الانكسارات، والتخلخل الطبقي الذي يصيب قشرة الأرض. أما المصادر العربية القديمة[1] فنجد فيها رواية يظهر عليها الطابع الأسطوري وذكرها هنا يطلعنا على معرفة العرب للبراكين والزلازل، وعلى مقدار تصورهم لجغرفية الجزيرة العربية. يذكر الجاحظ في حديثة عن نار (حرة بني سليم) أن الناس يزعمون بأنها نار خالد بن سنان أحد بني مخزوم في بلاد عبس. فإذا كان الليل فهي نار تسطع في السماء، وأنها كانت تأتي على كل شيء فتحرقه، وإذا جاء النهار فإنما هي دخان يفور ويروى بأن خالداً هذا احتفر لها بئراً... ويروى أيضاً أن النبي ﷺ، قال حين رأى إبنته: هذه بنت نبي ضيعة قومه[2].

وتدلنا هذه الأسطورة على أن العرب عرفوا البراكين، وعانوا من انفجارها في العصر الجاهلي ما عانوا، حتى صاروا يطلقون عليها اسم العذاب الموجع. ثم أن هذه البراكين والزلازل ظهرت في الجزيرة العربية في العصور الاسلامية المتأخرة، ووصف السمهودي أحدها وهو – وإن كان متأخراً – يفيدنا في رسم صورة واضحة لنموذج من الظواهر الطبيعية التي تجتاح الجزيرة العربية. ففي مستهل جمادى الآخرة سنة أربع

(١) قدمنا المراجع الحديثة عن المصادر القديمة لأننا اتبعنا الأقوال حسب تسلسلها من الناحية العلمية لا التاريخية.

(٢) الحيوان ٤/ ٤٧٤، ثمار القلوب ٤٥٥، والجاحظ ينكر هذه الرواية ويقول: (والمتكلون لا يؤمنون بهذا، ويزعمون أن خالداً هذا كان أعرابياً وبريا من أهل شرج وناظرة، ولم يبعث الله نبيا قط من الأعراب) ومن المحتمل أن يكون قول النبي ﷺ – إن صحت الرواية – مجازاً وأراد به أنها ابنة مصلح عظيم لم يعرف قومه قدره ثم حاك الخيال العربي هذه الأسطورة مستنداً على ظاهرة الحرات الموجودة في الجزيرة العربية.

وخمسين وستمائة حدث في المدينة زلزال له دوي عظيم فكانت الأرض تموج، والجدارات تتحرك، وذكر أن أمير المدينة أرسل عدة فرسان إلى هذه النار، فذكروا أنها ترمى بشرر كالقصر، ولم يظفروا بجلية أمرها وأن الأمير حين ذهب بنفسه إليها لم يستطع مجاوزة موقفه من النار، ورأى ناراً كالجبال الراسيات، والتلال المجتمعة تقذف بزبد الأحجار كالبحار المتلاطمة الأمواج، وعقد لهيبها الأفق قتاماً حتى ظن الظان ان الشمس والقمر كسفا، اذ سلبا بهجة الإشراق في الآفاق. وقال المؤرخون، واستمرت هذه النار مدة ظهورها تأكل الأحجار، والجبار وتسيل سيلا ذريعاً في واد يكون طوله أربع فرسخ وعرضه أربعة أميال، وعمقه قامة ونصف وهي تجري على وجه الأرض والصخر يذوب حتى يبقى مثل الآنك ولم يزل يجتمع من هذه المذابة في آخر الوادي عند منتهى الحرة حتى قطعت في وسط الوادي الشظاة إلى جهة جبل وعبره، فسدَّ الوادي المذكور بسد عظيم من الحجر المسبوك بالنار)(١).

والوصف الأخير لبقايا الأحجار المذابة يشبه وصف القدماء للحرة، بأنها حجارة سود نخرة، كما نجد في الوصف العام للزلزال بعض ملامح الاضطراب الكوني الذي يحدث يوم القيامة – والذي مرت بنا صوره – فالجبال تتكسر وتتناثر أجزاؤها، وشبهت في القرآن الكريم بالسراب لتلاشيها، وكثرة فتيتها المتناثر، كما شبهت بالصوف المنتثر؛ لما يحدث لها من اضطراب هائل فضلا عن الانكسارات الرهيبة التي تزلزل الأرض...

(١) وفاء الوفاء ١: ١٤٢-١٤٣.

وإذا كان زلزال المدينة قد اقتصر على منطقة محدودة فملأ النفوس بالرعب، والفزع، فكيف بالإنسان، وهو يواجه هذه الاضطرابات الرهيبة في كل ركن من أرجاء الأرض، فلا تسلم منه الجبال، ولا الوديان، بل حتى السماوات، والكواكب والكون بأجمعه... أنه رعب هائل يثيره القرآن الكريم في النفوس البشرية وهو رعب يشعر به العربي الذي شهد الزلازل في بيئته أو وجد آثارها في الحرات المتبقية فرسخت في ذهنه أحاديث هولها، وأذاها، هذا العربي يستطيع أن يتصور الرعب الذي يفزع الإنسان حين يواجه الاضطراب الكوني وحده يوم القيامة[1]. وتضاف إلى هذا ظواهر طبيعة أخرى لم يشهدها الإنسان في حياته الدنيا، لأنها تنتج عن إختلال عام يتبعه تحول السماء إلى سائل مذاب ثم انهيارها، وتنأثر نجومها وأجرامها كما مرَّ وأجرامها كما مرَّ بنا.

وتعرض القنوات الفضائية اليوم صوراً رهيبة لحوادث الزلازل والبراكين التي تجسد الرعب الذي قد يتصوره أي أنسان إذا قرأ الآيات الكريمة التي تصور الانفجار الكوني الذي يشمل السموات والأرض.

---

(١) ومن هنا عدّ الجاحظ الزلازل من الظواهر التي يبعثها الله سبحانه وتعالى لترهيب البشر. أنظر الدلائل والاعتبار: ١٣.

الفصل الثالث

صفة الناس يوم القيامة

١. سيرهم نحو النفير:

أ. سرعتهم: نسلهم، تشبيه سيرهم بالطواف حول النصب.

ب. تفرقهم وانتشارهم، تشبيههم بالجراد وبالفراش.

٢. صفاتهم النفسية.

أ. يأسهم.

ب. توقعهم العذاب.

جـ. ذلتهم.

٣. صفاتهم الجسدية:

أ. سواد وجوه المجرمين، وبياض وجوه المؤمنين.

ب. حشر المجرمين زرقا.

جـ. إشراق وجوه المؤمنين.

3

الفصل الثالث

صفة الناس يوم القيامة

١- سيرهم نحو النفير:

أ- سرعتهم:

يخرج الناس من قبورهم أثر سماع النفير المفزع يوم القيامة: فيقفون وجها لوجه أمام الاضطراب الهائل الذي يختل فيه نظام السموات والأرض. ومن هنا نجد في القرآن الكريم صوراً رائعة تصور مشاهد الناس عند خروجهم من القبور، وأول هذه المشاهد صورة سرعتهم في سيرهم نحو الداعي، وقد عبّر عنها بعدة تعابير لكل منها دلالته على البيئة العربية.

نسلهم: قال الله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾[1]

(١) سورة يس ٣٦: ٤٨ – ٥٢

وقال أيضاً: ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ [١] وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [٢] فبعد نفخ الصور يخرج الناس من قبورهم فيتساءلون عن حقيقة الموقف الذي دعوا إليه. وقد قال ابن عباس: إنّ معنى ينسلون يخرجون[٣].

أما أبو عبيدة فإنه فسر النسل بالسير السريع وقرنه بعدو الذئب قال: (ينسلون: يسرعون، والذئب يعسل وينسل) [٤]. وقال أيضاً في تفسير سورة الأنبياء: (ينسلون: يعجلون في مشيهم كما ينسِل الذئبُ ويعسل قال الجعدي:

عَسَلانُ الذئبِ أمسى قارباً ... بَرَدَ الليلُ عليه فنَسَلْ [٥]

أمّا في اللغة، فنجد أن معاني الكلمة متقاربة بعضها من بعض، فالنسل بصورة عامة هو ضرب من السير السريع[٦].

---

(١) ياجوج ومأجوج: قال المفسرون إنهما أمّتان من الإنس وقيل: اسمان لرجلين. أنظر جامع البيان ١٧: ٨٨، التبيان ٧: ٢٧٧، الكشاف ٢: ٣٣٧.

(٢) سورة الانبياء ٢١: ٩٥-٩٧.

(٣) تنوير المقباس: ٢٧٥.

(٤)مجاز القرآن ٢: ٤٢

(٥) مجاز القرآن ٢: ٤٢، وانظر أيضاً جامع البيان ١٧: ١٩١، ٢٣: ١٥، التبيان ٧: ٢٧٩، والبيت في ديوان النابغة الجعدي: ٣.

(٦) الصحاح ٥: ١٨٣، مقاييس اللغة ٥: ٤٢٠، لسان العرب ١٤: ١٨٤، وانظر أيضاً أعجب العجب: ٣٨، أمثال العرب: ١٩، الطرائف الأدبية: ٧٥

ونجد أنه اقترن بضرب من مشي الذئب قال ابن دريد: وعسَلَ الذئب يعسِلُ عَسَلاً وعَسلاناً. وكذلك نَسَل نَسلاناً وهو ضرب من المشي يضطرب فيه[1]. وقال الزمخشري: (ونَسَل الذئب إذا أسرع بإعناق)[2]. وقد ذكر ابن منظور أن هذا الاستعمال هو أصل للكلمة ثم أطلق على السير السريع قال: (وقيل أصل النَسَلان للذئب ثم استعمل في غير ذلك وأنسلت القوم إذا تقدمتهم)[3].

ويبدو أننا لا نستطيع الجزم بأن أصل النسلان هو سرعة سير الذئب، ذلك لأن الكلمة وردت في الشعر الجاهلي مقترنة بضروب عديدة من سير الحيوانات المتوافرة في البيئة العربية.

فيقال عن الكلاب إذا أسرعت في سيرها نسلت[4]. وكذا الحيّات في سرعة انسلالها وسيرها. وبهذا لا تستطيع الجزم بأصل استعمال النسل هل هوسير الذئب أو الناقة أو الكلب، لأن هذه الحيوانات كلها مما اعتاده العربي في بيئته وشهد عدوها وسرعة سيرها، إلاّ أن صورة نسل الذئب يقرب لنا الآية الكريمة لأنه سير سريع فيه اضطراب، وكذلك يكون حال الناس في سرعة سيرهم واضطرابهم نحو الداعي. وسياق الآيات العام يعيننا في فهم الاضطراب من تعبير النسل: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى

(١) جمهرة اللغة ٣: ٣٢، ٥١.

(٢) أساس البلاغة: ٩٥٤.

(٣) لسان العرب ١٤: ١٨٤.

(٤) الصحاح ٦: ١٨٢٦، لسان العرب ١٤: ١٨٤، وانظر الشعر في الطرائف الأدبية: ٦٦.

ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾(١). لأنه بالفزع والرعب من مفاجئة الموقف وهوله.

وهناك معنى آخر لكلمة النسل، وذلك قولهم: النسالة: شعر الدابة إذا سقط عن جسدها قطعاً(٢). وواضح أن تساقط الشعر أو الوبر لا يكون بالقوة، إنما يكون نتيجة لطبيعة الجسد حين تحدث له ظاهرة تستدعي سقوط الشعر تلقائياً. ونجد هذه الصورة نفسها في قولهم (النسل بالتحريك اللبن يخرج بنفسه من الإحليل)(٣).

ومن هذا المعنى الجديد لكلمة النسل تتشكل في الذهن صورة أخرى لسير الناس يوم القيامة، ذلك لأننا نجد فيه معنى الطواعية والاستجابة السريعة التي تضفي على الآية إيحاء جديداً يتجلى في خروج الناس وإسراعهم من قبورهم نحو الداعي بصورة طبيعة. وهذا المعنى تنسجم معه مشاهد القيامة الأخرى، إذ أن كل مظهر من مظاهر الطبيعة يتجلى فيه تسخير محدد لاستجابة أمر الله سبحانه وتعالى كما مرّ بنا سابقاً(٤). فكأن الكون كله قد هيأ لاستقبال حادث عظيم وهو قيام الساعة والحساب. وتتعاون هذه الصورة مع المعنى الأول لكلمة النسل، وهي تشبيه سير الناس بعدو الذئب المضطرب، ذلك لأننا نجد في الآيات الكريمة معنى الطواعية والاستجابة لأمر داعي الله، كما يتجلى فيها اضطراب وقلق يشبه اضطراب الذئب في عدوه، وكلا المعنيين منسجم مع المشاهد الكونية التي مرّ وصفها.

---

(١) سور يس ٣٦: ٤٩-٥٢.

(٢) مقاييس اللغة ٥: ٤٢٠، أساس البلاغة: ٩٥٣

(٣) الصحاح ٦: ١٨٢٩، لسان العرب ١٤: ١٨٤.

(٤) انظر الفصل الثاني أ- اضطراب الأرض -٣- بشُّها.

تشبيه سيرهم بالطواف: أما سرعة سير الناس نحو الداعي ف]إنها رسمت في آية أخرى بصورة تنقل لنا مشهداً من مشاهد البيئة العربية الجاهلية، فقد شبهت سرعتهم نحو الداعي بصورة الطواف حنل النص التي كان العرب يعبدونها قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾[1].

قال معظم المفسرين أن النصب واحدة الأنصاب وهي حجارة كان ينصبها مشركو العرب، فيعبدونها، ويذبحون لها[2]. وقال آخرون: إنّ النصب هو ما نصب لهم من علامة أو غاية يستبقون إليها[3]. فهم في سرعتهم نحو الداعي كأنهم يستبقون إلى غاية نصبت لهم. وقد ذهب اللغويون مذهب المفسرين في النصب[4].

والملاحظ أن صورة الأنصاب التي كانوا يذبحون عليها، ويطوفون حولها أقرب إلى الذهن عند قراءة الآية الكريمة من العلم أو الغاية التي يستبقون إليها. فقد اعتاد العرب صورة الأنصاب بكونها جزءً من حياتهم الدينية روى الطبري أن في مكة وحدها ثلاثمائة وستين حجراً يذبحون عليها القرابين[5]. وذكر أيضاً أن النصب

(١) سورة المعارج ٧٠: ٤٣.

(٢) تفسير الخمسمائة آية: الورقة ٤٧ (ب) جامع البيان ٢٩: ٨٩، الزينة: الورقة ٢٣٩ (ب)، التبيان ١٠: ١٢٩.

(٣) اللغات في القرآن: ٥١، جامع البيان ٢٩: ٨٨، الزينة، الورقة ٢٣٩ (ب).

(٤) جمهرة اللغة ٢٢٩، أساس البلاغة: ٩٥٩، ٩٦٠، لسان العرب ٢: ٢٥٥-٢٥٦.

(٥) جامع البيان ٩: ٥٠٨.

وجدت في عكاظ[1]. والطائف وفي الحجاز[2]. إلا أنهم اختلفوا في تحديد مدلولها، فمنهم من قصرها على الحجارة يذبح عليها للالهة[3]. ومنهم من عدها من معبودات العرب يطوفون حولها، وينحرون لها[4].

والظاهر أن اختلافهم في النصب متأت من طبيعة وجود هذه الأنصاب في البيئة العربية، واختلاف نظرة الناس إليها من مكان إلى آخر، فهي في مكة حجارة يذبح عليها كما ذكر الطبري[5]. حتى إذا حجّ العربي، وأراد العودة إلى أهله عزّ عليه فراق الكعبة فيأخذ من حجارة الحرم ما ينحته على صورة أصنام البيت، ويجعله قبلة له في بيته يطوفون حوله، ويتمسحون به، ويصلون له؛ تشبيهاً له بأصنام الكعبة. قال ابن الكلبي (واشتهرت العرب في عبادة الأصنام فمنهم من اتخذ بيتاً، ومنهم من اتخذ صنماً، ومن لم يقدر عليه، ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم، أو أمام غيره مما استحسن ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الأنصاب)[6]. وقال ياقوت: (وأفضى بهم الأمر بعد طول المدة أنهم كانوا يأخذون الحجر من الحرم فيعبدونه فذلك كان أصل عبادة العرب

---

(١) اسماء جبال تهامة: ٧٩

(٢) وقد وصف Doughty أحد هذه الأنصاب واعتقد أنها كانت موهوبة للات ووصفها بأنها صخرة غير منظمة ورمادية اللون. انظر:

Travels in Arabia Desert Vol, II. P . ٥٥٠

(٣) جامع البيان ٩: ٥٠٨، الأصنام: ٤٢، الزينة: الورقة ٢٣٩ (ب) وانظر أيضاً تاريخ العرب لجواد علي ٧: ٧٩.

(٤) تفسير الخمسمائة آية: الورقة ٤٧ (ب)، جامع البيان ٢٩: ٩٠، الزينة (الورقة) ٢٤١، (أ) التبيان، ١٠: ١٢٩.

(٥) جامع البيان ٩: ٥٠٨.

(٦) الأصنام: ٣٣.

للحجارة في منازلهم شغفاً منهم بأصنام الحرم)[1]. والذي يهمنا في هذا الأمر هو صورة طوافهم حول الأنصاب التي تنقل لنا سرعة السير في التعبير القرآني حين وصف سير الناس بعد حشرهم من قبورهم وشبهه بالطواف حول النصب. وفي الشعر الجاهلي نجد ذكراً للأنصاب على أنها حجارة يذبح عليها[2]. أما الصورة التي تعيننا في فهم الآية الكريمة فهي صورة حول النصب وسرعتهم في السير نحوه، قال المثقب العبدي[3] ذاكراً الطواف:

يطيف بنصبهم حُجْن صغارٌ فقد كادتْ حواجبهم تشيبُ[4]

وقال الطرماح واصفاً سرعة جري الثور وراء النعامة مشبهاً إياها بطواف قاضي النذر حول النصب:

طوافَ مُتْلٍّ نذر على نُصُبٍ حول دوارٍ مُحَمّرةٍ جُدُدُهْ[5].

وتشبيه الطرماح يفيدنا في هذا الباب لأنه صادر عن الصورة الفنية التي علقت في الذهن العربي وهي صورة الطواف السريع حول النصب والتي بقيت في الاستعمال الأدبي مع زوال النصب والأصنام بانتشار الاسلام.

---

(١) معجم البلدان ٤: ٦٢٢.

(٢) ديوان النابغة الذبياني: ١٢١، ديوان سلامة بن جندل: ٨.

(٣) هو العائذ بين محصن بن ثعلبة. من بني عبد القيس، من ربيعة. شاعر جاهلي من أهل البحرين اتصل بالملك عمرو بن هند وله فيه مدائح، ومدح النعمان بن المنذر أيضاً. أنظر الشعر والشعراء ١: ٣١١-٣١٣ جمهرة أنساب العرب ٢٩٨ – ٢٩٩، خزانة الأدب ٤: ٤٣١.

(٤) الأصنام:٤٢، والبيت غير موجود في شعر المثقب العبدي.

(٥) ديوان الطرماح: ٥٣

ومن هنا نجد الاعجاز العظيم في التعبير القرآني الذي وصف سرعة سير الناس نحو الداعي وشبهه بالطواف حول النصب: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾[1]. ذلك التعبير الذي تحدى الاعتقاد الديني ولم يأخذ منه وإلاّ الصورة النفسية وهي صورة الطواف مع أنها ما زالت قريبة العهد إلى الذهن العربي[2].

ونستطيع أن نلمح في الآية معنى آخر إلى جانب سرعتهم في السير ذلك المعنى هو الضلال المتجلي في طواف المشركين حول النصب، فكأن الناس حين يخرجون من قبورهم يسرعون نحو الداعي، وهم في إسراعهم هذا يكتنفهم الضلال، والحيرة، كما هوا الحال مع المشركين حين يطوفون حول النصب ولا يستجاب دعاؤهم ولا يجدي طوافهم. أما معنى السرعة فيؤكده وصف الكافرين بأنهم: ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾[3]. لأن الإيفاض هو السرعة كما قالوا،[4] وكلا المعنيين يتعاونان على رسم صورة الناس عند إسراعهم نحو الداعي.

ب – تفرقهم وانتشارهم:

يفزع الناس عند سماعهم النفير فيخرجون من قبورهم مضطربين هلعين، وقد توضحت لهم حقيقة الموقف فيتفرقون وينتشرون، وقد ملأ الرعب قلوبهم. وصورة

---

(١) سورة المعارج ٧٠ : ٤٣-٤٤

(٢) وقد وردت في القرآن الكريم بهذا المعنى، أنظر سورة المائدة ٥: ٩٠.

(٣) سورة المعارج ٧٠ : ٤٣-٤٤

(٤) تنوير المقباس: ٣٦٨، تأويل مشكل القرآن: ٣١٧، جامع البيان ٢٩ : ٨٨، التبيان ١٠ : ١٢٩.

انتشارهم المفزع صورت في القرآن الكريم بصورة واضحة المعالم، إذ شبهوا مرة بالجراد المنتشر، وأخرى بالفراش المبثوث قال الله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾(١).

وتشبيه حال الناس في تفرقهم بالجراد ينقلنا إلى البيئة العربية التي ألف العرب فيها انتشار الجراد في صحرائهم الواسعة.

وقد ذكر الجراد في سورة الأعراف على أنه مما أرسل مع القمل والطوفان على آل فرعون(٢)، ولرسوخ صورة الجراد في الذهن العربي شبهوا بها الناس الجبناء حين يفرون من الحرب فزعين خائفين، تنقل لنا صورة زحف الجراد حين يملأ الأرض بزحفه ويسير بقوة دافعة لا يمكن أن تصده أي قوة أخرى(٣).

وهم في مثل هذا التشبيه يقصدون إلى رسم الفزع الذي يجعل الجبناء يفرون على غير هدى هرباً من الموت والقتل وهي صورة واضحة المعالم في وصف الناس يوم القيامة حين يفاجؤهم الفزع الأكبر، فيتفرقون على غير هدى، ويفرون على وجوهم تتبعهم الذلة والهلع،وهم في سيرهم هذا مدفوعين بقوة مجهولة مُنساقين نحو الداعي بجموعهم المحتشدة، متذكرين صورة الجراد المجتمع الذي يزحف بقوة ودأب عظيمين لا تقف أمام جيوشه وزحفه قوة من القوى.

---

(١) سورة القمر ٥٤: ٦-٨.

(٢) سورة الأعراف ٧: ١٣٣.

(٣) ديوان النابغة الجعدي: ٤٥، المؤتلف والمختلف: ٥٦، الأشباه والنظائر ١٤٩، ٢٦٦، الطرائف الأدبية: ١٦.

وفي آية أخرى شبه الناس في تفرقهم وانتشارهم بالفراش: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾[1]. في هذه الآيات الكريمة نجد تصويراً آخر لحال الناس يوم القيامة، فشبهوا بالفراش، واختلف المفسرون تحديد الفراش فقال ابن عباس (الفراش المبثوث المبسوط يجول بعضه في بعض، والفراش هو شيء يطير بين السماء والأرض مثل الجراد)[2]. أما أبو عبيدة فلم يشبهه بالجراد وإنما اكتفى بقوله (كالفراش المبثوث طير لا بعوض ولا ذباب هو الفراش)[3]. أما الزجاج فقد شبه الفراش بصغار البق قال (والفراش ما تراه كصغار البق يتهافت في النار، شبه الله عز وجل الناس يوم البعث بالجراد المنتشر، وبالفراش المبثوث، لأنهم إذا بعثوا يموج بعضهم في بعض كالجراد الذي يموج بعضه في بعض)[4].

ويلاحظ هذا التشبيه أنه مستمد من البيئة العربية أيضاً، من صورة اعتادها العربي فضرب بها المثل، وذكرها في أشعاره، ذلك لأن البيئة العربية صحراء مترامية الأطراف في معظم أجزائها تسرح فيها الحيوانات نهاراً، فإذا جاء الليل، فإن أيّ نار تتراءى من مكان ما تتهافت حولها الحشرات، وتموج بعضها في بعض. ومن الطبيعي أن تكون هذه الحشرات متنوعة، ومن هنا لم يستطع المفسرون واللغويون تحديد الفراش فشبهوه بالجراد تارة، واكتفوا بالقول بأنه لا ذباب ولا بعوض كما مر بنا.

---

(١) القارعة ١٠٢: ١-٥.

(٢) تنوير المقباس: ٣٩٥، وانظر أيضاً رأى الفراء في لسان العرب ٨: ٢٢١، جامع البيان ٣٠: ٢٨١

(٣) مجاز القرآن ٢: ٣٩، وانظر أيضاً جامع البيان ٣٠: ٢٨١.

(٤) عن لسان العرب ٨: ٢٢١، وانظر أيضاً مقاييس اللغة ٤: ٤٨٧.

هذه الصورة التي اعتادها العرب انعكست في أشعارهم، فإذا أرادوا هجاء قوم شبهوهم بالفراش؛ لأنهم لا حلوم لهم، كما أن الفراش طائش يموج بعضه فوق بعض حتى يهووا جميعاً في النار، فتحرقهم. أنشد الليث:

أودى بحلمهم الفِياش فحلمهُم حلم الفـرَاشِ غَشَين نـارَ المصـطلي[1]

والفياش المفاخرة[2]، أي أن المفاخرة قد شغلت تفكيرهم، فأودت بعقولهم فتهاووا كما يتهاوى الفراش على نيران المصطلي.

وإذا أرادوا أن يبينوا ضعف قوم في هجائهم شبهوهم بالفراش، وأنهم في الحروب لا يصمدون، وإنما يتساقطون بعضهم فوق بعض كالفراش الذي يهوي في النار، فتحرقه، قال الأسلع بن سالم الضبي[3] يصف قومه وحربهم مع بني ذهل بن مالك:

كـأنّ سراةَ الحـي ذهـل بـن مالـكٍ

فـراشٌ تهـاوى في لظـى النـارِ مـن علِ[4]

(١) عن لسان العرب ٨: ٢٢١.

(٢) مقاييس اللغة ٤: ٤٦٤.

(٣) هو الأسلع بن سالم الضبي أخو بني حرثان بن ثعلبة بن ذؤيب شاعر فارس، لم أعثر على ترجمة كاملة له أنظر المؤتلف والمختلف: ٥٤.

(٤) نفسه.

وقالوا في المثل: (أطيشُ مِنْ فَراشة)[1].

ومن هنا نفهم وجه الشبه في الآية الكريمة: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾[2].

إنَّ الناس حين يفزعون ويضطربون يموج بعضهم فوق بعض، وهذا الاضطراب لا يمثل الحركة فحسب، إنما يصور الاضطراب والتدافع الذي يؤدي إلى التهلكة كما يؤدي تدافع الفراش الى النار والهلاك. ثم أن الفراش من الناحية الأخرى حشرات حقيرة تهلك نفسها بتهافتها على النار، فشبه بها حال الناس في تفرقهم وذلتهم إلى جانب اضطرابهم، وتدافعهم. قال الزمخشري موضحاً هذا التشبيه: (شبههم بالفراش في الكثرة، والانتشار، والذلة، والتطاير إلى الداعي من كل جانب. كما يتطاير الفراش على النار قال جرير:

إن الفرزدق ما علمت وقومه ... مثل الفراش غشين نار المصطلي[3]

هذه هي صورة الناس في تفرقهم وانتشارهم يوم القيامة، وسياق الآيات العام يعيننا في فهم التفرق والذلة المراد بيانهما في هذا التشبيه، فما دامت قبور الناس متفرقة في أرجاء العالم المتباعدة، فإن الناس يخرجون من هذه القبور ويسرعون نحو الداعي وبهذا تكتمل صورة الانتشار والتفرق[4]. أما الذلة والفزع فيوضحهما سياق الآيات العام:

---

(١) الصناعتين: ٢٤٣، المستقصى ١: ٢٣٠.

(٢) سورة القارعة ١٠١: ٤-٥.

(٣) الكشاف ٣: ٣٥٥، ورواية البيت في الديوان (أزرى بحلمكم الفياش فأنتم...) أنظر ديوان جرير: ٣٥٩، وهي تشبه رواية البيت الذي أنشده الليث.

(٤) وانظر هذا المعنى في قوله تعالى: (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) سورة الروم ٣٠: ١٤

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾[1] فالقارعة اسم من أسماء يوم القيامة[2]، وهي (داهية مهلكة ويقال قرعت عظمة أي صدعته) كما يقول أبو عبيدة[3] فكأنَّ هذه الداهية لهولها تصدع كل ما في الكون وتفتته، وتكرار لفظ القارعة بهذا الايحاء المبهم يقرع الأذن بمعاني الفزع والرهبة. وتؤكد الآيات بعدها هذا المعنى، بأن القارعة تكون يوم القيامة حيث يتصدع الناس ويتفرقون كأنهم فراش منتشر، فيصيب الصدع الجبال، فتتفتت وتتناثر أجزاؤها، وتكون كالصوف المنفوش... وهكذا تتداعى الآيات الكريمة لترسم الصورة الواضحة ليوم القيامة، وكيف أن الكون كله يشمله الفزع والرعب، ثم تأتي صورة تفرق الناس، وانتشارهم كالجراد أو الفراش لتكمل صورة الاضطراب الشامل.

٢- صفاتهم النفسية:

أ- يأسهم:

قال الله سبحانه وتعالى مبيناً أنّ قيام الساعة وما فيها من الهول والرعب يترك المجرمين في يأس مرير: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٢ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝١٣ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾[4].

---

(١) سورة القارعة ١٠١ : ١-٥.

(٢) جامع البيان ٣٠: ٢٨١.

(٣) مجاز القرآن ١: ٣٣٢، وانظر أيضاً الكشاف ٣: ٣٥٥، التبيان ١٠: ٣٩٩.

(٤) سورة الروم ٣٠: ١٢-١٤.

فسر ابن عباس ابلاس المجرمين بأنه يأسهم[1]. وقال الفراء: (المبلس المنقطع رجاؤه ولذلك قيل للذي يسكت عند انقطاع حجته، ولا يكون عنده جواب قد أبلس. وقد قال الراجز:

يا صاح هل تعرف رسماً مكرساً قـــال: نعـــم أعرفـــه وأبلســـا[2]

وأضاف الزمخشري إلى معنى اليأس السكوت والحيرة قال: (الإبلاس أي يبقى يائساً متحيراً، يقال ناظرته فأبلس، إذا لم ينبس، وييئس من أن يحتج، ومنه الناقة المبلاس التي لا ترغو وقرئ يبلسَ، بفتح اللام أبلَسهُ إذا أسكته)[3].

ويلاحظ في هذه التفاسير أنها أعطت معنى مشتركاً للكلمة وهو اليأس والحيرة والوجوم. وهكذا ورد معنى الكلمة في كتب اللغويين قال الجوهري:

(أبلس من رحمة الله، أي يئس، ومنه سمي أبليس وكان اسمه عزرائيل)[4]. وهو معنى جعله ابن فارس الأصل لمعاني الكلمة قال: هو (أصل واحد وما بعده. فلا معوّل

---

(١) تنوير المقباس: ٢٥١، اللغات في القرآن: ٣٨، التنبيه والرد: ٧٤.

(٢) معاني القرآن ١: ٣٣٥، والبيت لم ينسبه الفراء إلى قائله وهو للعجّاج كما في مجاز القرآن ٢: ١٢٠، جامع البيان ٢١: ٢٦، مكرس: فيه الكرس أي أبوال الابل، وأبعارها يتلبد بعضها على بعض في الدار، وكذلك فسر الإبلاس في سورة الأنعام ٦: ٤٤، والمؤمنون ٢٣: ٧٧، والزخرف ٤٣: ٤٩، أنظر تنوير المقباس: ٨٧: ٢١٥، ٣٠٧، جامع البيان ٧: ١٩٤، ١٨، ٤٦، ٢٥: ٩٨/ ٢١، ٥٤، الكشاف: ٢، ٥٠٥: ٢، ٣٦٧: ٣: ١٠٣

(٣) الكشاف ٣: ٥٠٤.

(٤) الصحاح ١: ٩٠٦، لسان العرب ٧: ٣٢٨.

عليه، فالأصل اليأس يقال: أبلس إذا يأس قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ قالوا ومن ذلك اشتق اسم إبليس كأنه أيس من رحمة الله)[١].

وهناك معنى آخر للكلمة وهو أن يقال أبليس الرجل إذا سكت[٢]. فكأن الكافرين حين يرون العذاب الذين ينتظرهم يوم القيامة يسكتون، ويتحيرون، وقد انقطعت حجتهم، لأنهم سبق أن أنذروا في الحياة الدنيا، ومن هنا نفهم تطور معنى إبليس اذا يئس إلى معنى أبليس اذا سكت.

قال أبو عبيدة: (والمُبْلِسُ: اليائس، ولذلك قيل للذي يسكت عند انقطاع حجته ولا يكون عنده جوابٌ قد أبلَس)[٣].

وإذا عدنا إلى البيئة العربية وجدنا صدى الاستعمال الحسي للكلمة مقترناً بالناقة حيوان الصحراء المعتاد، وذلك أن يعرض لها عارض فتتألم، ولا تستطيع أن ترغو[٤]. وهي في هذه الحالة في يأس وحيرة مما ألمّ بها وهو المعنى الذي تطورت اليه الكلمة للدلالة على اليأس المطلق، ثم أنها لشدة ألمها لا تستطيع أن ترغو، وهو المعنى الذي تطورت إليه الكلمة حين قالوا أبلس الرجل إذا سكت، لأن رغاء الناقة يقابل كلام المرء، فانقطاعها عنه يقابل الانقطاع عن الكلام.

---

(١) مقاييس اللغة ١: ٢٩٩، ٣٠٠، وانظر أيضاً المفردات: ٥٩.

(٢) النوادر ١: ١٧٢، جمهرة اللغة ١: ٢٨٨، أساس البلاغة ٦١.

(٣) عن لسان العرب ٧: ٣٢٨ والنص غير موجود في مجاز القرآن.

(٤) الصحاح ٢: ٩٠٦، مقاييس اللغة ٢: ٣٠٠.

كل هذه المعاني نستطيع أن نفهمها في الآية الكريمة: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ (١)، ذلك لأن المجرمين يوم القيامة حين يرون العذاب متمثلاً بظاهرة الاضطراب الكوني ييأسون من العفو والرحمة، لأنهم ارتكبوا في دنياهم ذنوباً عظاماً لم يرعووا فيها إلى رسالة الرسل والأنبياء. وهم في هذه الحيرة لا يستطيعون الكلام والدفاع عن أنفسهم، فتنقلنا صورتهم هذه الى مشهد الناقة المتألمة اليائسة. وهو مشهد طالما تكرر أمام ناظري العربي، فاعتاده وعرف الأذى النفسي الذي تصاب به الناقة، فسرعان ما ترتسم هذه الصورة في ذهنه حين يقرأ الآية الكريمة حيث يبلس المجرمون، وتجتمع كل هذه الدلالات لترسم لنا الصورة الكاملة لإبلاس المجرمين ويأسهم.

وهناك معنى آخر ورد في شعر العجاج واصفاً وجوه القوم عند اشتداد الحرب، إذ تعلوها صفرة وحيرة ويأس.

وجُمِّعَت يومَ الخَميسِ الأخماسْ   وفي الوجوهِ صفرةٌ وإبلاسٌ (٢)

فصورة الحيرة، والصفرة التي تعلو الوجوه في الحروب، تزيد من إيحاء الكلمة في الآية الكريمة، ودلالتها على الضعف واليأس والوجوم، وهي تعطينا صورة أخرى لدلالة الكلمة على البيئة العربية حين تصفر أوجه القوم عند الغارات الشديدة، والحروب المتطاحنة، ومع ذلك تبقى صورة الناقة المُبْلِسة متمثلة في الذهن على أنها الصورة الحسية الوثيقة الصلة بالبيئة العربية، فتساعدنا على فهم التعبير القرآني إلى جانب المعاني الأخرى المتطورة عنها.

---

(١) سورة الروم ٣٠: ١٢.

(٢) جمهرة اللغة ١: ٢٨٨، انظر أيضاً لسان العرب ٧: ٣٢٨.

وهناك تعبير آخر يصور حيرة الناس ويأسهم يوم القيامة: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ (١) وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ (٣) بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ (٤) بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ (٥) يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ (٩) يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾[1].

في هذه الآيات الكريمة نجد حيرة الانسان يوم القيامة متجلية بما يطرأ على بصره من معالم الحيرة والهلع. وقد قالوا في معنى برق البصر أي شخص وتحيَّر فزعاً[2]، وذلك لأن أصل البرق هو اللمعان والتلألأ[3]، فكأنَّ الانسان حين يشهد الظواهر المرعبة التي تسود الكون ويرى الفزع محيطاً به تشخص عيناه وتتلألأ، وتأخذه الحيرة فلا يطرف بصره. وهو معنى أكدهُ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾[4]، وقال أيضاً: ﴿ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾[5]، لأن شخوص الأبصار أن تبقى العين مفتوحة لا تطرف[6].

(١) سورة القيامة ٧٥: ١-١٠.
(٢) تنوير المقباس: ٣٧٤، جامع البيان ٢٩: ١٧٨، درة التنزيل: ٣٨١، التبيان ١٠: ١٩٢
(٣) جمهرة اللغة ١: ٢٦٩، الصحاح ٤: ٤٤٦، المخصص ١: ١٠٧، أساس البلاغة: ٤٣٠، لسان العرب ١: ٢٩٧.
(٤) سورة ابراهيم ١٤: ٤٢.
(٥) سورة الأنبياء ٢١: ٩٧.
(٦) جامع البيان ١٣: ١٢٣٦، التبيان ٦: ٣٠٣.

ب – توقعهم العذاب:

ومع يأس الناس من الرحمة والعفو نجد وصفاً للفزع الذي يملأ قلوبهم والشعور القوي الذي يجتاح نفوسهم بأن مصيبة عظيمة ستحل بهم، ولكنهم يجهلونها قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾[١].

فقد وصفت وجوه الكافرين بأنها باسرة. وقال المفسرون في شرحها بأن معناها أنها تكون ليأسها وضعفها كالحة كريهة المنظر[٢] عابسة مقطبة[٣]، ذلك لأنها تتوقع حلول داهية عظيمة لا تحتملها نفوسهم، ويأتي التعبير الذي صورت فيه الداهية ليزيد ملامح الكافرين وضوحاً، لأن عبوس الوجوه وتقطيبه، لا بد أن يكون ليأس عظيم وخوف مرعب من الداهية.

فالفاقرة التي يتوقعها المجرمون هي: (شدة ومنكرة من العذاب) كما يقول ابن عباس[٤] وهي الداهية كما فسرها معظم المفسرين، ولكنهم اختلفوا في أصل استعمالها هل أنها مشتقة من فقار الظهر كأن تكون المصيبة التي تحل بهم عظيمة تكسر ظهورهم؟ أم أنها من الفقر الذي هو الحز يوسم به أنف البعير ليذل؟.

---

(١) سورة القيامة ٧٥: ٢٠-٢٥

(٢) تنوير المقباس: ٣٧٥، مجاز القرآن ٢: ٢٧٥، غريب القرآن: ٥١، جامع البيان ٢٩: ١٩٣، وانظر أيضاً جمهرة اللغة ١: ٢٥٥، الصحاح ٢٩: ٥٨٩، لسان العرب: ١٢٣.

(٣) غريب القرآن: ٥٠٠، جامع البيان ٣: ٢٩٤.

(٤) تنوير المقباس: ٣٧٥.

أما الفريق الأول، فقد قالوا في تفسير الآية بأن الفاقرة هي الداهية من فقار الظهر كأنها تكسره[1]. ويلاحظ في هذا التفسير أنه وثيق الصلة بالبيئة العربية، ذلك لأنه من المعاني الحسية التي اهتم بها العربي، وأولاها عنايته. فقد اهتم العربي بالحيوانات الأليفة التي شاركته بيئته متأملاً صفاتها الجسدية، مسمياً كل عضو منها. ونجد في الشعر الجاهلي صدى عميقاً لهذا الاهتمام إذ وصف الشاعر ناقته، وتطرق إلى ذكر فِقار ظهرها، والتحامها قال زهير بن أبي سلمى:

بــــآرزةِ الفِقــــارةِ لم تخنهـــا   قِطـــافٌ في الرِكـــابِ ولا خِـــلاءُ[2]

الآزرة: الدانية بعضها من بعض، والقطاف: مقاربة الخطور، والخلاء أن تبرك فلا تبرح، يريد أنها مجتمعة الفقار ملتئمتها، ولا ينقص خلقها شيء من العيوب كمقاربة الخطو أو البروك وعدم مبارحة الأرض. وقال الأعشى واصفاً ناقته، وكيف أن فقارها متلاحمة باللحم:

ودأيـــاً تَلاحكَـــن مِثـــلَ الفـــؤوس   لاحـــمَ منهـــا الســـليلُ الفِقـــارا[3]

ومن الطريف ما يروى في هذا الباب أن اعرابياً قدم على عتبة بن أبي سفيان[4] مشتكياً ظلامته، وأن عتبة قال له: (إني أراك اعرابياً خايبا، فوالله ما أحسبك تدري كم

(١) تفسير غريب القرآن: ٥٠٠، أدب الكاتب: ٥٦، جمهرة اللغة ٢: ٣٩٩، غريب القرآن: ١٨٦، الصحاح ٢: ٧٨٢، التبيان ١٠: ١٩٩، المفردات: ٣٩١، الكشاف ٣: ٢٩٤.

(٢) شرح ديوان زهير ٦٣.

(٣) ديوان الأعشى: ٤٧.

(٤) هو عتبة بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية أمير مصر وليها من قبل أخيه معاوية، فقدمها سنة ٤٣ هـ حج بالناس سنة ٤١، ٤٢ هـ أنظر نسب قريش: ١٢٥، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٦٤.

تصلي في كل يوم وليلة؟ فقال: أرأيت أن أنبأتك ذلك أن تجعل لي عليك مسألة؟ قال: نعم. فقال الأعرابي:

إن الصلاةَ أربعٌ فأربع ثم ثلاثٌ بعدهنَّ أربعْ

ثم صلاة الفجر لا تُضيَّعْ

فقال: صدقت، فأسأل فقال: كم فقارك: فقال: لا أدري فقال: أفتحكم بين الناس، وأنت تجهل هذا من نفسك؟ فقال ردوا عليه غنيمته)[1] ولهذا الخبر دلالة على الأمور التي كان الأعرابي يوليها اهتمامه، حتى أنه يعجب من جهل عتبة عدد فقار ظهره مع أنه يحكم بين الناس. وكأن عدد فقار الظهر من أولى مستلزمات الرجل الحكيم! لأن من يجهل نفسه يكون أولى بجهل أمور الناس وشؤونهم. وقال ابن الأعرابي في تحديد فقر الانسان والبعير (أقل فقر البعير ثمان عشرة، وأكثرها إحدى وعشرون إلى ثلاث وعشرين، وفقار الانسان سبع)[2].

ومن هذا المعنى المادي قالوا عن الرجل فِقرٌ إذا كسرت فقراته وعبر بهذا التعبير عن الضعف. قال طرفة:

وإذا تلسُنني ألسنُها إنني لستُ بموهون فقرْ[3]

---

(١) الكامل للمبرد ١: ٣١٠-٣١١.

(٢) عن لسان العرب ٦: ٣٦٨. علماً بأنه أصبح من الثابت في الوقت الحاضر أن عدد فقار الانسان ثلاث وثلاثون.

(٣) ديوان طرفة: ٧٤

وقال ثعلب معلقاً على البيت: (فَقِر: مكسور الفِقار)[1]. فقد استعملت كلمة الفقر للدلالة على الضعف والكسل؛ لأن من ضعفت فقرات ظهره، ضعفت قوته وطاقاته الجسدية.

ومن هنا جاء الاستعمال المجازي لمعنى الفقر وهو الحاجة والذلة أو ما يضاد الغنى فكما أن المكسور الظهر ضعيف لا يقوى على السير والعمل وحده، ومحتاج إلى المساعدة فكذلك سمي كل محتاج إلى غيره بالفقير[2] وقد وردت بهذا المعنى في اثنتي عشر آية[3].

فقوله سبحانه وتعالى في صفة حال المجرمين يوم القيامة: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾[4] يرسم لنا صورة حسية من البيئة العربية، فالمجرمون ييأسون من الرحمة، والعفو ويوقنون بداهية تقصم ظهورهم، وتكسر فِقارهم، ويكون شأنهم في ذلك شأن البعير الضعيف الذي كسرت فقاره، فيذل، وهي صورة طالما شهدها العربي في بيئته وتحسس الأذى، والذل الذي يرتسم على البعير المكسور. ويعيننا على تصور هذا المعنى اطلاقهم الفاقرة، والقاصمة على الداهية[5] كأنها لشدة هولها وأذاها تقصم الظهور وتضعفها.

---

(١) مجالس ثعلب ١: ٣٢٠، شجرة الدر ١٦٤، الصحاح ٢: ٧٨٣، المفردات ٣٩١.

(٢) الكامل للمبرد ١: ٣٤٦.

(٣) المعجم المفهرس: ٢٤٢، ٢٥٢.

(٤) سورة القيامة ٧٥: ٢٥.

(٥) أنظر شرح ديوان لبيد: ٢٢٠، ديوان كعب بن زهير: ٢٥٩، شرح القصائد السبع: ١٦٤، أمثال العرب: ٣١، الوحشيات ١٧٥، أمالي اليزيدي: ٢٨.

أما التفسير الثاني فقد ذهب بالفاقرة إلى فقر الأنف، ويمثل هذا الفريق قول أبي عبيدة: الفاقرة الداهية وهو الوسم الذي يفقر على الأنف[1]. وهذا التفسير هو الآخر يعكس لنا صورة واضحة الملامح للبيئة العربية حيث يعدّ البعير فيها عنصراً أساسياً من عناصر البداوة في الصحراء، تلك البيئة التي أعطت العربي خبرات تعينه في الاستفادة من هذا الحيوان، وجعله أكثر فائدة وانقياداً لنفس صاحبه. ومن هذه الخبر فقر أنف البعير ليذل، وينقاد بسهولة. ونجد عند القدماء اقوالاً عديدة ترسم صورة الفقرة الفائدة منه.

ففي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه (ثلاث من الفواقر أي الدواهي واحدتها فاقرة كأنها تحطم فقار الظهر كام يقال قاصمة الظهر، والفقار ما وقع عليه أنف البعير...)[2]. وفي حديث الامام علي عليه السلام قوله: (من أحبنا أهل البيت فليستعد للفقر جلباباً أو تجفافاً)[3] فالتجفاف ما يجلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح وقد يلبسه الانسان أيضاً. وقد فسر هذا القول بأنه من أحبنا فليعد لفقره يوم القيامة ما يجبره من الثواب، وقيل أن يعد نفسه لفقر الدنيا والزهد فيها[4].

أما الشريف المرتضى فإنه فسر الحديث تفسيراً آخر قريب الصلة بالبيئة العربية، وبموضوع فقر أنف البعير الذي نحن بصدده قال: (ويمكن أن يكون في الخبر وجه ثالث تشهد بصحته اللغة وهو أن أحد وجوه معنى لفظة الفقر آن يحز أنف البعير حتى يخلص الى العظم أو قريباً منه، ثم يلوى عليه حبل يذلل بذلك الصعب يقال: فقَره يفقُره فَقراً إذا فعل

---

(١) مجاز القرآن ٢: ٢٧٨، أدب الكاتب: ٢٥٦، مجالس ثعلب ١: ٢٦٨ جامع البيان ٢٩: ١٩٤.
(٢) لسان العرب ٦: ٣٧١.
(٣) أمالي المرتضى ١: ١٨.
(٤) نفسه

ذلك به، وبعير مفقور وبه فقرة، وكل شيء حززته وأثَّرت فيه، فقد فَقَّرته تفقيراً، ومنه سميت الفاقرة وقيل سيف مفقَّر فيحمل القول على أنه عليه السلام أراد من أحبنا فليلزم نفسه، وليخطمها وليقدها إلى الطاعات، وليصرفها عما تميل اليه من الشهوات وليذللها على الصبر عما كره منها. ومشقة ما أريد منها كما يفعل بالبعير الصعب)[١]. فالشريف المرتضى حين يرجح هذا المعنى الحسي إنما يستند على شواهد اللغة وكلام العرب[٢].

أما اللغويون فقد وضحوا لنا صورة فقر أنف البعير، ورسموا معالمها وغاياتها روى أبو مسحل[٣] عن أبي عبد الرحمن بن سهل[٤] قوله: (ويقال قَرَمتُ البعيرَ أقرُمهُ وهو أن تحِزّ جلدة أنفه إذا كان نشيطاً مرحاً ليذل حتى يكون كهيئة العلم في أنفه، وهو القَرْم أي الحزّ في الأنف والفقر مثله)[٥]. وعن أبي عبيد قوله: (الفَقْر أن يُحَزَّ أنف البعير حتى يخلص إلى العظم أو قريب منه، ثم يُلوى عليه جرير يذلل بذلك الصعب ومنه عملت الفاقرة)[٦].

ورسم إبن الأعرابي لنا صورة فقر أنف البعير، وكيف أن الرجل يتحكم بمرح بعيره ونشاطه إذا أرداه متمهلاً، ويذله إذا كان صعباً قال: (وقد يفقر الصعب من الإبل ثلاثة أفقر

---

(١) أمالي المرتضى ١: ١٨.

(٢) نفسه.

(٣) هو عبد الوهاب بن حريش، أبو مسحل الهمذاني النحوي، كان من أهل العلم بالقرآن ، ووجوه إعرابه، عارفاً بالعربية، روى عنه محمد بن يحيى الكسائي كان أعرابياً قدم بغداد وافداً على الحسن بن سهل. عاش في أواخر القرن الثاني الهجري، وأوائل الثالث. أنظر إنباه الرواه ٢: ٢١٨، تاريخ بغداد ١١: ٢٤.

(٤) هو أبو عبد الرحمن أحمد بن سهل صاحب أبي عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٢ هـ، أو سنة ٢٢٤ هـ.

(٥) النوادر: ٢: ٤٥٤

(٦) المخصص ٧: ١٥٨، وانظر أيضاً ١: ٣٣.

في خطمه فإذا أراد صاحبه أن يذله، ويمنعه من مرحه جعل الجرير على فقره الذي يلي مشفره، فملكه كيف شاء، وإن كان بين الصعب والذلول جعل الجرير على فقره الأوسط فتريَّد في مشيته وأتسع، فإذا أراد أن ينبسط ويذهب بلا مؤنة على صاحبه جعل الجرير على فقره الأعلى فذهب كيف شاء) وقال: (إذا حُزَّ أنفُ البعير حزا، فذلك الفَقْر وبعير مفقور)[1].

ومما مر بنا تتضح لنا صورة فقر أنف البعير وعلاقتها الحسية بالبيئة العربية، وما توحيه في نفس العربي من معاني الذلة والضعف فيكون معنى قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾[2]

أن المجرمين يوقنون بالداهية العظيمة التي ستحل عليهم وتذلهم وتضعفهم كما يذل البعير الصعب بفقر أنفه. ويُستند في هذا التفسير على دلالة الأنف في التعبير اللغوي على العزة، والآباء، والعظمة. وقد قال الجاحظ (الأنف هو النخوة وموضع التجبر)[3]. ومن هذا المعنى جاء قوله عز من قائل: ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾[4] أي سنسم أنفه سمة أهل النار[5]، فخص الأنف بالذكر لأنه موضع التجبر، والكبر. فالمجرمون يوم القيامة تحل عليهم داهية تذل

---

(١) عن لسان العرب ٦: ٣٧١، وانظر جمهرة اللغة ٢: ٣٩٨، الصحاح: ٧٨٢، المفردات ٣٩١.

(٢) سورة القيامة ٧٥: ٢٢ – ٢٥.

(٣) الحيوان ٣: ٣٠٥، وانظر الشعر في ديوان المزرد بن ضرار: ٦١، ديوان الحماسة: ٢٠، ديوان علقمة الفحل: ٤٨.

(٤) سورة القلم ٦٨: ١٤-١٦

(٥) انظر جامع البيان ٢٩: ٢٨، التبيان ١٠: ٧٨.

نفوسم وتحطم جبروتهم، وقد وصفت هذه الداهية بأنها تفقر الأنف وتذله، وينقلنا هذا التعبير إلى صورة البعير حين يفقر أنفه ويذل، كما ترسم لنا صورة الذلة المقترنة في الذهن العربي بالأنف الذي إذا ذل أو فقر أصاب الذل صاحبه. وتتعاون هذه الصورة مع صورة فِقار الظهر(1)، التي لها دلالتها الأخرى في الذهن العربي، وهي القوة والصلابة، فإن كُسرت الفقار صار صاحبها ضعيفاً محتاجاً إلى غيره، ثم أنها تجعلهم منقادين نحو الداعي ضعيفين لا سيطرة لهم على أنفسهم.

أنها صورة رهيبة لذل الناس يوم القيامة تتداعى فيها عدة ملامح من البيئة العربية تزيد من رسم هول الموقف، وتوضح لنا يأسهم وخوفهم مما يتوقعونه من العذاب والعقاب.

جـ - ذلتهم:

أهطاع رؤوسهم:

هناك عدة تعابير ترسم لنا ذلة الكافرين عند حشرهم من القبور، تلك الذلة التي تبدو على هيئة رؤوسهم، وأبصارهم الذليلة. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾(2).

---

(1) ويبدو أن فقار الظهر هي الأصل الحسي لمعاني الكلمة، وذلك لأن شكل الحز الذي يحز به الأنف يشبه إلى حد كبير فقرات الظهر، فكأن فقر الأنف أطلق لتشابه الصورة بينه وبين فقار الظهر الأصلية.

(2) سورة ابراهيم ١٤: ٤٢-٤٣.

وقال أيضاً ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾(١).

قال ابن عباس مفسراً اهطاع الكافرين نحو الداعي بأنهم (مسرعين قاصدين ناظرين إلى الداعي)(٢) وقال أبو عبيدة مهطعين مسرعين قال الشاعر:

بُمْهطِعٍ سُرجٍ كأنَّ زِمَامهُ ... في رأسِ جِذعٍ من أوال مُشّذبِ(٣)

وقال:

بمستَهطِعَ رسْل كأنَّ جديلَه ... بقيدومِ رعْنٍ من صؤامُ ممنَّعِ(٤)

وقال يزيد بن المفرغ(٥):

بدجلة دارهم ولقد أراهم ... بدجلة مهطعين إلى السّماع(٦)

---

(١) سورة القمر ٥٤: ٦-٨

(٢) تنوير المقباس ١٦٣: ٣٤٤، وانظر أيضاً اللغات في القرآن: ٥١.

(٣) لم ينسبه أبو عبيدة وأنشده ابن بري لأنيف بن جبلة مع اختلاف في الرواية انظر لسان العرب ١٢: ٤٢.

(٤) الرّسل: الذي لا يكلفك شيئاً، قيدوم: قدام، ورعن الجبل: أنفه، وصؤام: جبل، والبيت من شواهد الزمخشري في أساس البلاغة: ١٠٦٢، ولسان العرب ١٥: ٣٣٦، جامع البيان ١٣: ٢٣٨ـ مع اختلاف في الرواية، وعدم نسبه البيت.

(٥)هو يزيد بن مفرغ الحميري، شاعر اموي هجاء وهو جد السيد الحميري الشاعر المعروف، لقبه جده بالمفرّغ لأنه راهن أن يشرب عسّا من لبن، فشربه حتى فرغه. هجا عبيد الله بن زياد سنة ٥٩ هـ، فحمل على حمار وطيف به في الأسواق.

(٦)أنظر أيضاً جامع البيان ١٣: ٢٣٨، مجاز القرآن ١: ٣٤٢ـ التبيان ٩: ٤٤٦.

ونقل الطبري عن ابن عباس تفسيراً آخر وهو قوله (الاهطاع: النظر من غير أن أن يطرف)[1]. ومن اللغويين الذين ذهبوا هذا المذهب الخليل بن أحمد[2]، وآخرين ممن نقل عنهم ابن منظور[3].

ومما مر بنا نجد أن المفسرين ذهبوا في تفسير الإهطاع إلى ثلاثة مذاهب وهي وإن تقاربت بعضها من بعض إلاّ أن محاولة تتبع معانيها تعطينا تفسيراً جامعاً لكل التفاسير السابقة، كما تدلنا على صورة أخرى من صور البيئة العربية، فالبعير المهطع هو الذي في عنقه تصويب خِلْقة[4]. ومن هذه الخلقة التي قد يوجد عليها البعير بطبيعته جاء إطلاعهم الكلمة على البعير يصِّوب عنقه، وينقاد لصاحبه في حالة كونه سالم الخلقة، وليس فيه أي تصويب. قال ابن فارس (أَهْطَعَ البَعيرُ صَوّب عُنَقَهُ مُنقاداً)[5]، و أهطع اذا مدَّ عنقَهُ وصوّب رأسَهُ[6].

وواضحٌ أن هذا الاستعمال الجديد للكلمة تطور عن الصورة الحسية الأولى، صورة البعير الذي يوجد في عنقه تصويب ومَيل خلقة، فإذا انقاد البعير لصحابه ذلّ، وظهرت ذلته في استكانته، وميل عنقه. ومن هنا نفهم المعنى الآخر للكلمة، وهو إطلاقهم المُهطْع

(١) جامع البيان ١٣: ٢٣٧.

(٢) العين: ٣٨.

(٣) لسان العرب ١٠: ٢٥٨.

(٤)جهرة اللغة ٣: ١٠٧، الصحاح ٣: ١٣٠٧، المحكم ١: ٦٢، أساس البلاغة ١٠٦٢، لسان العرب ١٠: ٢٥١.

(٥) مقاييس اللغة ٦: ٥٦

(٦) الصحاح ٣: ١٣٠٧، لسان العرب ١٠: ٢٥١.

على الذليل الذي لا يرفع رأسه في ذل وخشوع كما يقول ثعلب[1]. ونقل ابن منظور عنه أيضاً: (وأهْطَع: أقْبَلَ مُسرعاً خائفاً، لا يكونُ إلا مع خوفٍ، وقيل بخضوعٍ)[2]، قال الشاعر:

تَعبدني نَمرُ بن سعدٍ وقد أرى ونمرُ بنُ سعدٍ لي مُطيعُ ومُهْطِعُ[3]

وقد فسر الخليل البيت بأنه كان ذليلاً لي فصار فوقي[4].

ومن هذا المعنى نفهم تفسيراً آخر للآية الكريمة: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾[5]. أي منقادين له ذليلين، خائفين وقد أيقنوا بما سيلاقونه من العقاب وهو معنى وضحّه لنا تعبير الفاقرة.

أما السرعة فإنها معنى آخر تطور عن المعنى الحسي نفسه، وذلك أن البعير إذا انقاد إلى صاحبه ذلَّ، واستكانَ، كما مر بنا، وهو حين يسرع ترتسم في الذهن صورة الإهطاع الأولى، لأن المسرع لابدّ أن يدفع عنقه ويمده إلى الامام؛ لكي يوازن بين جسمه والقوة الدافعة إلى الأمام، ومن هنا قيل: أهطَعَ البعير في سيره، واستهطع اذا أسرع، وناقة هطعى: سريعة، كما يقول الخليل[6].

(١) مجالس ثعلب ١: ٢٠.
(٢) عن لسان العرب ١٠: ٢٥١، وانظر أيضاً جمهرة اللغة ٣: ١٧.
(٣) الصحاح ٣: ١٣٠٧، أساس البلاغة: ١٠٦٢، لسان العرب ١٠: ٢٥١، والبيت غير منسوب.
(٤) العين: ٣٧.
(٥) سورة القمر ٥٤: ٨.
(٦) عن لسان العرب ١٠: ٢٥١

ثم أطلق الإهطاع على السرعة مطلقة دون تقييدها البعير أو الانسان[1] بهذا يمكننا أن نفهم تفسير من قال أن الإهطاع هو إسراع الناس نحو الداعي[2]. أما تفسير من قال إنّ معنى الإهطاع هو النظر من غير أن يطرف[3]، فنجده واضحاً أيضاً في الصورة الحسية لإهطاع البعير أو الإنسان حين يندفع بسرعة إلى الأمام، فإن القوة الدافعة لا تتيح له مجالاً لأن يلتفت يميناً أو شمالاً، وإنما يبقى في سرعته متجهاً بنظره إلى الأمام. ومن هذه الحقيقة تطور المعنى الأخير للكلمة وهو قولهم: المهطع المقبل ببصره على الشيء لا يرفعه عنه[4].

ومما مر بنا نفهم أن اختلاف المفسرين في توجيه الآية الكريمة ليس فيه تناقض أو تنافر، وإنما نظرت كل طائفة إلى الآية الكريمة من وجهة واحدة، فجاء تفسيرها صورة لتلك الوجهة فاذا بالآية الكريمة صورة متعددة الجوانب، متحركة الملامح، يلمح كل مفسر جانباً منها، فيرسمه لنا إلا أن الجمع بينها يعطينا صورة كاملة لإهطاع الكافرين وذلتهم، فالناس حين يبعثون يوم القيامة على صوت النفير المفزع ينقادون مسرعين ملبين الداعي، وقد ذلك نفوسهم حين أيقنت بما ستلاقيه من العقاب والعذاب. وتظهر ذلتهم في إهطاع رؤوسهم التي تنقل لنا صورة البعير يميل برأسه ويصوّبه حين يذل وينقاد لصاحبه، أو صورته حين يفزع ويسرع في سيره مُصّوباً عنقه إلى الأمام، ثم أنهم في ذلتهم، وذهولهم

---

(١) عن الخليل: المخصص ٣: ١٠٧، وانظر أيضاً الصحاح ٣: ١٣٠٧، مقاييس ٦: ٥٦، المحكم ١: ٦٢، لسان العرب ١: ٢٥١.

(٢) انظر الفصل الثالث – ج – ذلتهم

(٣) نفسه.

(٤) العين ٣٨، وانظر أيضاً الصحاح ٣: ١٣٠٧، لسان العرب ١٠: ٢٥١.

لا تطرف أبصارهم وهو معنى أكده قوله تعالى في آية سبقت وصف إهطاع رؤوس الكافرين: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾[1].

إقناعها:

أما اقناع رؤوسهم فقد ورد قوله جل من قائل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾[2].

وقد ذكر المفسرون ثلاث توجيهات للإقناع. الأول: انهم منكسو رؤوسهم، والثاني أنهم رافعو رؤوسهم، والثالث مادو رؤوسهم. وقد ذكر ابن عباس هذه التوجيهات الثلاثة في تفسيره[3]. أما التفسير الثاني فقد ذكره أبو عبيدة في مجازه حيث قال: (مقنعي رؤوسهم: مجازه رافعي رؤوسهم قال الشمّاخ:

يُباكِرْنَ العِضاة بمُقْنِعاتٍ   نواجِذُهنَّ كالحِدَأ الوقيعِ

أي برؤوس مرفوعات إلى العضاه ليتناولن منه)[4]. ولم يكتف قتادة بتفسير أبي عبيدة، انما وجد فيه صورة أكثر من رفع الرأس، وهي الذهول والرغب الذي يجعلهم رافي الرؤوس، وقد شخصت أبصارهم قال: (المُقْنِعُ الذي يرفعُ رأسَهُ شاخِصاً بصَره لا يَطْرِفُ)[5].

---

(١) سورة ابراهيم ١٤: ٤٢.

(٢) سورة ابراهيم ١٤: ٤٢-٤٣.

(٣) تنوير المقباس: ١٦٣، وانظر أيضاً اللغات في القرآن: ٣٢.

(٤) مجاز القرآن ١: ٣٤٣، وانظر أيضاً جامع البيان ١٣: ٢٣٨، التبيان ٦: ٣٠٣، والبيت في ديوان الشماخ: ٥٦.

(٥) جامع البيان ١٣: ٢٣٩.

وفي دلالات الكلمة المختلفة نجد معاني عديدة تكشف لنا صورة التعبير القرآني من جهة، والبيئة العربية من جهة أخرى. ومن هذه المعاني المادية معنى ارتبط بالإبل وذلك قولهم: إن الاقناع رفع الإبل رأسها، ويكون ذلك خلقة فيها[1]. هذه الخلقة إن وجدت في بعير ما فانها لا تتيح له التحرك برأسه يميناً ولا شمالاً، ويبدو أن هذا المعنى من أوائل معاني الكلمة، وقد يكون أصلا لها.

ومن هذا الرفع الطبيعي أطلقوا كلمة المقنع على الذي يرفع رأسه شاخصاً ببصره. وذلك تشبيها بالصورة المادية التي رآها العربي في بيئته فعممها على من رفع رأسه وشخص ببصره روى الجوهري قولهم: (اقنع رأسه اذا رفعه، ومنه قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ وكذلك قول رؤبة[2].

أَشْرَفَ رَوْقاهُ صَلِيفاً مُقْنِعا[3]

ومن هذا الاستعمال المادي فهم المفسرون الآية الكريمة: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾[4] بأن الناس يوم القيامة حين يهبون على صيحة النفير يرفعون رؤوسهم لشدة ذهولهم وفزعهم فيكون حالهم حال البعير الذي في خلقة رأسه ارتفاع، فلا يستطيعون خفض رؤوسهم، وتبقى أبصارهم شاخصة لهول المرقف.

---

(١) لسان العرب ١٠: ١٧٣.

(٢) هو رؤبة بن عبد الله بن رؤبة التميمي، راجز من الفصحاء المشهورين من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. كان أكثر مقامه في البصرة، وأخذ عنه أعيان أهل اللغة. توفي نحو ١٤٥ هـ. انظر المؤتلف والمختلف: ١٧٥، لسان الميزان ٢: ٤٦٤، خزانة الأدب ١: ٤٣.

(٣) الصحاح ٣: ١٢٧٤.

(٤) سورة ابراهيم ١٤: ٤٣.

أما تفسير الآية بأن الناس يكونون مادي أعناقهم، فانه معنى متأتٍ من استعمال مادي آخر، وذلك قولهم أقنع البعير رأسه إلى الحوض للشرب وهو مدّه: رأسه كما يقول الأصمعي(١). ومن هنا قيل للذي يقبل على الشيء مقنع(٢)، فكما أن الإبل حين تقبل على الماء لتشرب منه، تمد رأسها اليه لا يصرفها عنه شيء، فكذلك الذي يقبل على الشيء يمد رأسه تجاهه، ولا يصرفه إلى تجاه آخر، وهو الأصل الأولي الذي وضعه ابن فارس للكلمة(٣). هذا المعنى يفيدنا في فهم الآية الكريمة، لأن الكافرين يمدون رؤوسهم ويقبلون نحو الداعي لا يرتد اليهم طرفهم.

ومن مجموع معاني الكلمة نجد أن كل التفاسير السابقة قد استندت على استعمال مادي له دلالته على البيئة العربية. فاذا جمعنا هذه التفاسير تداعت في الذهن مشاهد عديدة من البيئة العربية، كل مشهد منها يعطينا جانباً من صورة الكافرين الذليلة يوم القيامة عند سماعهم صوت النفير، فيفزعون ويرفعون رؤوسهم، وتشخص أبصارهم مثلهم في ذلك مثل البعير الذي في رأسه ارتفاع خلقة فلا يستطيع إمالته، أو تحريكه، ويقبلون نحو الداعي كما تقبل الإبل نحو الماء، فلا يصرفها عنه شيء، ثم تأتي الآية بعدها: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾(٤)لتبين لنا أن رفع الرؤوس والإقبال نحو الداعي ليس بالسير الطبيعي، إنما هو إقبال يدفعه الفزع والهلع الذي لا مفر منه، لذا لا تطرف أبصارهم، ولا يميلون رؤوسهم، ولا يرجعون عن سيرهم الذليل نحو الداعي.

---

(١) عن لسان العرب ١٠: ١٧٣، وانظر أيضاً الصحاح ٣: ١٢٨٤، مقاييس اللغة ٥: ٢.

(٢) لسان العرب ١٠: ١٧٣.

(٣) مقايس اللغة ٥: ٣٢.

(٤) سورة ابراهيم ١٤: ٤٣.

وكما بدت ذلة الكافرين في سيرهم، فانها تجلت في طريقة كلامهم قال الله تعالى واصفاً أصواتهم بالخشوع: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾[1].

فسياق الآيات العام يوحي بالخشوع والرهبة أو يضفي على مشاهد يوم القيامة صورة يتجسد فيها الخوف والفزع.

وقد قال المفسرون في شرح معنى الخشوع بأنه ذلة الأصوات وخضوعها. قال ابن عباس: (وخُشِّعت الأصواتُ ذُلِّلَتْ الاصوات»[2] وقال الزمخشري: (سكنتْ الخلائقُ للرحمن فوصفت الأصوات بالخشوع والمعنى لأهلها)[3] فالزمخشري يرى أن وصف الخشوع إنما هو وصف للناس لا لأصواتهم، إلاّ أننا نجد هذا الاستعمال عند اللغويين مقترنا ايضاً بالأصوات والأبصار. روى الجوهري: (الخشوع، الخضوع يقال خَشَعَ واختَشَعَ، وخَشَعَ ببَصِرهِ أي غَضّه)[4].

فذلة الأصوات التي فسّرها المفسرون تفهم من قول اللغويين؛ لأن صورة من يغضّ بصره، ولا يرفعه إنما تعكس لنا صورة الذليل الذي لا يجرؤ على رأيه. ومجلبهة غيره.

(١) سورة طه ٢٠: ١٠٥ — ١٠٨.

(٢) تنوير المقباس ١٩٨، وانظر أيضاً جامع البيان ١٦: ٢١٤. التبيان ٧: ٢٠٩.

(٣) الكشاف ٢: ٣١٤.

(٤) الصحاح ٣: ١٢٠٤، وانظر أيضاً لسان العرب ٣: ٤٢٣، المخصص ١: ١٢١، أساس البلاغة ٢٣٢، لسان العرب ٣: ٤٢٣.

وقد ورد الخشوع مقترنا بالابصار في القرآن الكريم: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۞ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾[1]. وفسر الخشوع هنا بالذلة أيضاً[2]. فاذا عانا إلى المعاني الحسية التي دارت حولها الكلمة وجدنا فيها معنى حسياً تشترك فيه الأبصار، والأصوات، والنفوس، وذلك أنها أطلقت وصفا للأرض فقد قالوا: الخاشع المطمئن من الأرض[3]. وأكمةٌ خاشِعةٌ: ملتزقة لاطئة بالأرض، والخاشع من الأرض الذي تثيره الرياح لسهولته فتمحو آثاره[4]. فالأرض غير الممطورة تكون عديمة الفائدة يسهل السير عليها، كما يسهل محو آثارها. ومن هنا فهم معنى الذلة والخضوع الذي تطورت اليه الكلمة، وبهذا المعنى وردت في القرآن الكريم[5]. هذا المعنى المادي نجده واضحاً في المعنوي، لأن الذليل حين يغض نظره يكاد يلصق بصره على الأرض ولا يرفعه، ولأن الذليل حين يغض نظره يكاد يلصق بصره على الأرض ولا يرفعه، أما الاصوات فإنها وصفت بالخشوع تشبيهاً لها بالأرض المطمئنة المنخفضة الموصوفة بالخشوع.

ومن هنا نفهم قوله تعالى: ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾[6]. أي إن أصوات الناس ذلت، وسكنت لذلة أصحابها، وخوفهم مما ينظرهم من العذاب،

---

(١) سورة القمر ٥٤: ٦-٧.

(٢) تنوير المقباس: ٣٣٤ الكشاف ٣: ١٨٢.

(٣) جمهرة اللغة ٢، ٢٢٣.

(٤) الصحاح ١: ٣٠٧، اساس البلاغة: ٢٣٢، لسان العرب ٩: ٤٢٤ وقد وردت بهذا المعنى في سورة فصلت ٤١: ٣٩.

(٥) انظر المعجم المفهرس: ٢٢٣.

(٦) سورة طه ٢٠: ١٠٨.

فلا يكاد يسمع لهم كلام واضح. وهو معنى اكّده تعبير الهمس الذي تبع وصف الأصوات بالخشوع.

وقد اختلف المفسرون في تفسير الهمس الذي يسمع عند سير الناس نحو الداعي، فذهب بعضهم إلى انه الوطء الخفيف كوطء الإبل(1). وروي عن ابن عباس أنه سئل عما اذا كانت العرب تعرف هذا المعنى فأجاب: نعم، واستشهد بقول أبي زبيد:

فباتُوا ساكنين وباتَ يسري بعـيرٌ كالـدُّجى هـادٍ هَمـوسُ(2)

وعن الفرّاء أن ابن عباس تمثل أيضاً بقول الشارع: (وهُنَّ يمْشَينَ بنا هَميسا)، وهو صوت أخفاف الإبل(3).

أما الفريق الثاني فقد فهم الهمس على أنه الصوت الخفي، قال أبو عبيدة: (وهو مثل الركز يقال: همس اليّ بحديث أي أفضاه)(4) والركز هو الصوت الواطيء الخفي.

ويبدو أن المعنى الأول وهو الوطء الخفي هو الأصل لمعنى الصوت الخفي. فقد قالوا أسد هموس للخفي الصوت(5) قال الحارث بن حلزة:

أسَـدٌ في اللّقـاءِ وردٌ هَمـوسٌ وربيـعٌ إنْ شَـنَّعتْ غَـبراءُ(6)

---

(1) تنوير المقباس: ١٩٨.

(2) التفسير البياني في القرآن الكريم.

(3) الفراء عن لسان العرب ٨: ١٣٧، والبيت في جمهرة اللغة ٣: ٥٤، العمدة ١: ١٧، وانظر أيضاً جامع البيان ١٦: ٢١٤، التبيان ٧: ٢٠٩، المفردات: ٥٦٨، الكشاف ٢: ٣١٤.

(٤) مجاز القرآن ٢: ٢٠، جامع البيان ٦: ٢١٤، المفردات: ٥٦٨.

(٥) جمهرة اللغة ٣: ٥٤، الصحاح ٢: ٩٨٨، مقاييس اللغة ٦: ٦٦، المخصص ٢: ١٣٨.

(٦) شرح القصائد السبع: ٤٩٦، وانظر ديوان جِران العود: ٥٢.

هذا الوصف للأسد صادر عن كونه يسير خفية حتى لا تنتبه اليه الفريسة. قال أبو الهيثم: (سمي الأسد هموسا، لأنه يهمس همسا أي يمشي مشيا بخفْية، فلا يسمع صوت وطئة)[1].

من هذا المعنى الحسي تطورت دلالة الكلمة إلى معنى الصوت الخفي؛ لأن من يهمس بكلام خفي، إنما يتوجس من أن يسمعه أحد، كما يتوجس الأسد الهموس في وطئه الأرض حتى لا تسمع فريسته وقع أقدامه فتفلت منه، ومن هنا سمّى امرؤ القيس الليلة التي يُتَهجسُ فيها السير، ويخفى وطء الأقدام فيها لهولها وشدتها بليلة الهمس.

أجـدُ موثَّقـةٌ كنـازٍ عـرمسٌ   وخَّـادةٌ في ليَلِـة الهَمْـسِ[2]

لأن واطئها يخشى أن تُسمع وقع أقدامه. أما في الآية الكريمة فإننا نرى أن المعنيين يشتركان في رسم إيحاء الهمس، فمعنى وطء الأقدام يفهم بأن الناس يوم القيامة يكونون في رعب وخوف شديدين، فيخشون السير؛ لأنهم يعرفون عاقبة أمرهم، ومع ذلك فهم مجبرون على اتباع الداعي، ولكنهم يخففون وطء أقدامهم، حتى لا يسمع إلاّ صوت خفي لهم. إلا أن متابعة سياق الآيات والجو القرآني بصورة عامة يجعلنا نرجح معنى الصوت الخفي، لأنه أوضح من معنى الوطء الخفي، ذلك لأن التعابير القرآنية الأخرى أكدته كما مرّ بنا في تعبير خشوع الأصوات. وقد قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾[3]، فصورة

(١) عن لسان العرب ٨: ١٣٨.

(٢) ديوان امرئ القيس: ٢٧٣.

(٣) سورة طه ٢٠: ١٠٢–١٠٣.

الناس الخائفين الذين يتوجسون في كلامهم فلا يَنْبسُونَ إلا همسا وتخافتا هذه الصورة واضحة في كل الآيات الكريمة التي تعرض إلى ذكر أصوات الناس وكلامهم، كما أنها تنسجم مع تصوير الحيرة والضلال الذي سنأتي إلى ذكره في تعبير الزرقة[1]. ومع ذلك نستطيع أن نفهم التفسير الأول إلى جانب هذا المعنى بأنهم لخوفهم يتوجسون خيفة في سيرهم، وطريقة كلامهم.

ومن مجموع هذه التعابير ترتسم في الذهن صور عديدة للصفات النفسية التي يكون عليها الناس يوم القيامة.

٣- صفاتهم الجسدية[2]

أ. سواد وجوه المجرمين وبياض وجوه المؤمنين:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[3].

لقد أجمع المفسرون على أن البياض يكون علامة المؤمنين يوم القيامة والسواد يكون سيماء المجرمين[4]. وهناك آية قرآنية أخرى تصف وجوه الكافرين بأنها لسوادها

---

(١) أنظر ص ١٥٧.

(٢) هذا لا يعني أن بحثنا هنا مقتصر على الصفات الجسدية دون النفسية، لأننا سنجد أن كل تعبير يصف شكل الناس يصف من ناحية أخرى الصورة النفسية التي يحشرون عليها. ولكننا خصصناها هنا بهذا البحث دون الصفات النفسية، لأنها كات تشكل صورة كاملة الملامح لشكل الناس عند الحشر.

(٣) سورة آل عمران ٣: ١٠٦-١٠٧.

(٤) جامع البيان ٤: ٣٩-٤٠، التباين ٤: ٥٥١-٥٥٢.

كأنما أغشيت بقطع من الليل حالكة السواد[1]. وفي سورة عبس أضاف الله سبحانه وتعالى إلى وجوه الكافرين المسوّدة غبارا ويأساً وكآبةً: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾[2]. فسر بعضهم معنى الآية أن وجوه الكافرين والمنافقين تعلوها كآبة، وكسوف، وذلة[3]. وقال آخرون: أي يعلوها غبار[4]. وأصل القَتَرة في اللغة هو الغبار[5] وقيل: القترة غُبرةٌ يعلوها سواد كالدخان[6]. ومن الاستعمال المجازي للكلمة قولهم القترة: ما يغشى الوجه من الكرب[7]، فيكون معنى الآية الكريمة أن وجوهَ الكافرين تكون مسوّدة تعلوها كآبةٌ وذلةٌ. فاذا أضيف الغبار إلى سواد الوجه اجتمعت مع الذلة كآبة حزن. قال الزمخشري مفسراً الآية: (ترهَقُها قَتَرةٌ، سَوادٌ كالدُخانِ، ولا ترى أوحشَ من اجتماعِ الغبرة والسواد في الوجه كما ترى في وجه الزنوج اذا اغبرَّت وكأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يجمع إلى سواد وجوههم الغبرة كما جمعوا الفجور إلى الكفر)[8]. فنظرة الزمخشري إلى الآية

(١) قال الله تعالى في سورة يونس ٨: ٢٧ ﴿ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

(٢) سورة عبس ٨٠: ٣٣ - ٤٢

(٣) تنوير المقباس: ٣٨٢، جامع البيان ٣: ٦٣.

(٤) مجاز القرآن ١: ٢٧٧، و ٢: ٢٨٦، غريب القرآن: ١٩٠، التبيان ١٠: ٢٧٨.

(٥) جمهرة اللغة ٢: ١٢، الصحاح ٢: ٧٨٥، مقاييس اللغة ٥: ٥٥، المخصص ١٠: ٦٧، لسان العرب ٦: ٣٧٩.

(٦) لسان العرب ٦: ٣٧٩.

(٧) أساس البلاغة: ٧٤٢.

(٨) الكشاف ٣: ٣١٤.

تمثل الوجهة الأدبية الخالصة اذ تبيّن لنا أن السواد مكروه يغيض في الذوق العربي. والغبار له دلالة على الذلة والهم والحزن[1]. فاجتماعهما معاً يرسم صورة بشعة للكافرين يوم القيامة، فاذا قارنا هذه الصورة بوجوه المؤمنين المصفرة الضاحكة تَبَيَن لنا البون الشاسع الذي قُصِدَ إظهاره بين الحالتين، بين السواد المغبرّ والبياض المسفر.

ونجد لهذا التعبير أعظم الدلالة على الذوق العربي، ذلك لأن العرب قد أحبوا البياض ووسموا به كل ما أحبته نفوسهم، وبغضوا السواد ووصموا به كل ما كرهته نفوسهم. فالمثل الأعلى للجمال عندهم هو البياض، ومن هنا تغزلوا بالمرأة البيضاء الجميلة. قال امرؤ القيس:

مُهَفهَفَةٌ بيضاءُ غيرُ مَفاضَةٍ　　　تَرائبُها مصقولةٌ كالسَجَنْجَلِ[2]

وقال عمرو بن كلثوم:

على آثارنا بِيضٌ حسانٌ　　　نُحاذِرُ أنْ تُقَسَّمَ أو تَهونا[3]

والأمثلة كثيرة على تغزل الشعرا بالمرأة البيضاء[4]، ولكن البياض الذي أحبوه ليس هو البياض الخالص، إنما هو البياض الذي تخالطه صفرة كقول امرئ القيس:

كبكر مُقاناةِ البياضِ بصُفْرةٍ　　　غَذاها نميرُ الماءِ غير المحلَّلِ[5]

---

(١) انظر لسان العرب ٦: ٣٠٨، تاج العروس ٣: ٤٣٧.

(٢) ديوان امرئ القيس: ١٥.

(٣) شرح القصائد السبع: ٤٢١.

(٤) شرح ديوان عنترة: ٧٣، ١٦١، ديوان النابغة الجعدي: ٤: ٨٠ ديوان عدي بن زيد: ١٢٧.

(٥) ديوان امرئ القيس: ١٦.

فقد شبه المرأة بالدّرة، لأنها بيضاء يخالط بياضها صفرة. وذلك أحسن الألوان عندهم كما يقول ابن الفقيه[1]. اما البياض الخالص فهو الذي وجدوه عند الهجناء[2].

ومن الطبيعي أن يميل ذوقهم إلى حب البياض – وان لم يكن خالصاً – ذلك لأن طبيعة بيئتهم الشديدة الحر صيفا لا تترك سحنتهم بيضاء خالصة وإنما تميل بها إلى السمرة. ومن هنا جعلوا البياض المخلوط بشيء من الصفرة هو المثل الأعلى للجمال، ومع ذلك اكتفوا بذكر البياض في أكثر أشعارهم الغزلية.

من هذه الناحية جاءت استعارتهم البياض للتعبير عن الحق، والشرف والرفعة، فاذا أرادوا مدح الرجل قالوا. انه أبيض، نقل ابن منظور عن الأزهري قوله (اذا قالت العربُ: فلانٌ أبيض، وفلانة بيضاء فالمعنى نَقاء العرض من الدنس والعيوب)[3] وقد ورد بكثرة في الشعر الجاهلي في المدح، والرثاء.

اما السواد فقد نعتوا به كل شيء بغضته نفوسهم، فعبروا عن الحقد بأنه أسود، ووصفوا الأكباد الحاقدة بالسواد. قال الجاحظ: (يقولون سود الاكباد يريدون العداوة)[4]. وقال الأعشى مخاطباً ناقته:

فـما أُجشَمتِ في إتيـانِ قَـوْمٍ   هُـم الأعـداءُ والأكبـادُ سُـودُ[5]

(١) مختصر البلدان: ٢٩.

(٢) الكامل للمبرد ٢: ٤٦٧.

(٣) عن لسان العرب ٨: ٣٩٣، وانظر أيضاً نزهة العمر: ٣، ٤ المخصص ٢: ١١٤.

(٤) الحيوان ٣: ٢٤٧.

(٥) ديوان الأعشى: ٣٢٣.

فوصف أكبادهم بالسواد ليدل على شدة عدائهم، وبغضائهم وقال أعرابي قديم واصفاً الضغن بالسواد أيضاً:

يُزَمّلُونَ حديثَ الضِغْنِ بينَهُمَّ والضغنُ أسوَدُ أوْ في وجهِهِ كَلَفُ[1]

وكذلك وصفوا المصائب بالسواد، لأنها تذل القوم إذا حلت بهم وتحزنهم، فعبروا عن الحزن والذل بالسواد، كما عبروا عن الشرف والرفعة بالبياض. قال الشاعر الحسن بن علي القتّال الباهلي[2]:

تَقولُ ابنةُ البكري لما بَدا لنا لَدى السِترِ منها لمةٌ وبَنانُ

أراكَ ظَلَلْتَ اليومَ اسودَ شاحباً طريدَ دمٍ يُرمى بكَ الرجوانُ[3]

وقال آخر:

رَمى الحدثان نسوةَ آلِ حربٍ بمقدارٍ سَمَدْنَ له سُمُودا

فَرَدَّ شُعورَهنَّ السودَ بِيضاً وردَّ وجوهَهنَّ البيضَ سودا[4]

ووصفوا وجوه القوم عند الغزو بالسواد، لأنها تكون كالحة لشدة الضرب وحمي الوطيس. قال أبو زبيد الطائي:

بَدَّلَ الغزوُ أوجهَ القومِ سُودا ولقد أبدأوا ولسن بسودِ[5]

---

(١) العمدة ١: ٢٥٨، ديوان الحماسة: ٢٥٧، الاشباه والنظائر: ١١٩.

(٢) هو الحسن بن علي القتال الباهلي، أحمد بني جندب شاعر فارس، ويروى أنه أحدث حدثاً، فهرب وصعد جبل يذبل فأقام به، وألفه النمر. أنظر المؤتلف والمختلف: ٢٥٢.

(٣) نفسه: ٢٥٣.

(٤) الصناعتين: ٣١٢، العمدة ٢: ٦، والشعر منسوب إلى الكميت بن زيد في ذيل الأمالي: ١١٥.

(٥) أمالي اليزيدي ١٢، وانظر أيضاً معاني الشعر: ٢٣.

والاستعمال الأخير للسواد يعكس لنا ضوءاً آخر على الآية الكريمة: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [١]، ذلك لأن وجوه المؤمنين تبيض لما يبدو عليها من الراحة والاطمئنان، وتسود وجوه المجرمين لهول الموقف والمصيبة العظيمة التي تحل بهم.

وهذا التعبير القرآني المعجز يعكس لنا الذوق العربي في البياض وكرهه للسواد.

ومن هنا خلَّد الشعراء السودان الذين عاشوا بين ظهراني العرب أشعارا تُعَد غاية في الروعة في تصوير الذوق العربي، ونظرته إلى الألوان. قال عنترة بن شداد:

يَعيبونَ لَوني بالسَوادِ وإنما ... فعالُهم بالخُبْثِ أسود من جِلدي[٢]

فهو هنا يعكس لنا الذوق العربي الذي يعد السواد عيباً. وهو نفسه مقتنع بهذا الذوق متأثر به، لأنه حين يردّ على قولهم لا يدافع عن لونه، إنما يقول إن أفعالهم شنيئة كلون السواد، فاعتبر السواد عيباً يسم به أفعالهم.

أما حين يدافع عن لون بشرته فإنه يحاول أن يجد له تسويغاً بأن يقول إنّ لون المسك أسود:

لَئِنْ أَكُ أسودا فالمِسكُ لوني ... وما لسواد جلدي مِنْ دَواءِ[٣]

(١) سورة آل عمران ٢: ١٠٥-١٠٧.

(٢) شرح ديوان عنترة: ٦٢.

(٣) نفسه. ٧.

أو أن لونه لون الليل الذي لولاه ما عرف الفجر:

يَعيبــونَ لــوني بالسَــوادِ جَهالــةً　　　ولولا سوادُ اللّيـلِ مـا طَلَـع الفَجْـر[1]

أو يقول أن لون بشرته موجود في العيون السود التي أحبها العرب:

ومــا وَجَــدَ الأعــادي فيَّ عيَبــاً　　　فعـــابوني بلـــونٍ في العُيـــونِ[2]

وهو في كل هذا الدفاع يتجاهل نقاط الضعف في تسويغه، وأن طيب المسك لم يأت من لونه، وإنما من عطره. وكذا الحال في العيون السود التي ما أحبها العرب إلا لاجتماع السواد والبياض فيها معاً.

أما سُحيَمُ عبدُ بني الحِسحاس المشهور، فانه يتألم غاية الألم فصاحبته لا تُعيره أدنى التفات لأن ملابسه رثة، ولأنه عبد أسود:

رَأَتْ قَتبــاً رثّــاً وسُــحْقَ عمامــةٍ　　　وأســودَ ممــا يملـكُ النـاسُ عاريـا[3]

ونراه يتألم من لونه الأسود، وانه لا ذنب له إذ كانت أمه عبدة، فولدته على هذا اللون البغيض:

فلــو كنــتُ وَرْداً لونُــه لعَشــقْتني　　　ولكــنَّ رَبي شــانَني بسَــواديا[4]

ويلاحظ في الشطر الثاني رسوخ فكرة اعتبار السواد عيباً حتى في ذهن سُحيم العبد الأسود ولكنه مع ذلك يحاول أن يجد لسواده تسويغاً كما فعل عنترة من قبل[5].

---

(١) شرح ديوان عنترة: ٨٩.

(٢) نفسه: ١٨٢.

(٣) ديوان سحيم: ٨٤.

(٤) نفسه: ٢٤.

(٥) نفسه: ٥٤، وانظر أيضاً الفاضل: ٣٣، أمالي القالي ٢: ١٨٨، ذيل الأمالي: ١٢٧، المخصص ٢: ١٠٤.

ولنا أن نتساءل عن سر حب الذوق العربي للبياض، وتشاؤمه وكرهه للسواد. فاذا تطلعنا إلى البيئة العربية وجدنا فيها ضالتنا، ذلك لأنها صحراء مترامية الأطراف، مليئة بالمفاجئات خاصة في الليل، سواء من قبل الغارات المفاجئة، أو من قبل حيوانات مختلفة ملأت الصحراء الواسعة. فأحبوا النور لأنه ينير لهم حندس لياليهم المظلمة. وكانت الليالي التي يطل فيها البدر من أجمل لياليهم يستعينون بها على عدوهم، ويعرفون طريقهم بأمان من الحيوانات والحشرات. ومن هنا شهبوا المرأة والممدوح بالشمس تارة[1] والبدر تارة أخرى[2].

وفضلاً عن هذه الأسباب التي كرَّهت لهم السواد وجدت في بيئتهم حيوانات شرسة مؤلمة طالما آذت البدوي فعرفها، وترسَّم معالمها، وكان بعضها أسود اللون فاقترن البغض للسواد بهذه الدلالة. ووصفوا الموت بالأسود والأحمر، لأنه مأخوذ من لون الأسد. كما قال أبو عبيدة[3]، وعرفوا من الحيات الاسود[4]، ووجدوا فيه أذى وشراً واضحاً، فاذا أرادوا تشبيه عدوهم شبهوه به. والكلاب السود أكثرها عقورا وأذى[5]. أما الغراب فأمره مشهور عند العرب، وقد تشاءموا منه، وكرهوه. ذكر الجاحظ تعليلا لهذا التشاؤم بقوله: (والغراب لسواده أن كان أسود، ولاختلاف لونه

(١) جمهرة أشعار العرب: ٧٨، شرح القصائد السبع: ١٤٦.

(٢) ديوان جران العود: ٢٦، ديوان الشماخ: ٧٣، شرح ديوان عنترة ٥، ١٦٨، شرح القصائد السبع: ٤٣٩، الأشباه والنظائر ١٥٦، ١١٠.

(٣) المخصص ٦: ١٢٣.

(٤) الصحاح ١: ٤٨٨، مقاييس اللغة ٣: ١١٤.

(٥) الحيوان ٢: ٧٨، ٣٦٧.

إن كان أبقع، ولأنه غريب يقطع إليهم، ولأن لا يوجد في موضع خيامهم يتقمم إلا عند مباينتهم لمساكنهم ومزايلتهم لدورهم)[1].

كل هذه الأمور اجتمعت لترسم في الذهن العربي صورتين: البياض ومعه الجمال والسكينة والشرف، وصورة السواد ومعه الذل والأذى والتشاؤم وقد انعكس هذا الذوق في أساطيرهم وقصصهم، فقال إنّ نوحاً غضب على ابنه حام، فدعا عليه بالتشويه فكان سواده[2]. ولم ترد هذه الفكرة في القرآن الكريم إلا أن ذكر السواد والبياض ورد فيه تصويرا للذوق العربي. أما في التوراة فقد ذكر أن نوحاً دعا على ابنه حام كنعان أن يكون عبد العبيد لاخوته[3]، وبهذا نستطيع أن نتصور مدى رسوخ كراهية اللون الأسود في الذهن العربي، حتى تصوروه من علائم التشويه والعقاب! ولم يفهموا أن السواد من أثر البيئة إلاّ عند بعض القدماء[4].

من هذه الأبواب الواسعة جاء التعبير القرآني المعجز معبراً عن الذوق العربي الراسخ.

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[5]

(١) الحيوان ٣: ٤٣٨، ٣١٤، المعاني الكبير ١: ٢٦٢، ديوان النابغة الذبياني: ٣٨، ديوان علقمة الفحل: ٦٧، ديوان الشماخ: ٣٦.

(٢) المعارف: ٢٦، أخبار الزمان: ٦٣، آثار البلاد: ٢٢.

(٣) الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٩: ١٥.

(٤) الحيوان ٤: ٧٠، فخر السودان: رسائل الجاحظ ١: ٢١٩، الأعلاق النفيسة: ١٠١، ١٠٢، مختصر البلدان: ١٥٢، مقدمة ابن خلدون: ٤١، آثار البلاد: ٢٢.

(٥) سورة آل عمران ٣: ١٠٦-١٠٧.

ولا يمكن أن يفهم مما مر بنا أن التعبير القرآني حين جعل البياض سمة للمنزلة العالية، والفرحة التي يشعر بها المؤمنون. أقول لا يمكن أن يفهم منه نظرة تعصبية، أو فكرة عنصرية في المفاضلة بين السواد والبياض، ذلك لأن رأي الإسلام في هذا الموضوع واضح معروف تُلخصُه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1]: وانه لا فضل العربي على أعجمي إلا بالتقوى[2]. كما يقول الرسول الكريم، اذ لا عنصرية في الاسلام إلا أن التعبير القرآني هنا عكس لنا الذوق العربي الذي فضل اللون الأبيض، وأضفاه على كل ما تحبه نفسه، وترتضيه، وكره السواد في الوجوه وتشاءم منه فوصف به كل ما كرهه وآذاه، فجاء التعبير القرآني في وصف حال الناس يوم القيامة فتتداعى في الذهن كل الصور التي يوحيها تعبير السواد من دلالة البشاعة، والبغض، أما البياض فتتداعى معه كل معاني الشرف، والرفعة التي يكون عليها المؤمنون يوم القيامة. وبالمقارنة بين الصورتين بتجلى الفرق الشاسع بين منزلة الكافرين والمؤمنين يوم القيامة وكيف أن فريق المشركين يحشر بأبشع صورة وأذلها وبعكسهم فريق المؤمنين يحشرون بأجمل صورة، وقد ملات الطمأنينة نفوسهم وأعطاهم الله المكانة الحِسنة.

ب. حشر المجرمين زرقا:

قال الله تعالى: ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾[3].

---

(١) سورة الحجرات ٤٩: ١٣.

(٢) البيان والتبين ٢: ٣٣.

(٣) سورة طه ٢٠: ١٠٠ – ١٠٣.

فتعبير الزرقة في الآيات الكريمة السابقة فُسِّر على عدة أوجه. فسّرة ثعلب على معنى العطاش[1]. أما الطبري فقد نقل توجيها لتفسير تعبير الزرقة بالعطش، بأن شدة العطش الذي يصيب المجرمين يوم القيامة يجعل عيونهم زرقا، قال:

(قيل عني يالزُرْق في هذا الموضوع ما يظهر في أعينهم من شدة العطش الذي يكون بهم عند الحشر لرأى العين من الزّرق)[2]. وإلى هذا ذهب ابنُ سيدة في توجيه تفسير ثعلب بقوله:

(وعندي أن هذا ليس على القصد الأول، إنما معناه ازرّقتْ أعينهم من شدة العطش)[3]. ومع أن هناك اية قرآنية كريمة تصف سوق المجريمن عطاشا يوم القيامة[4]، إلا أننا لا نجد في سياق الآيات العام الذي وردت فيه الزرقة إشارة إلى ذكر الماء، أو التعذيب بالعطش والذي يفيدُنا في هذا التفسير، هو التأثير القوي للبيئة العربية في الذهن العربي، حتى صار يفسر بالعطش المعاني التي قد تبدو بعيدة عنه لشدة ما عانوا من حرمانهم الماء في البيئة الصحراوية[5].

وذكر الخليل تفسيراً آخر لمعنى الزرقة وهو العمى قال: (يريد عميا لا يبصرون وعيونهم في المنطق زرق لا نور لها)[6]. وكذا قال الطبري وغيره من المفسرين[7]. اما ابن

(١) مجالس ثعلب ٢: ٣٦٧، وانظر أيضاً ١: ٣٢٤، لسان العرب ١٢: ٤.
(٢) جامع البيان ١٦: ٢١٠، التبيان ٧: ٢٠٦.
(٣) عن لسان العرب ١٢: ٤، وانظر أيضاً تاج العروس ٦: ٣٦٨.
(٤) سورة مريم ١٩: ٨٦.
(٥) انظر الفصل الخامس – ٥ – شارب اهل النار، والفصل السادس الجنة – ب – انهارها وشرابها.
(٦) اللسان (زرق).
(٧) جامع البيان ٢٦: ٢١٠، وانظر أيضاً تفسير فرات الكوفي: ١٧٢.

منظور فقد نقل تعليلا لتسمية العمى بالزرقة بقوله: (وإنما قيل زرقاً لأن السواد يزرّق إذا ذهبت نواظرهم)[1].

وربما جاء تفسير الزرقة بالعمى من الظاهرة التي قد تعرض للعين حين تمرض بما يسمى بالماء، والذي هو في حقيقته كما يقول حنين بن إسحق: (رطوبة غليظة تجمد في ثقب الحدقة فتحجز بين الجليدية وبين الاتصال بالنور الخارج)[2]. وألوان هذا اللون مختلفة فمنها الأخضر والأسود، والأبلق، والأزرق[3]. ومن هنا عُدَّ الزُرقُ ضمن أهل العاهات فقال ابن قتيبة معدداً من عرف بها من البرص والعرج والصُم والجدع والجذمى والحول والزرق والعور[4]. ويبدو أنهم لا يقصدون العيون الزرقاء بهذه العاهة. إنما المراد به مرض الزَرَق الذي هو ضرب من العمى، والذي إذا عرض للعين اختفى سوادها وغلب البياض عليها[5].

وواضح أن بين البياض والزرقة تقارب في اللون.

وإذا تتبعنا الجو القرآني بصورة عامة، وجدناه يسند تفسير الزرقة بالعمى، فقد قال الله تعالى في صدد الحديث عن الأنبياء إن الأمة التي تضل طريقها، ولا تهتدي،

---

(١) الظاهر أن هذا القول هو للزجاج فقد نقله ابن منظور عقب كلام الزجاج في تفسير الزرق بالعمى. انظر لسان العرب ١٢: ٤، وانظر أيضاً جمهرة اللغة ٢: ٣٢٤، المفردات ٢١١، الكشاف ٢: ٣٢٤.

(٢) العشر مقالات: ١٤١.

(٣) نفسه. وانظر أيضاً الحاوي في الطب ٢: ٤١.

(٤) أنظر المعارف ٤، ٥، ٥٨٥ فما بعدها وانظر الأعلاق النفسية ٢٢٣.

(٥) وبهذا المعنى وردت في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ سورة يوسف ١٢: ٨٤.

فإنها قد عمت أو تعاملت عن حقيقة النبوة حتى إذا انتهى سرد القصص والمواعظ، جاء الوعيد بحشر الضالين عميا يوم القيامة، كما ضلّوا عن الهداية في الحياة الدنيا:

﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾[1]. وقال أيضاً: ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴾[2].

ويبدو أنه سبحانه وتعالى لا يريد بهذه الآيات الكريمة العمى الحقيقي، وإنما هو إظهار حالة الذل التي يحشرون عليها، وأنهم عمي عن نعم الله وثوابه كما كانوا عميا عن الحقيقة والهدى في الحياة الدنيا[3].

أما سياق الآيات العام، فإنه يساعدنا على تصور معنى العمى: ﴿ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ﴿١٠٣﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ﴿١٠٤﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ﴿١٠٧﴾ يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ﴾[4]. فالمجرمون في رعب شديد وذهول عظيم

---

(١) سورة الإسراء ١٧: ٧٢.

(٢) سورة طه ٢٠: ١٢٤ – ١٢٦.

(٣) انظر تفسير العمى في تنوير المقباس: ١٨٠، رسالة في المعاد، رسائل الجاحظ ١: ٩٩، جامع البيان ١٥: ١٢٨، تفسير التستري ٣٨، تنزيه القرآن: ٢٠٦، حقائق التأويل ٥: ٢٩، متشابهات القرآن ٢: ١٠٥ وفي المسائل المنثورة أن الله سبحانه وتعالى يبعث الناس على صورهم فمن كان في دنياه أعمى بعث كذلك، وكذلك الأبكم والأخرس فكل يبعث ويحشر على ما كان. أنظر مسائل منثورة: الورقة (١٥) والأرجح تفسير العمى بالمعنى المجازي لا الحقيقي كما هو مثبت اعلاه.

(٤) سورة طه ٢٠: ١٠٢ – ١٠٨

أودى بعقولهم وأبصارهم، وقد تبعوا الداعي مسرعين يريدون أن يتساءلوا ولكن هول الموقف يحول دون ذلك، فيخشون السؤال، ويكتفون بالهمس والتخافت على عادة العمي حين يتحرجون من الكلام بصوت مرتفع، ولفظة التخافت تزيد من رسم الصورة، لأنها تشير إلى أن صاحبها يتوجس خيفة من انكشاف سره[1].

وإذا عدنا إلى البيئة العربية نتلمس فيها الذوق العربي ونظرته تجاه اللون الأزرق، فإننا سنجد في الآية الكريمة تصويراً رائعاً لهذا الذوق، وما توحيه الزرقة من معانٍ عديدة تساعد كلها على تبشيع الصورة التي يحشر عليها المجرمون. وأول من وصلتنا إشارته إلى هذه الوجهة في التفسير هو الزمخشري بقوله:

(وقيل في الزرق قولان: أحدهما أن الزرقة أبغض شيء من ألوان العيون إلى العرب، لأن الروم أعداؤهم، وهم زرق العيون، ولذلك قالوا في صفة العدو: أسود الكبد، أصهب السبال أزرق العين، والثاني أن المراد العمى)[2].

فتفسير الزمخشري هنا مستمد من الناحية الفنية التي ينظر فيها. أول ما ينظر إلى الذوق العربي والأفكار التي آمن بها.

لقد بغض العرب الزرقة وتشاءموا منها، وهجوا من كانت صفته عليها. قال الجاحظ: (وفي الجملة لا يتيمّنون بالبِكْر الذكر، فان كان البِكّر ابن بكرتشاءموا به، فإن كان البِكْر ابن بكرين، فهو في الشؤم مثل قيس بن زهير والبسوس؛ فان قيساً كان أزرق وبِكْرا ابن بِكْر.

(١) انظر معنى التخافت في سورة القلم ٦٨: ٢٣.
(٢) الكشاف ٢: ٣١٣.

ولا أحفظ شأن البسوس حفظاً اجزم عليه)[١]. وفي رواية نقلها الجاحظ أيضاً أن معاوية عبّر صحاراً العبدي[٢]. بالزرقة فقال له: يا أحمر! قال: والذهب أحمر، قال يا أزرق! قال: والبازي أزرق)[٣]. فصحار هنا لم يدفع عن نفسه عيب الزرقة، وإنما قرنها بالبازي: وهو طائر من الجوارح؛ ليبعد عن نفسه ما تدل عليه الزرقة من معاني الشؤم والحسد واللؤم.

وربما جاء بغضهم للزرقة أن الذوق العربي لم يعتد إلاّ العيون الحور كما وردت في الشعر، وتغزلوا بالعيون السود، وشبهوها بعيون المها[٤]. ومن هنا لم يستسيغوا العيون الزرق؛ لأنها قليلة في البيئة العربية، دخيلة على الذوق العربي.

وهناك سبب آخر قد يعلل لنا الذوق العربي تجاه الزرقة: وهو أنها قد اقترنت بالأعاجم وخاصة الروم كما ذهب الزمخشري من قبل[٥]؛ فكرهت لأنها تذكرهم بلون أعدائهم. وقد وردت الزرقة في الحديث النبوي دالة على البغض، وعدم الارتياح ففي وصفه ﷺ للمنكر والنكير أنهما أسودان أزرقان[٦]. ولم ترد صفة الملكين في صحيح

---

(١) الحيوان ٣: ١٧٤.

(٢) هو صحار بن عياش أو عباس بن شراحيل بن منقذ العبدي خطيب مفوه كان من شيعة عثمان وقد طالب بدمه بعد مقتله، وشهد صفين مع معاوية وسكن البصرة ومات فيها نحو سنة ٤٠هـ. أنظر المحبر: ٢٩٤، الإصابة ٢: ١٧٠ فما بعدها.

(٣) الحيوان ٤: ٢٣٠ وانظر أيضاً الاصابة ٢: ١٧٠.

(٤) ديوان جران العود: ١١، ديوان علقمة الفحل: ٤٢.

(٥) الكشاف ٢: ٣١٣.

(٦) الجامع الصحيح ٣: ٣٨٣.

البخاري الا أن القسطلاني في شرحه الحديث النبوي بيَّن الحكمة من اجتماع الزرقة والسواد في الملكين، وأنها لتبشيع صورتهما قال:

(وإنما صورا كذلك ليخاف الكافر، ويتحير في الجواب، وأما المؤمن فيثبته الله بالقول الثابت فلا يخاف)[1].

وفي حديث الإسراء أن الرسول ﷺ كان يرى أشخاصاً مختلفين فيسأل جبريل فيخبره عن أسمائهم، وأحوالهم، وذكر أنه رأى رجلاً أحمر أزرق جعدا شعثا فسأل عنه فقيل إنه عاقر الناقة[2].

وفي حديث آخر أنه ﷺ وصف عيني رجل أزرق بأنهما عينا شيطان، وأنه قال لأصحابه: (يجيئكم رجل ينظر إليكم بعيني شيطان، فاذا رأيتموه فلا تكلموه، فجاء رجل، فلما رآه النبي ﷺ دعاه...)[3].

ففي هذه الأحاديث النبوية الشريفة تتبين لنا صورة الزرقة في الذهن العربي، ومدى بغضه ونفوره منها، فهي لون عيون المنكر والنكير، وعاقر الناقة، وأخيراً المنافق الذي وصف الرسول ﷺ عينيه بعيني شيطان.

أما إطلاق الزرقة على الأعاجم، فقد وردت في شعر الأعشى مادحا النعمان بن المنذر حيث قارن جوده بجود جدول يسقي النبيط منه ديارهم. وقد وصف النبيط بالزرق.

(١) إرشاد الساري ٢: ٣٧٩.
(٢) مسند الإمام أحمد ١: ٢٥٧، وانظر أيضاً جمهرة أشعار العرب: ١٤.
(٣) مسند الإمام أحمد ١: ٥٧، وانظر أيضاً تاج العروس ٦: ٣٦٨.

وَيُروي النّبيطُ الزُرقُ من حجَراتِـه ديــاراً تُـــروّى بــالأتيِّ المُعَمَّـــدِ[1]

وقال في قصيدة أخرى يصف زيارته لحانة ويذكر ساقيها:

تَنخَّلهَـــا مـــن بكـــارِ القِطــافِ أزيْـــرقُ آمِـــنُ إكســـادها[2]

فالخمار هنا أعجمي، والأعشى لم يصرح به، وإنما اكتفى بوصفه أزيرق على عادة العرب في إطلاق الزرقة على الأعاجم. وفي الشعر الذي قيل في رثاء عمر بن الخطاب، والذي ينسب إلى الشماخ، ورد وصف قاتل الخليفة عمر رضي الله عنه - وهو أعجمي -، بأنه أزرق قال:

وما كنتُ أخشى أن تكون وفاتُهُ بكفّي سبنتى أزرقِ العينِ مُطرف[3]

ولا يراد بهذا القول كون قاتل عمر أزرق لون العين حقيقة، إنما يراد به الدلالة على كونه أعجمياً، وقال ذو الرمة هاجيا قوما بأنهم زرق العيون لا يؤمن جارهم لأنهم يسرقونه:

زرْقُ العيونِ إذا جاورتهم سَرقوا ما يسرِقُ العبدُ أو نابأتَهُمْ كذبوا[4]

ونجد هذه الفكرة نفسها في الغزل أيضاً روى ابن قتيبة:

يقولـــونَ نصـــرانية أمُّ خالـــدٍ فقلتُ دَعُوهـا كـلُّ نَفْـسٍ ودينهـا

---

(١) ديوان الأعشى: ١٩٣، والآتي: جدول نؤتيه إلى أرضك، والمعمد من عمد السبل إذا سد وجهه بتراب.

(٢) نفسه: ٦٩، تنخلها: تخيرها، بكار القطاف، من أول ما يقطف.

(٣) الأغاني ٨: ٩٨، وتروى لأخيه المزرد.

(٤) ديوان شعر ذي الرمة: ٣٦.

فـــان تـــكُ نصـــرانيةً أمُّ خالـــدٍ   فقـــد صُـــوِّرَتْ في صُـــورة لا تشـــينها
أحبُّـــكِ إنْ قـــالوا بعينِـــكِ زُرقـــةٌ   كـــذاكَ عِتـــاقُ الطـــيرِ زُرْقـــاً عُيونُهـــا(١)

فالشاعر هنا يسوغ حبه أم خالد مع كونها زرقاء العين بأن يوجه الأنظار إلى زرقة عتاق الطير، وهو تسويغ يذكرنا بتسويغ عنترة لسواده. فالناس هنا يعيبون على الشاعر حبه امرأة زرقاء العين وهو يحاول ان يسوغ حبه ويدافع عن زرقة عينيها.

ولما لم يستسغ العرب زرقة العيون، وقرنوها بعيون أعدائهم، فقد أطلقوا الزرقة على معان عديدة تمثل كلها الشر والبغض كالحسد، واللؤم، والطمع. وقد عبروا عن اللؤم بالزرقة وقالوا عن اللئيم انه أزرق العين. قال سُوَيد ابن أبي كاهل:

لقد زَرِقَتْ عينـاكَ يـا ابـنَ مُكَعْـبر   كـما كـلُّ ضـبيّ مـن اللُـؤمِ أزْرَقُ(٢)

والبيت الذي يليه يبين أن ذكر الزرقة هنا جاء في معرض الذم، والهجاء قال:

ترى اللُؤمَ فيهم لائحـاً في وجـوهِهِمْ   كـما لاحَ في وَجْـهِ الحلائـب أبْلَـقُ(٣)

---

(١) عيون الأخبار ٤: ٥٨، والأبيات لم ينسبها ابن قتيبة، إلا أنّ هناك أبياتا للفرزدق من البحر والقافية نفسها ورد فيها ذكر أم خالد وهي أم خالد القسري الذي هجاه الفرزدق، منها قوله:

رَجَوْنـــا هُـــداهُ لاهـــدى الله خالـــداً   فـــما أمُّـــهُ بـــالأمِ يُهـــدى جنينُهـــا

أنظر ديوان الفرزدق: ٣٣٤، الأغاني ١٩: ٦١، إلا أن الأبيات التي رواها ابن قتيبة لا توجد ضمن أشعاره، فإن كانت له ولم تصل إلينا في أشعاره، فيمكن أن تؤول بالهجاء في معرض الغزل. وإن كانت من أشعار المحدثين، فإنها تكون أدل على الذوق العربي، ذلك لأن الأذواق قد تبدلت في العصر العباسي لاختلاط العرب بالأعاجم، ومع ذلك فإن هناك من يعيب عليه حبه امرأة زرقاء العين. وفي كلا الحالتين تعكس لنا الأبيات صورة واضحة للذوق العربي تجاه الزرقة.

(٢) مجالس ثعلب ٢: ٣٦٧، عيون الأخبار ٢: ٢١٤، جمهرة اللغة ٢: ٣٢٤ الصحاح ٤: ١٤٨٩، المخصص ٥: ٣٣٢.

(٣) الأغاني ١٩: ٤٩.

وعن الفرزق أنه عدَّ هذين البيتين مما حطّ من قدر ضبّة وأخزاها[1]. وفي شعر الأعشى ذكرت زرقة العيون حين يكون الناس في جوع، وخصاصة، وذلك أنه قال مادحاً:

كذلكَ فافعَلْ ما حييت اذا شَتَوْا واقدِمْ اذا ما أعينُ الناسِ تَزْرَقُ[2]

فالذي فسر قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾[3]، بأن المجرمين تَزْرقُّ أعينهم من شدة العطش قريب من قول الأعشى حين ذكر زرقة العين وقت الجوع، لأنَّ الانسان حين يضعف وتهزل قوته يبدو ضعفه على وجهه وعينيه إذ يختفي سوادهما ويغلب عليها البياض.

والعيون الزرق حسودة لا يؤتمن شرها قال بشار بن برد متغزلا بصاحبته:

تَراخَتْ في النَعيمِ فلمْ تنَلْها حواسِدُ أعينِ الزرقِ القِباحِ[4]

وقول بشار له دلالته، لأنه كان أعمى يؤم المجالس – خاصة مجالس النساء – فكل ما يذكره وبصوّره في شعره إنما جاءه عن طريق السماع، ثم أنه كان عربي الثقافة، خبيرا بالذوق العربي، فوصفه للعيون الزرق بأنها حاسدة له دلالة على نظرة المجتمع إلى العيون الزرق.

(١) نفسه.

(٢) تاج العروس ٦: ٣٦٧، وفي رواية الديوان تبرق. أنظر الديوان: ٣٣.

(٣) سورة طه ٢٠: ١٠٢.

(٤) ديوان بشار ٢: ١١٤.

ولبشار بيت آخر يذكر فيه الزرقة على أنها مما تمجها الأذواق وذلك في وصفه البخيل:

وللبَخيـــلِ عـــلى أموالِـــهِ علـــل　　　زُرقُ العيـونِ عليهـا أوجـهٌ سـودُ[1]

فسواد اللون غير مستساغ في الذوق العربي كما مرّ بنا[2]. فاذا اجتمع السواد مع عيون غير محببة وهي الزرقة، فإن الوجه يكون أبشع مما يصتوره الذهن العربي. وبشار لم ير الزرقة، كما لم ير اجتماعها بالسواد، ولكنه تخيل هذه الصورة غير المقبولة في الذوق العربي، ليشنع علل البخيل على أمواله مستمداً ذلك مما عرفه عن الذوق العربي.

وهكذا اقترنت الزرقة بمعانٍ نفسية بغيضة. أما من الناحية المادية فانها اقترنت بعدة صور تزيد من موحيات الزرقة في الآية الكريمة. أما الذباب الأزرق فهو أشدها أذى وإيلاما[3]، ولون عيون كلاب الصيد الشرسة زرقاء[4].

وهكذا تتبين لنا المعاني المتعددة التي توحيها كلمة الزرقة، وكيف أنها اقترنت بمعان يبغضها الفكر العربي. وتتداعى هذه المعاني كلها، فترتسم في الذهن عند قراءة قوله تعالى: [5] فالمجرمون يوم القيامة عمي عن الحقيقية، ضالون عن الطريق الصحيح. وعبر عن هذا المعنى بتعبير تتداعي فيه معاني اللؤم، والبغض، والبشاعة. وتتجمع هذه

---

(١) ديوان بشار بن برد ٣: ١٢٨، وقد أخذ هذا المعنى مسلم بن الوليد، وان لم يبلغ جودة بشار في شعره قال:

إذا ســـيِلَ عُرفـــا كســـا وجهَـــهُ　　　ثيابـــاً مـــن البخـــلِ زُرقـــا وسُـــودا

أنظر الصناعتين: ٤٠٠.

(٢) أنظر ص١٥١ وما بعدها.

(٣) الاشتقاق مجلة المجمع العلمي العربي. دمشق م ٢٨ ج ٤: ٥٧١، الحيوان ٣: ٣٩٠، أدب الكاتب: ٢١٥، مجالس ثعلب ١: ٦٧، المؤتلف والمختلف: ٢٦٠.

(٤) ديوان امرئ القيس: ١٠٣، المؤتلف والمختلف: ٦٧.

(٥) سورة طه ٢٠: ١٠٢.

الصور البشعة لزرقة الكافرين مع سواد الوجوه البغيض، لتكوّن صورة واضحة لوصف الكافرين يوم القيامة، وتقابل هذه الصورة بصورة المؤمنين المستبشرة وجوههم الفرحة بساعة اللقاء والثواب.

جـ- إشراق وجوه المؤمنين:

في صفة وجوه الكافرين والمؤمنين نجد تصويراً رائعاً لسمات الحزن والفرح التي تكتسي بها وجوه الناس يوم القيامة. وقد مرت بنا صور اليأس والكآبة التي رسمتها الآيات الكريمة لحال وجوه المجرمين يوم القيامة على حين وصفت وجوه المؤمنين بأنها مشرقة مستبشرة:

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾[١].

وقال تعالى أيضاً: ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾[٢].

في هذه الآيات الكريمة نجد صورتين مختلفتين، صورة المؤمنين المستبشرين، وهم يتأملون نعم ربهم ورضاه، وصورة الكافرين وقد راعهم هول الموقف، يتوقعون العذاب والعقاب.

فالمؤمنون وجوهم نضرة، ونقل عن رسول الله ﷺ أنه حين تلا قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾[٣]، قال بالبياض والصفاء[٤].

---

(١) سورة عبس ٨٠: ٣٨- ٤١.

(٢) سورة القيامة ٧٥: ٢٠-٢٥.

(٣) سورة القيامة ٧٥: ٢٢.

(٤) جامع البيان ٢٩: ١٩٣.

أما ابن عباس فقد قال أن معناها: (حَسَنَةٌ جميلةٌ ناعمةٌ)[1].

ونقل الطبري عن مجاهد تفسيره النضرة بأنها من السرور والنعيم، والغبطة[2].

وفسرها الفراء بأنها إشراق الوجة وبريقه المتأتي عن النعيم، والسرور[3].

ويجلّي الطوسي هذه الصورة أكثر فأكثر، فيرى أنها الصورة المشرقة المضيئة التي تملأ القلب سروراً عند رؤيتها[4].

أما الحسن المؤدب[5] فقد اتجه بالنظرة إتجاهاً آخر، ولم ير فيها بياض الوجوه ولا حسنها واشراقها، وإنما ذهب بها إلى الدلالة المعنوية، وهو حسن الخلق والمنزلة والجاه، قال: (ليس من الحسن في الوجه، إنما معناه حَسَّنَ اللهُ وجهه في خُلُقِهِ أي جاهِهِ، وقدره قال: وهو مثل قوله اطلبوا الحوائج إلى حسان الوجوه يعني به ذوي الوجوه في الناس وذوي الأقدار)[6].

ويبدو أنه لا تعارض بين تفسير الحسن المؤدب الذي يرى النضارة في عظم المنزلة والجاه، وبين الفريق الأول الذي يحملها المحمل المادي، وهو حسن الوجوه وإشراقها من النعيم والسرور، لأن وجوه المؤمنين إنما تنضر يوم القيامة لما تجده من النعيم والسرور الذي أعد للمؤمنين لعظم منزلتهم عند ربهم وللجاه الذي خصهم الله به.

---

(١) تنوير المقباس: ٣٧٥، التنبيه والرد: ٦٣.

(٢) جامع البيان ٢٩: ١٩١، تفسير غريب القرآن: ٥٠٠، الزجاج عن لسان العرب ٧٠: ٦٩، مقاييس اللغة ٥: ٢٣٩، الكشاف ٣: ٢٤٩.

(٣) عن لسان العرب ٧: ٧٦.

(٤) التبيان ١: ١٩٧، متشابهات القرآن ١: ٩٤.

(٥) لم أعثر على ترجمة كاملة له، وقد ذكره الخطيب البغدادي بأنه الحسن بن أحمد أبو محمد المؤدب، وقال بأنه قد كتب عنه سنة ٤١٧ هـ إنظر تاريخ بغداد ٧: ٤٧٨.

(٦) عن لسان العرب (نضر).

واذا تتبعنا معاني الكلمة واستنبطنا أصولها الحسية، فإننا سنجد في التعبير القرآني تعبيراً رقيقاً قصرت عنه هذه التفاسير. ويعكسن لنا صورة حية في وصف وجوه المؤمنين. فقد اقترنت النضرة بأحب صورة إلى نفس العرب، ألا وهي صورة النبات الناضر، وذلك أن يكون شديد الخضرة مع إشراق ولمعان متأت من طراوة الزرع ونمائه نمواً حسناً. قال ابن الأعرابي: (وأنضَر النبتُ نضُرَ ورقُهُ... وقد أنْضَرَ الشَجَرُ اذا اخضرّ ورقُهُ وربما صارَ النَضْرُ نعتاً يقال شيء نَضْرٌ، وناضِرٌ، والناضِرُ، الأخضرُ الشديدُ الخضْرةِ)[1].

ويبين أبو حنيفة الدينوري[2] أن العشب حين يكون في بدء نبته طريا غضا يكون لونه شديد الخضرة مع إشراق وجمال يطلق عليه النضرة. قال: (واذا كانَ العُشْبُ مع شدةِ خضرتِه مشرقا قيل عُشبٌ نَضر)[3].

وقد اقترنت هذه النضره باللون الأخضر فيقال أخضر ناضر كما يقال أبيض ناصع، وأصفر فاقع[4]. أمّا لماذا اقترنت النضارة بالخضرة دون غيرها من الألوان مع أن النبات متنوع الأشكال والألوان؟ فمن الجائز أن يكون هذا لكثرة اللون الأخضر، وغلبته على سائر النباتات... فإطلاق النضرة جاء على التعميم لا التخصيص؛ لذا نراه أطلق على كل نبات مشرق. أنشد أبو حنيفة:

يرشّحُ نبتاً ناضِراً ويزينُهُ ندىً وليالٍ بعد ذاكَ طوالقُ[5]

(١) نفسه.

(٢) هو أحمد بن داود أبو حنيفة توفي نحو ٢٨٢ هـ كان مهندساً منجماً راوية ثقة فيما يرويه، أخذ عن البصريين والكوفيين، وأكثر أخذه عن ابن السكيت أنظر ارشاد الأديب ١: ١٢٣ – ١٢٤.

(٣) المخصص ١٠: ١٩٥.

(٤) أنظر أيضاً الصحاح ٢: ٨٣٠، المخصص ٢: ١١٠ لسان العرب ٧: ٧٠.

(٥) المخصص ٩: ٧٧ لم أعثر على قائله.

ثم اقترنت النضرة بالنبات الزاهي بصورة عامة ومن ثم تكرر ذكرها مع ذكر الربيع – أجمل أيام العرب وأحلاها – قال الأعشى في ممدوحيه بأنهم يكرمون الجائع حتى تعود له صحته ويقوى، فيصير كالغصن الناضر:

والشافعون الجوعَ عن جارِهِمْ … حتى يُرى كالغُصُن الناضر(١)

وقال الآخر مفتخراً:

إنّا ملوكُ حياً للتابعين لنا … مثل الربيع إذا ما نبته نضرا(٢)

وتغنى الشعراء بذكر الغصون النضرة لما توحيه في نفوسهم من البهجة والسرور قال امرؤ القيس:

فقمنا بإشلاء اللّجام ولم نَقُدَ … إلى غُصْن بانٍ ناضرٍ لم يحّرقِ(٣)

وقال ظالم بن البراء(٤):

فيامَنْ لَدهْر يفسد المرءَ بعدما … يُرى عُصُراً يهتَزُّ كالغُصُن النَضْر(٥)

وإذا كان إطلاق النضرة على النبات مُتأتياً من إشراقه، وجماله فانهُ أطلقِ مجازاً على كلّ شيء زاهٍ خالصٍ من الشوائب كالذهب والخشب والجمال(٦).

---

(١) ديوان الأعشى: ١٥٤.

(٢) الأمالي للقالي ١: ٩ والبيت أنشده أبو بكر ابن الاعرابي ولم ينسبه.

(٣) ديوان امرئ القيس: ١٧٣ وانظر أيضا كتاب النبات: ١٣، ١٤.

(٤) هو ظالم بن البراء بن قطن بن بكر شاعر من بني دارم. أنظر المؤتلف والمختلف: ٢٢٤.

(٥) نفسه. وانظر أيضاً الطرائق الأدبية: ١٠٢.

(٦) مجالس ثعلب ١: ٤٩، جمهرة اللغة ٢: ٣٦٧ الصحاح (نضر): فقه اللغة: ٦٢: لسان العرب (نضر).

ومن هذا الأصل الحسي وهو نضارة النبات، استعير، تعبيرهم عن حُسْن الوجهِ ورونقِهِ بالنضارة[١] وأشار الزمخشري إلى أن نضارة الوجه أطلقت مجازاً[٢].

قال الأعشى متغزلاً:

وَسَبَتْك حِينَ تَبَسَّمت ... بَينَ الأراكَةِ والستارة
وبجِيدِ مغزلةٍ إلى وجهٍ ... تزيِّنُهُ النضارة[٣]

وبعد أن تبين لنا تطور دلالة الكلمة من معناها الحسي الأصلي إلى معانيها الجديدة المعنوية، أمكننا أن نرد على ابن فارس الذي عدّ المعنى الأصلي للكلمة، هو الحسن، والجمال، والخلوص، وعنه تفرقت باقي المعاني[٤]. لأن معنى الجمال والحسن متطور عن المعنى الحسي الأول وهو نضرة النبات، وإشراقه – كما مر بنا – فحين نقرأ قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾[٥] لا نفهم منه جمال الوجوه وإشراقها فحسب، بل ترتسم أمامنا صورة العشب والنبات الزاهي تلك الصورة المحببة التي جعلت العرب يطلقونها على كل من حسن وجوه وأشرق لشبابه، أو لتنعمه.

هذه هي صورة المؤمنين بوجوههم المشرقة، وتقابلها وجوه الكافرين الباسرة الخائفة التي تتوقع المصيبة، والداهية[٦].

---

(١) الأفعال ١٠٧، الصّحاح (نضر): المخصص ٢: ١٥٣.

(٢) أساس البلاغة: ٣٦٥.

(٣) ديوان الأعشى: ١٥٣.

(٤) مقاييس اللغة ٥: ٤٣٩.

(٥) سورةالقيامة ٧٥: ٢٠ – ٢٥.

(٦) انظر الفصل الثالث – ب – توقعهم العذاب.

ومن مجموع هذه التعابير التي تصور حال الناس يوم القيامة، تتضح لنا تمام الوضوح صورة الفزع والذلة اللتين تشملان الكافرين، تلك الصورة التي تنسجم مع الاضطراب الكوني. فيبدو كل ما في الطبيعة مُسَيّر لاستجابة أمر الله في قيام الساعة والحساب، إلا أن هناك ملاحظة عامة نشهدها في الأجواء المختلفة التي تصور هول القيامة، ألا وهي صورة المؤمنين الرائعة التي تنساب بهدوء في هذا الخضم من الاضطراب والفزع، وقد شملتهم طمأنينة، وراحة عظيمتين غير مبالين بالاضطراب الذي يسود الكون، والمجرمين معا. قال الله تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾(1).

وقال تعالى عارضا مشاهد القيامة المفزعة: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾(2).

(1) سورة الانبياء ٢١: ٩٧ – ١٠٣.

(2) سورة الفجر ٨٩: ٢١ – ٣٠.

في هذه المشاهد المفزعة التي تتابع فيها معاني القوة والضعف من دكّ الجبال، وتحطيمها، والشهود، والملائكة وجهنم المهيأة لتعذيب المجرمين. خلال هذه المشاهد المفزعة تناسب صورة المؤمنين المطمئنة غير آبهة بالفزع حولها، وإنما تسير بثقة ورضى الله لتلقى الثواب والجنة ونعيمها. ومن عرض هذين الجانبين معا يتجلى الإعجاز القرآني الرائع، لأن المقارنة بين صورتي الكافرين والمؤمنين تجلّي صورة كل منهما أكثر مما لو عرضت وحدها.

الفصل الرابع

القضاء بين الناس

١.القيم الجاهلية ونفي وجودها .

٢.دقة الحساب .

٣.نتيجة القضاء.

4

الفصل الرابع

القضاء بين الناس

١- القيم الجاهلية ونفي وجودها :

إن القضاء يوم القيامة صوّرته الآيات الكريمة تصويراً دقيقاً رائعاً، تجلّت فيه الإنسانية في موكبها الزاخر حيث يقف الناس بجميع أممهم، واختلاف طبقاتهم سواسية أمام قضاء دقيق لا يتزحزح عن الحق ، ولا يقبل في حكمه إلاّ شهود الصدق. يقف الإنسان وحده أمام الهول مجرداً إلا منْ صفحات أعماله تشهد عليه فتقرر مصيره إذ لا شفاعة، ولا فداء، ولا وسيلة في التهرب من العقاب كالتي اعتادها الناس في الحياة الدنيا. إنه العدل المطلق الذي تقف البشرية أمامه، فيطمئن المؤمن لنهايته السعيدة، لأن أعماله في الدنيا كانت مما ارتضناه الله تعالى وقبله.

ويستطيع الإنسان أن يتخيل هذه الصورة المثالية للقضاء العادل، ويقارنها بالقضاء والعدل في الحياة الإنسانية، فالبيئات عامة تختلف في تطبيقها لموازين العدالة اختلاف الزمان والمكان، والعدل فيها ليس مطلقاً، ولكنه نسبي إلاّ أن العدل الإلهي مطلق، دقيق – كما سترى – في هذا المبحث. أما إذا قارناها بصورة العدالة في المجتمعات الانسانية عند نزل القرآن، فنسجد التصوير رائعاً في رسم تأرجح الحق والباطل في المجتمعات الإنسانية. وفق المقاييس البشرية المتفاوتة وإذا أردنا أن نستعرض صور القضاء الجاهلي نجد أنه صُوّر في مشاهد القيامة؛ ليبين الفرق العظيم بين الحكم الدنيوي ومافيه من قيم اجتماعية، وبين الحكم العادل يوم القيامة.

فلم يكن للقضاء الجاهلي قانون يحكمّه، أو دين يضبطه، إنما كان المرجع فيه رأي رجال عرفوا بسلامة التفكير والحكمة قال اليعقوبي :

(وكان للعرب حكام ترجع إليها في أمورها، وتتحاكم في منافراتها، ومواريثها ومياهها، ودمائها، لأنه لم يكن لهم دين يرجع الى شرائعه، فكانوا يحكّمون أهل الشرف ، والصدق، والأمانة، والمجد، والتجربة)[١]. وتعدد الذين يحكّمونهم في المنازعات، فبعضهم كان يحكّم العرّافة[٢]، وقد يلجأون الى الكهّان[٣]. واشتهر رجال منهم سارت أسماؤهم في الآفاق، لما عرفوا به من الحكمة، والحصافة في الأمور التي يحكمون فيها. ومن هؤلاء أكثم بن صيفي [٤]، وعامر بن الظرب العدواني[٥]، وغيلان ابن سلمة[٦]، وغيرهم ممن تناقلت الكتب أخبارهم.

وكانت العرب ترجع الى أمثال هؤلاء للتحكيم بينهم في المنازعات، أو في تقدير دية قتيل اختلفوا فيها[٧].

---

(١) تاريخ اليعقوبي ١ : ٢٩٩ ، وانظر ايضا الأشباه والنظائر ١ : ١٤٤، ١٤٥

(٢) سيرة ابن هشام ١ : ١٦٦، بلوغ الإرب ٣: ٧٥

(٣) المثالب :٣١، سيرة ابن هشام ١ : ١٥٥، المُنَمّق: ٢٠: ٢٢، ١٠٧. ١٠٩، ١١٠، ١١٥، أخبار الزمان : ٩٥، بلوغ الإرب: ٣: ٢٩٦، تاريخ العرب لجواد علي ٥: ٣١٥، ٣١٧

(٤) المعمرون : ١٩-٢٤، المحبّر : ١٣٥، البيان والتبيين ١ : ٣٦٥ ، عيون الأخبار ١ : ١٠٨، تاريخ اليعقوبي١ : ٢٩٩، الاشتقاق لابن دريد ، ٢٠٧ أسد الغابة ١ : ١١٢-١١٣، الإصابة ١ : ١١٨، وانظر ايضاً: Ency، of Islam P.٣٤٥

(٥) سيرة النبي ١/ ١٣٤، المعمرون: ٥، المحبر: ١٣٥.

(٦) المؤتلف والمختلف: ٢٣٠، بلوغ الإرب ١ : ٣١٦.

(٧) المحبر: ١٣٥، تاريخ اليعقوبي ١ : ٢٩٩، بلوغ الإرب١ : ٣١٩.

ومع الأوصاف التي اقترنت بسير هؤلاء الرجال ، فمن الطبيعي أن تكون أحكامهم تقريبية بين الحق والباطل، لأنهم لا يعتمدون على قانون واحد، أو قاعدة عامة في جميع أحكامهم ، يضاف الى ذلك أن الطرفين المتنازعين غير ملزمين بقبول الحكم، وقد ينقض أحد الطرفين الحكم، فكان بعضهم إذا حكم بقضية ما، لا يبدي رأيه إلا إذا أعطاه الفريقان العهود والمواثيق بتطبيق ما يقضيه بينهما[1]. ومن هنا فخر بعضهم بأن فيهم الحكام الذين لا ينقض حكمهم ولا يرد[2]، وأنهم إذا حِكّموا بين القبائل، فإن حكمهم هو الصواب وغيرهم على خطأ[3].

وفخر الشعراء بمثل هذه الأمور يعكس لنا من جانب آخر افتقار المجتمع للعدالة، وضياع الحق إلاّ عند الحكام الذين مرّستهم السنين، وحنكتهم التجارب، لأن الشاعر إذا أراد ان يمتدح شخصاً، فإنما يضفي عليه قيما، وصفات لا يجدها عند غيره من الناس، أو أنه عرف بها أكثر من غيره. فتغني الشعراء بأن فيهم الحكام العادلين يعكس لنا افتقار المجتمع إلى عدل يسود، وحق يطبق.

أ- الشفاعة والقضاء الجاهلي صورة للمجتمع العربي وتقاليده، وأول ظواهره هو الايمان بوحدةالقبيلة. والتعصب لها في سلمها، وحربها، وهي أن لا ينالهم ضيم، أو تصيبهم هلكة، والتي بها تشتد شوكتهم، ويُخشى جانبهم)[4]. وقد أعمت هذه النظرة عيونهم، فلم تترك لهم مجالا يفرقون فيه بين الحق والباطل، إنما يهرعون

---

(١) أنظر في هذا الأغاني ٣: ١٩-٢٢ ، الكامل لابن الأثير ١: ٧٧ .
(٢) الشعر والشعراء ٢: ٥٩٨
(٣) أنظر ديوان عامر بن الطفيل : ٢٠، ديوان حميد بن ثور : ١٣١، والمفضليات : ١٧٤.
(٤) مقدمة ابن خلدون : ٧٣.

ملبين نداء أيّ مستغيث من أبناء قبيلتهم دون أن يستفسروا عن المعتدي، ولعل أجود قصيدة تبين لنا هذه الروح هي قصيدة قريط بن أُنيف التي يذكر فيها عصبية بني مازن التي حمدوا عليها، وأنهم لا يسألون أخاهم عن المعتدي إذا سألهم النجدة وإنما يلبون نداءه ظالما أو مظلوما[1].

وإذا أسر أحد أفراد القبيلة هرع وجوه القوم، أو شاعر من شعرائهم ليشفعوا له عند غالبيه وآسريه[2]ولعل أكثر ما يؤلم البدوي هو خذلان قومه له حين يعتدى عليه.

أمّا الجوار فإنه رابطة أخرى تحمي الفرد، وتشفع له في حياته. فإذا قتل امرؤ أو أجرم، فإن على مجيريه أن يدافعوا عنه، ويشفعوا له. قال رجل من بني عبد الله بن غطفان ، وقد جاور قبيلة طي وهو خائف:

جَـزىَ اللهُ خَـيْراً طيِّئـاً مـنْ عَشـيرة
ومـنْ صـاحب تَلْقـاهُمُ كـلَّ مجمـع
هُـمُ خَلطـوني بـالنّفوس ودافَعُـوا
ورائـي بـرُكن ذي مناكـبَ مـدفع
وقـالوا : تَعلَـمْ إنَّ مالَـك إنْ يُصَـبْ
نُفـدكَ وإنْ تُحْـبَسْ نُـزَرْكَ ونشـفَع[3]

(١) القصيدة في شرح ديوان الحماسة ١: ٢٣-٣٢ وأنظر ايضا ١: ١٣٠
(٢) ديوان علقمة الفحل ٤٠، ٤١، وأنظر ايضا الكامل لابن الأثير١: ٢٨٨ وقد يطلبون شفاعة رجل له مكانته العظيمة في القبيلة الغالبة نفسها أنظر : أمثال العرب٨، ٩ .
(٣) الكامل للمبرد ١: ٧١، وذكر أبو تمام الأبيات في الوحشيات ونسبها لابن دارة أحد بني عبد الله بن غطفان، انظر الوحشيات : ٢٤٩.

هذه الشفاعة التي اعتادها البدوي في بيئته كانت تقف حائلاً دون تطبيق العدالة، لأن الجاني سرعان ما يتشبث بمن له منزلة وجاه في قومه ليشفعوا له، ويخلصوه من جرمه وأسره[1]. .. فأي شعور رهيب يجتاح العربي إذا سمع بأنه سيأتيه اليوم الذي يقف فيه وحده ضعيفا متهالكا وذنوبه العظام لم يترك منها شيء تشهد عليه، وتدينه. ثم يلتفت فيجد أن كل الوسائل التي كان يتوصل بها إلى النجاة في الحياة الدنيا قد تقطعت وأنه ما من شخص يشفع له، ويعينه على التخلص من العقاب لأن ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾[2]. فلا شفيع ولا نصير، قال الله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾[3].

وهكذا يتمنى المجرمون شفاعة أحد لهم، ويتمنون العودة إلى الحياة الدنيا ليعملوا صالحا، إلا أن الرد ياتيهم جازما مؤلما بأن يوم القيامة لا يترك للمجرمين شفعاء، ولا تقبل وساطة أحد. فأعمالهم تشهد عليهم بما اقترفوه في الحياة الدنيا قال الله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ

(١) وشبيه هذا عقيدة الذين اتخذوا آلهة ليشفعوا لهم عند الله وقد ذكرهم الله تعالى في سورة الأنعام ٦: ٩٤: وانظر أيضاً الروم ٣٠: ١٣، يس ٣٦: ٢٣.

(٢) سورة عبس ٨٠: ٣٧

(٣) سورة الأعراف ٧: ٥٣

يُنصَرُونَ ﴾ [1] وقال أيضا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [2].

وفي سورة غافر يصف الله سبحانه وتعالى هول الموقف يوم القيامة والذي تبلغ فيه قلوب الناس الحناجر، فلا يستطيعون الكلام، لأنهم أيقنوا من الحساب الدقيق الذي لا يترك ذنبا كبيراً، أو صغيراً، إلاَّ وأحضره، ويزيد يأسهم وخوفهم أن ليس لهم شفيع تقبل شفاعته، لأنهم ظالمون مجرمون: ﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [3].

هكذا تنفي الآيات القرآنية الكريمة وجود الشفاعة للكافرين يوم القيامة، ذلك المفهوم الذي كان سائدا في البيئة الجاهلية، لأنه الحق المطلق الذي لا تشوبه شائبة ، ولا يعوقه مفهوم من المفاهيم الجاهلية كالشفاعة مثلا.

ب- الفداء والعدل:

الفداء : وهناك وسيلة اخرى اعتاد البدوي بواسطتها التخلص من أسره، تلك هي وسيلة الفداء، وذلك أن يدفع الأسير دية يفك بها أسره، وإلاَّ فإنه يصبح بحكم العرف ملكا لآسره، وتختلف هذه الدية حسب منزلة الشخص الاجتماعية، فكان فداء

---

(١) سورة البقرة ٢: ٤٨

(٢) سورة البقرة ٢: ٢٥٤

(٣) سورة غافر ٤٠ : ١٨-٢٠

الشخص المتوسط المنزلة مائة بعير[1] وقد تبلغ خمسمائة بعير. أمَّا دية الملوك، ومن يبلغ منزلتهم في العظمة فإنها ألف بعير[2]، ومن هنا فخر أهل اليمن بالأشعث بن قيس[3]؛ لأنه افتدى نفسه بثلاثة آلاف بعير، أي بدية ثلاثة ملوك[4].

وإذا كانت هذه الأرقام تبين لنا دية الاشخاص، واختلافها حسب منزلتهم الإجتماعية، فإنها من الناحية الأخرى تعكس لنا أهمية البيئة في نشوء العادات والتقاليد؛ لأن انتشار الفوضى، وكثرة الحروب، والغارات، وما يتبعها من الأسر، كل ذلك ساعد على إيجاد الدية والفداء لفك الأسرى ولما كانت منزلة الأشخاص تختلف حسب مستواهم المعيشي ومنزلتهم الإجتماعية، فإن ديتهم قُدّرت تبعا لذلك. وقد وصف عوف بن عطية[5] في قصيدة له الأسير يمتلك مالاً يستطيع أن يفك به قيود أسره، يقول:

ومُكبَّـل يُفَـدى بوافـــر مالــــــه

إنْ كـان صـاحب هَجْمـة او أيْصــر[6]

---

(١) المعارف : ٥٥٥

(٢) نقائض ١: ٤٣٢، ٥٣٥، بلوغ الارب ٣: ٢٢

(٣) هو الأشعث بن قيس بن معدي كرب الكندي أمير كندة في الجاهلية والإسلام . كان شاعراً وسيدا كريما وكانت إقامته في حضرموت، ووفد على النبي (ص) بعد ظهور الإسلام . توفي نحو ٥٠٤ . أنظر المؤتلف والمختلف: ٥٥ خزانة الأدب ٢: ٤٦٥.

(٤) المعارف : ٥٥٥

(٥) هو عوف بن عطية بن عمرو بن عبس بن وديعة بن مضر شاعر جاهلي فحل أدرك الإسلام معجم الشعراء : ٢٧٦، خزانة الأدب ٣: ٨٢-٨٣.

(٦) ديوان المفضليات : ٦٣٥.

ويظهر الظلم الإجتماعي في هذا الجانب من المجتمع البدوي الذي قد يلحق الكثيرين . فالحروب مستمرة ، والقتل والأسر يتمثل أمام ناظري المرء كل يوم، ولكنه يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان ذا مال وفير لم يعان من الأسر، أو عقاب جرمه شيئاً، اذ أنه سرعان ما يقدم ماله، ليغسل جرمه، وإذا كان ذا جاه، ومنزلة كبيرتين فإن قومه يسرعون لافتدائه بما يملكون من مال وجاه. وفي أخبار الشنفرى أن قومه قتلوا رجلا كان في خفرة بعض الفهميين، ، فرهنوهم الشنفرى[1]وأمه وأخاه، ولم يفدوهم[2]. .. هكذا يرهن ثلاثة أشخاص مقابل شخص واحد ، ومع ذلك لا يحاول قومهم افتدائهم وفك أسرهم لماذا؟ لأنهم ليسوا سادة ، ولا أغنياء .

وقد شكا طرفة مولاه في شعره بأنه يضيّق عليه الأمر في كل حال سواء شَكَرَه ، أو طلب منه أن يفتدي نفسه:

فلو كانَ مولايَ امرؤ هو غيره

لفرَّجَ كربي، أو لأنظَرَني غدي

ولكن مولايَ امرءٌ هَوُ خانقي

على الشُكر والتَسآل أو أنا مُفتَد[3]

(١) هو عمرو بن مالك الأزدي من قحطان، شاعر جاهلي من فتاك العرب وعدائيهم، وهو أحد الخلعاء الذين تبرأت منهم عشائرهم . قتله بنوسلامان، وهو صاحب اللامية المشهورة بلامية العرب . أنظر الأغاني ٢١: ٧٨ -٩٣، خزانة الأدب ٢: ١٦-١٧

(٢) ديوان المفضليات : ١٩٧-١٩٨.

(٣) ديوان طرفة : ٥٧

والفداء المادي كما عرفه المجتمع العربي ورد في القرآن الكريم فقد أفتدى ابن النبي ابراهيم عليه السلام بكبش عظيم ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1]. كما حدد الله – سبحانه وتعالى- فدية الأسرى المشركين ، فأمّا أن يُمنَّ عليهم بإطلاق حريتهم، أو أن تقبل منهم فدية ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾[2].

هذا الفداء الذي اعتاده العربي في بيئته، وحروبه المستمرة، صورته الآيات الكريمة عند تصويرها للحساب الدقيق يوم القيامة. فالبدوي الذي اعتاد في الحياة الدنيا التخلص من جرمه وأسره، بأن يفتدي نفسه بمقدار من المال، فإنه يوم القيامة لا يمكنه التخلص من العقاب الذي ينتظره، حتى لو امتلك ملء الأرض ذهبا.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾[3] وفي سورة الرعد يبين الله سبحانه وتعالى بأن الذين لم يستجيبوا لدعوة الحق لا يتخلصون من العذاب يوم القيامة حتى لو قدّموا ما في الأرض من الأموال فدية لهم ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ

(١) سورة الصافات ٣٧: ١٠٥

(٢) سورة محمد ٤٧: ٤

(٣) سورة آل عمران ٣: ٩١ ، وانظر أيضا سورة يونس ١٠: ٥٥ .

يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾(1).

وقال الله تعالى ايضاً: ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾(2).

واذا كان في مقدور الأب، أو أي فرد من أفراد القبيلة فداء ابنه أو قريبه، وتقديم ما يملك في سبيل إنقاذه، فإن هذه الأواصر تنقطع كلها يوم القيامة، فلا يفتدي الأب ابنه من العذاب فحسب، بل يتمنى لو أنه يستطيع أن يفتدي نفسه بأعز أحبائه في الحياة الدنيا؛ أو صاحبته أو أخيه، ولكن هيهات له ذلك، فلا يقبل فداء، ولا يبدل عذاب امرئ بعذاب آخر، فكل إنسان يحاسب بما قدم في حياته الدنيا . قال الله تعالى واصفاً حيرة الانسان يوم القيامة حيث يقف وحيداً، فزعاً خائفاً:

﴿ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾(3).

هكذا تعكس الآيات الكريمة صورة الحياة العربية الجاهلية، وتبين لنا كيف تنهار العناصر الاساسية التي تقوم عليها القبيلة، إذ لا شفاعة ولا فداء، بل قضاء عادل تنفصم فيه كل عرى القرابة والصداقة، وكل الروابط الانسانية، فيقف الغني والفقير، وذو الجاه والصعلوك، وحيدين امام قانون واحد حازم.

---

(1) سورة الرعد ١٣: ١٨

(2) سورة الحديد ٥٧: ١٥

(3) سورة المعارج ٧٠: ١٢-١٦

وهذا الفداء معروف في المجتمعات الانسانية قديماً حديثاً، ونفيه في القرآن الكريم يعني نفياً لكل نوع من أنواع الوساطة، أو المال الذي يبرئ المذنب ويخلص المجرم.

العدل: اما العدل فإنّه تعبير آخر له دلالته على البيئة العربية وقد نفت وجوده الآيات الكريمة يوم القيامة:

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [1]. وقال أيضاً: ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [2].

وقد قال المفسرون إن معنى العدل: الفداء[3]، وإذا كان هذا التفسير منسجماً مع الفداء الذي مر بنا بحثه. إلا أننا نجد في دلالات الكلمة المختلفة معنى جامعاً لتفسير المفسرين من جهة، ويعكس لنا صورة من البيئة العربية من جهة أخرى، لأنهم أطلقوا العَدْل على الحمْل يوضع على جانبي الدابة . قال الأصمعي: عَدّلتُ الجوالقَ [4]، على البعير، أعدلهُ عَدلاً، والعَدْل يحمل على جانبي البعير، ويُعدلُ بهما[5].

---

(١) سورة البقرة ٢: ٤٨

(٢) سورة الأنعام ٦: ٧٠

(٣) تنوير المقباس: ٧، مجاز القرآن ١: ٥٣، جامع البيان ١: ٥٧ التبيان ١: ٢١٥ الكشاف، ١: ٥١١.

(٤) الجوالق: وعاء من الأوعية. أعجمي معرب ، أنظر جمهرة اللغة ٢: ١١٠، الصحاح(عدل)، المعرب: ١١٠، لسان العرب(عدل).

(٥) عن لسان العرب (عدل) وأنظر ايضاً جمهرة اللغة ٢: ٤٥٩

وقال الأزهري: العَديلتان : الغرارتان[١]، لأن كل واحد منها تعادل [٢].

وقال ابن دريد: العدْل العُكْم اذا عدل بمثله[٣]. والعُكْم هو نفس عدْل البعير كما يقول الزمخشري[٤].

ومما سبق من أقوال اللغوين يتبين لنا ان العدل هو الحمل الذي يوضع على جانبي الدابة يحمل عليه العربي ما يحتاج اليه في سفره، وسيره على أن يكون ما في الحمل الأول موازياً ومعادلا للحمل الثاني ليتوازن سير الدابة.

قال ابن الاعرابي: (يقال عَدَلتُ امتعة البيت، إذا جعلتها أعدالاً مستوية للاعتكام يوم الظعن) [٥]. واذا ركب رجل على أحد حملي الدابة، فلا بدّ من موازنته بوضع ثقل في الجانب الثاني من الحمل، فيركب معه شخص آخر يوازنه. ومن هنا قالوا عدل الرجل في المحَمَل وعادله ركب معه[٦].

وقد ورد هذا المعنى المادي للكلمة في الشعر العربي، من ذلك قول عوف بن عطية هاجياً:

---

(١) الغرارة: قال الجوهري عنها أنها واحدة الغرائر التي للتبن، وأظنه معرباً. ويبدو أنها كلمة عربية الأصل لقولهم الغرارة شفرتا السيف، وكل شيء له حدّ فحدُّه غراره. أنظر جمهرة اللغة ٣: ٤٥٨، لسان العرب ٦: ٣٢٠ لأن جانبي الحملين والعدلين يمثلان حدَّهما ، ومن هنا سمي الحمل غرارة .

(٢) لسان العرب ٣: ٤٥٩، وانظر ايضاً مقاييس اللغة ٤: ٢٤٧، المحكم٢ :١١

(٣) جمهرة اللغة ٢: ٢٨١

(٤) أساس البلاغة: ٦٤٩

(٥) لسان العرب ١٣: ٤٥٩، وانظر ايضا أساس البلاغة: ٦١٦

(٦) المحكم ٢: ١١.

ولقـــد أراكَ ولا تُـــؤبَّنُ هالكـــاً

عـــدْلَ الاضّرة في ســـنام الأكـــوم [1]

يريد أنه لا يُبكى عليكَ إن مُتَّ، وقد كانت أمه راعية، فكانت تحمله على بعير وتعدل به الأصّرة.

وقال آخر مشبهاً الفتيان بالحمير يحملون أعدالاً قد أثقلها الحمل:

في فتيـــة مـــن بنـــي هنـــد كـــأنَّهُمُ

آذانُ أحْمـــرة يَحملـــنَ أعـــدالاً [2]

أي أن الفتية خاملون لا حراك لهم، ولا شهامة عندهم كأنهم آذان حمير قد تعبت من حمولة أعدالها. وقال آخر:

لمـــا غَـــدَوتُ خَلـــق الثيـــاب

أحمـــلُ عِـــدْلين مـــنَ الـــتُّراب [3]

ومن هذا المعنى المادي لكلمة العدْل أطلقت الكلمة على المعادلة والموازنة مطلقاً، وعلى العدل القسط المراد به الاستقامة التي هي ضد الجور [4]. قال علقمة الفحل:

---

(١) المعاني الكبير ١: ٤٦٩، والبيت لم ينسبه ابن قتيبة

(٢) المصدر السابق ١٠: ٥٧٨

(٣) المعاني الكبير١: ٤٩٦

(٤) جمهرة اللغة ٢: ٢٨١ ، المخصص ٦: ١١٧، المحكم ٢: ١٠

فــلا تعــدلي بينــي وبــينَ مُغَمَّــر

سَــقَتك رَوايــا المــزن حــينَ تُصَّــوبُ [1]

والمغّمر الذي لم يجرب الأمور. والمزن السحاب الأبيض وروايـاه ما حُمّلَ من الماء. يريد منها الآ تعدله مع من لا حكمة ولا خبرة له وقال امرؤ القيس :

فَقُلْــتُ لهــا وقــولُ الحَــقّ ممــا

يَميــل ولــو عَــدَلت بــه الجبــالا [2]

وصورة عدلي الدابة واضحة في هذه الموازنة، ومن هنا أطلقوا العَدْل على المثْل قالوا: (العَدْل: المثيل، وأصله في الدِّية يقال: لم يقبلوا منهم عَدلاً ولا صَرْفا. أي لم يأخذوا منهم دّية، ولم يقتلوا رجلاَ واحداَ، أي طلبوا منهم أكثر من ذلك) [3].

ويبدو مما مَّر بنا من معنى العدْل المادي أن معنى الفداء والدية ليس أصلياً بل متطوراً عن المعنى المادي؛ لأن العدْل لا يمكن ان يُوازَنَ إلاّ بحمل آخر مواز، ومشابه له. ومن هنا فُهم معنى المماثلة، والمشابهة الذي أخذَ منه معنى الفداء، لأن العرب قد اعتادوا في حياتهم أنْ ينتقموا لقتيلهم، ولا يكتفون بعقاب قاتله بل جاوزوا ذلك إلى أن يقتّصوا من غير القاتل، فيقتلوا ندّا له يعدلهُ في مقامه، ومركزه.

---

(١) ديوان علقمة الفحل : ١٠، وانظر أيضاً ديوان حسان : ١٨٢

(٢) ديوان امرئ القيس : ٣٠٩

(٣) لسان العرب(عدل)، وأنظر ايضا مجالس ثعلب ١: ١١ ، المحكم ٢: ١٠ ، أساس البلاغة ٦١٧وأنظر

Arabic English Lexicion Book ١.P.٥. ١٩٧٤

مما يروى في هذا الباب أنه حين قتل جساس كُليبا عرض بنو تغلب على بني بكر بن وائل أن يدفعوا لهم جساساً ليقتلوه بصاحبهم أو يدفعوا لهم همّاما لانه ندٌّ لكليب[1].

وصورة حملي الدابة واضحة المعالم في هذه المعاني، لأنهم لا يقتلون الندّ إلا إذا وازنوا بينه وبين قتيلهم. إلا أن معظم اللغويين فرّقوا بين معنى العَدْل والعدْل قال الفّراءُ:

(العَدْل: في قوله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ قال: ما عادل الشيءَ من غير جنسه ومعناه، فداء شاتكَ اذا كانت شاةٌ ذلك ، والعدْل، المثل، وذلك أن تقولَ عندي عدْلُ غلامك وعدْل تَعْدلُ شاةً او غلامٌ يَعْدلُ غلاما. فاذا أردت قيمته من غير جنسه نصبَت العين، فقلت عَدل، وربما كسرها بعض العرب. قال بعض العرب، عدلُهُ، وكأنَهُ منهم غلط، لتقارب معنى العَدْل)[2]. ومما مرّ بنا يبدو أن المعنين من أصل واحد وهو عدْلا الدابة إلاّ أن تطور معاني الكلمة، ودلالتها جعل العَدْل بفتح العين تختص بمعنى المثْل المعنوي، والعدْلُ بكسرها تختص للدلالة على المثْل المادي، ويؤيد وجود الأصل الواحد قول الفراء في رواية بعض العرب العدْلُ واحدٌ في معنى المثْل. وقال الزجاج: (العَدْلُ والعدْلُ واحدٌ في معنى المثْل . قال والمعنى واحد، كأنَّ المثْلَ من الجنس أو غير الجنس)[3].

(١) خزانة الأدب١ : ٣٠٢ ، الكامل لابن الأثير ١ : ٢١٨ سرح العيون : ٩٧

(٢) لسان العرب (عدل) وأنظر ايضاً جامع البيان ١ : ٢٦٩ ، التبيان ١ : ٢١٥

(٣) لسان العرب ١٣ : ٤٥٩

هذه المعاني المتعددة لمعنى العدل نستطيع أن نفهمها في الآيات الكريمة فقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[1].

إن كل وسائل الشفاعة، والتخلص من العقاب ينتفي وجودها يوم القيامة فلا يمكن ان يخّلص الإنسان دفع الدية، والفداء، ولا يؤخذ مكان المجرم عدلُهُ ولا ندُّه، لأنَّ ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[2].

وفي كل هذا نجد صوراً من البيئة العربية، صورة مادية متمثلة في الموازنة الدقيقة بين حملي الدابة، وتنقلنا هذه الصورة الى العَدْل الدقيق في موازنة أعمال الشخص، كما تجسد لنا صورة الفداء، والدية التي اعتادها العربي في بيئته الحربية، فنفت الآيات الكريمة وجودها، لأن قضاء يوم القيامة عادل لا تشوبه شائبة من شوائب الظلم في الحياة الدنيا.

٢- دقة الحساب:

أ- تصويريها بالموازين: إذا استعرضنا الآيات الكريمة التي تصور دقة الحساب يوم القيامة وجدنا فيها جانباً آخر من جوانب البيئة العربية والبيئة الإنسانية عامة، ، فالقضاء يوم القيامة عادل، لا يبخس الناس شيئاً تقاس فيه أعمال الخير والشر، ويوازن بينهما بدقة بالغة، وقد صورت هذه الدقة بالموازين والمعايير التي عرفها العرب في بيئتهم، وحياتهم الاقتصادية ففي سورة (المؤمنون) تصور الآيات

---

(١) سورة البقرة ٢: ٤٨

(٢) سورة المدثر ٧٤: ٣٨

الكريمة دقة الحساب وكيف أن الناس بعد نفخ الصور يحشرون من قبورهم، ثم توزن أعمالهم ويقارن بين السيء والصالح منها، فتكون نتيجة الحساب أمّا الجنة وأمّا النار: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾[1]. وقال تعالى ايضاً: ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[2]. وهذه الموازنة عادلة لا تبخس أحداً شيئاً قال الله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾[3].

واختلف المفسرون في تأويل هذه الآيات الكريمة هل المراد بالميزان وزن أعمال العباد حقاً في ميزان له كفتان، يُعرف به المؤمن من الكافر والصالح من المجرم؟ أم أنه تصوير مجازي للعدالة والقضاء السوي؟ .

لقد ذهب ابن عباس وفريق من المفسرين المذهب الأول.

أما التفسير الثاني فقد روى الطبري عن مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ ﴾[4]. قال: (ليس ميزان انما هو مثل يضرب)[5]. ونقل الطوسي عنه

(١) سورة المؤمنون ٢٣: ١٠١-١٠٣

(٢) سورة الاعراف ٧: ٨-٩

(٣) سورة الانبياء ٢١: ٤٧

(٤) سورة القارعة ١٠١: ٦

(٥) جامع البيان ٣٠: ٢٨٢ ، وكذا فسر أبو عبيدة قوله تعالى في سورة الحجر ١٥: ١٩، أنظر مجاز القرآن ١: ٣٤٨

ايضاً: (الوزن عبارة عن العدل في الآخرة وانه لا ظلم فيها على أحد) [1]. فمجاهد يرى في الميزان مثلا ضربه الله سبحانه وتعالى ليصور دقة الحساب بصورة أفها الانسان في حياته.

وقد رد القاضي المعتزلي عبد الجبار بن أحمد على من اعترض على تفسير الموازين بالمجازاة والحساب الدقيق قال: (وجوابنا أن المراد بذكر الموازين العدل في باب المجازاة، ولذلك قال تعالى بعدها ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [2].

وقال الزمخشري بعد أن نقل التأويل الأول (وقيل هي عبارة عن القضاء السوي والحكم العادل فمن ثقلت موازينه جمع ميزان او موزون، أي فمن رجحت أعماله الموزونة التي لها وزن وقدر، وهي الحسنات، أو قانون به حسناتهم) [3].

فالله سبحانه وتعالى أراد أن يبين للبشر دقة الحساب الذي يحاسبون به يوم القيامة، فصوّره بهذا التصوير الرائع الذي لا يبخس أحدا حقه، وحقيقة الموازنة لا تكون إلاّ بوضع شيء بكفة ، يقابله بالكفة الآخرى شيءآخر، فيوازن بينهما، وهي صورة الموازنة الدقيقة نفسها التي مرت بنا في صورة عدلي الدابة، ومن هنا قالوا (فلان

(١) التبيان ٤: ٣٧٩

(٢) تنزيه القرآن ، ٥٣٥، وأنظر ايضاً أمالي الشريف المرتضى ١: ٩ تلخيص البيان : ١٤٢ ، متشابهات القرآن : ١١١

(٣) الكشاف ١: ٥٤٠

أوزن بني فلان أي أوجههم)[1]. فكأنهم وازنوا بين رجاجة تفكيره وبين تفكير قومه فوجدوه أكثر حكمة منهم فقالوا هو أوزن منهم.

واذا كان للكلام قيمة في نفس سامعه قالوا عنه انه يوزن وزناً[2] واذا أراد شاعرهم أن يفخر بقبيلته قارن بينها وبين أعدائها بصورة تظهر فيها رجاحة كفة قبيلته. قال الربيع بن زياد العبسي[3].

لـئن رَحَلـتْ جمـالي لا إلى سـعة
لا مثْلُها سـعة عَرضـاً ولا طـوُلا

بحيث لو وُزَنتْ لَخْمٌ بأجمعها
ما وازنـت ريشـةً مـن ريـش سَـمؤيلا[4]

وهكذا تطور معنى الموازنة من الأصل المادي إلى المعنوي، فالربيع بن زياد حين أراد أن يبين عظمة قبيلة سمويل وقوتها تجاه لخم وضعفها صورها لنا بصورة مادية، فكأنه وضع لخماً في كفة ميزان يقابلها الا ريشة من ريش سمويل! إنها صورة متعلقة بالموازنة المادية، والمعادلة بين اثنين متقابلين متماثلين.

(١) عن المخصص ٢: ١٦٣
(٢) أنظر البيان والتبيين ١: ١١١-١١٢
(٣) هو الربيع بن زياد بن عبدالله بن سفيان بن ناشب العبسي، أحد دهاة العرب وشجعانهم ورؤسائهم في الجاهلية نادم النعمان بن المنذر ثم أفسد لبيد بينهما، أنظر المحبر ٢٩٩-٣٠٠، الأغاني ١٤: ٩٢
(٤) شرح القصائد السبع: ٥٠٩

وهناك معنى مادي آخر تطور عن معنى الموازنة الحسية ألا وهو معنى الموازين المستعملة في الكيل والوزن، وهي وإنْ كانت نتيجة للتطور الاقتصادي والمعيشي في المجتمعات، فإننا نجد فيها صورة مادية قوية الصلة بالموازنة البدائية المطلقة عن التحديد، وذلك حين يوضع شيئآن في كفتين متعادلتين أو في عدلين متقابلين. وقد عرف العرب الموازين ومعاييرها خاصة في البيئة المكية التي نزلت فيها الآيات الخمسة السابقة بكونها مركزاً دينياً يحجه سنوياً عدد كبير من العرب، وبذلك يتيحون للمكيين سوقاً تجارياً للمبادلة والاستهلاك[١]. وقد عثر الباحثون على عدد من أثقال الموازين التي كانت مستعملة في اليمن وعدن وصنعاء[٢].

وقد قالوا في اللغة وزنت الشيء وزناً، والميزان معروف[٣].

وفي القرآن الكريم آيات تأمر بإيفاء الميزان والكيل، وعدم الخسران في الوزن[٤]. مما يؤكد شيوع استعمال الموازين ومعرفة العرب لها.

وهكذا صورت الآيات القرآنية الكريمة العدل المطلق يوم القيامة، ورسمته بصورة مادية تنقل الى الذهن العربي صورا كثيرة من بيئته، صورة الموازنة والمعادلة بين الأشياء، وصورة الميزان الدقيق الذي لا يبخس أحداً حقه، فأعمال العباد يوازن بينها موازنة دقيقة، فيحاسب الإنسان عل أعماله إنْ خيراً أو شراً، فان كانت أعمال الخير أكثر من أعمال الشر، كان جزاؤه الجنة والثواب، وإن غلبت شروره حسناته لقي

---

(١) محاضرات في تاريخ العرب لصالح العلي : ٩٤

(٢) التاريخ الجغرافي: ٥٠

(٣) الصحاح ٦: ٢٢١٣، وأنظر ايضا المخصص ١٢: ٢٦٣

(٤) سورة المطففين ٨٣: ١-٣

العقاب في جهنم، وُصّور هذا الحساب الدقيق بكفتي الميزان؛ لأنها إذا عودلت معادلة دقيقة لم تبخس الوزن شيئاً.

ب- المثقال والذّرة ، قال الله تعالى في سورة يونس: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [1].

وقال الله تعالى ايضاً : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [2].

فأعمال الإنسان مهما كانت ضئيلة يجدها أمامه يوم القيامة، ويحاسب عليها إنْ كانت خيراً أو شراً، وقد صورت هذه الدقة بمثقال الذرة . والظاهر أن المثقال من معايير الأوزان الصغيرة ، وقد ذكر الجوهري أنه (واحد مثاقيل الذهب)[3]. ومن الصعوبة بمكان أن نحدد مقدار هذا الوزن، لأنه اختلف باختلاف البيئات والأزمان[4]. والمهم في هذا أنه اطلق مثلا في الصغر والضآلة [5]. ولا يهمنا كون المثقال من معايير الأوزان التي استعملها البيزنطيون في امبراطوريتهم كما ذهب بعض

---

(١) سورة يونس ١٠: ٦١

(٢) سورة الزلزلة ٩٩: ٦-٨

(٣) الصحاح ٤: ١٦٤٧

(٤) أنظر إغاثة الامة : ٤٩

(٥) الصحاح وانظر أيضاً ديوان الشماخ: ١١٥

الباحثين(1)، إنما المهم في ذلك أن المثقال كان معروفاً في بلاد الشام، وانتشر بين العرب، وخاصة في البيئة المكية لكونها مركزاً دينياً، وممّرا للقوافل التجارية(2). مما يعطينا صورة لشيوع استعمال المعايير عندهم ثم فهمهم للآيات الكريمة التي ورد ذكر الموازين والمعايير فيها .

وقد فسر المفسرون مثقال الذرة بأنه زنة ذرة ، واقتران المثقال بالذرة يعطينا صورة أكثر وضوحاً للدقة المقصود بيانها في الآيات الكريمة، لأن الذرة هي النملة كما قال المفسرون (3). وكذا قال اللغويون(4). وخصوها بأصغر النمل .

وهناك من فسر الذرة بأنها (كل جزء من أجزاء الهباء في الكوة ذرة،وفيه دليل على أنه لو نفص من الاجر ادنى شيء واصغره، أو زاده في العقاب لكان ظلماً، وأنه لا يفعله لاستحالته في الحكمة) كما قال الزمخشري(5). وكذا ورد المعنى في كتب اللغة(6).

واقتران المثقال بالذرة يعطينا صورة للدقة والعدالة التامة التي لا تترك للمرء حسنة قام بها في حياته الدنيا دون مجازاة، ولا سيئة إلا ويحاسب عليها، وقد قيل لعائشة رضي الله عنها وقد تصدقت بحبة عنب، أتتصدقين بحبة عنب؟ قالت: إن فيها لمثاقيل

---

(1) Ency . Of Islam .II . P . ١٠٢٣

(٢) أنظر محاضرات في تاريخ العرب : ٩٤ وقد ذكر المثقال في الشعر مثلا في الموازنة ، أنظر البيان والتبيين ٣: ٣٧٤، مجالس ثعلب ١: ٤٢٣.

(٣) تنوير المقباس : ١٣٥ ، تفسير الخمسمائة آية : الورقة (٩٣)، مجاز القرآن ١: ٢٧٨، جامع البيان ١١: ١٣، التبيان ٥: ٤٦٠

(٤) مجالس ثعلب ٢/ ٤٧٥، جمهرة اللغة ١/ ٧٨، الصحاح ٢/ ٦٦٣.

(٥) الكشاف ١: ٣٩٧.

(٦) مقاييس اللغة ٢: ٣٤٣، لسان العرب (ذرر)

ذر[1]. ويصّور لنا هذا القول دلالة كلمة الذرة في الذهن العربي، وكيف أن حبة العنب الصغيرة فيها مثاقيل كثيرة من الذر.

وفي حديث الجاحظ عند ذكر قوله تعالى ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[2]. قال: (فكان ذلك دليلاً على أنه من الغايات في الصغر، والقلة، وفي خفة الوزن وقلة الرجحان)[3].

وقال ثعلب إنّ مائة منها وزن حبة من شعير فكأنها جزء من مائة[4].

ومن هنا تتبين لنا صورة الذرة، وأنها أطلقت على صغار الأشياء من النمل والتراب الدقيق الناعم، ولا يوجد بين أيدينا من مصادر ما يشير إلى استعمال العرب ذرات التراب أو النمل أساساً مادياً للموازنة بين الأشياء الدقيقة جداً، لأنهم ضربوا مثقال الذرة مثلاً في القلة والخفة[5].

ومما يدلنا على أن مثقال الذرة في الآيات الكريمة ضرب مثلاً للدقة التامة في حساب يوم القيامة، وهو ورود آيات كريمة أخرى في غير مجال يوم القيامة. ضرب فيها مثقال الذرة مثلاً للدقة والضآلة، فالآلهة التي يدعوها المشركون لا تملك مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض[6].

---

(١)الحيوان ٤: ٣٨

(٢) سورة الزلزلة ٩٩: ٨

(٣)الحيوان ٤: ٣٨

(٤) ثمار القلوب: ٣٤٩

(٥) نفسه

(٦) انظر سورة سبأ ٣٤: ٣

وهذه الدقة نفسها صورت بتعبير آخر اقترن بالمثقال أيضاً. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾(1).

فلم تكتف الآيات الكريمة بذكر الموازين العادلة التي توزن بها أعمال العباد، إنما ضربت حبة الخردل مثلاً لدقة القضاء وعدالته. وحبة الخردل معروفة كما يقول الجوهري(2).

ومن الخردل جاء استعمال مادي آخر، وهو قولهم خَرْدَلْتُ اللّحمَ إذا قَطَّعْته قِطَعاً(3).

وقال ابن فارس مفسراً العلاقة بين التعبيرين (خَرْدَلْتُ اللحَمَ: قَطّعتُه وفَرقتهُ، والذي عندي في هذا أنه مشبه بالحب الذي يسمى الخردل)(4).

ومن الواضح أن هذا التطور الجديد لمعنى الكلمة جاءها نتيجة لصغر حبة الخردل ومن هنا ضربت مثلاً في الصغر والضآلة كما هو الحال مع الذرة(5).

ومع أن المصادر العربية لا تشير إلى استعمال حبة الخردل في الوزن – كما هوا لحال مع الذرة – فمن المحتمل أن يكون العرب قد استعملوها عياراً صغيراً للموازنة

---

(1) سورة الأنبياء ٢١: ٤٧

(2) الصحاح ٤: ١٦٨٤

(3) جمهرة اللغة ٣: ٣٣٠، وانظر أيضاً الصحاح ٤: ١٦٨٤، لسان العرب ١٣: ٢٥١

(4) مقاييس اللغة ٢: ٢٤٩، وانظر أيضاً:

Arabic English Lexicon. Book ١. Part ٢. ٢٧١

(5) الوحشيات: ٢١٦، الأشباه والنظائر: ٣٦.

بين الأشياء الدقيقة، وضربت الآيات الكريمة حبة الخردل مثلاً لدقة الحساب والموازنة بين أعمال البشر.

ومن هنا تتضح لنا الصورة المتعددة الجوانب التي تعكسها لنا الآيات الكريمة في تصوير الحساب الدقيق ليوم القيامة؛ لأنه حساب عادل لا يقبل للكافرين وساطة أحد، ولا تقبل منهم فدية ولا عَدْل، لأن كل إنسان محاسب على ما قدّم وأخّرَ في حياته، ويوازن بين أعماله موازنة دقيقة عادلة، يضاف إلى ذلك جوارح الإنسان تكون شهوداً عليه[1]. تشهد على ما اقترفه في الحياة الدنيا، فلا تظلم نفس شيئاً، ولا يضيع حق أحد أبداً.

٣- نتيجة القضاء:

بعد أن توازن أعمال الناس، وتقاس حسناتهم وسيآتهم، تظهر نتيجة القضاء العادل، ومعرفة الإنسان لقضاء الله فيه صوّر بتعبير قرآني رائع له دلالته على البيئة العربية، والتفكير والانساني، إلى جانب تعبيره عن الغرض الأصلي المراد منه بيان العدالة المطلقة لحساب يوم القيامة.

فالمؤمن يتسلم نتيجة القضاء بكتاب يأخذه بيده اليمنى، أما الكافر فإنه يتسلم كتابه بيده اليسرى قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[2]. وعند تسلم الإنسان كتابه بيمينه تأخذه الفرحة، فلا يستطيع كتمانها فينادي الناس حوله أن تعالوا شاركوني

(١) سورة فصلت ٤١: ٢٢.

(٢) سورة الاسراء ١٧: ٧١. .

فرحتي، واقرأوا نتيجة قضاء ربي... أمّا الكافر فلا حاجة له بقراءة كتابه؛ لأن نتيجته معروفة ما دام قد تسلمها بيده اليسرى.

وفي سورة الحاقة نقرأ مشاهد متنوعة ليوم القيامة حيث يحاسب الناس بعد النفير، فمن تسلم كتابه بيمنه يجد النعيم والثواب، ومن تسلمه بشماله يجد العقاب والعذاب.

﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾[1].

وبهذا التعبير نفسه أُطلق اسم أهل اليمين على المؤمنين الذين فازوا برضى الله وثوابه. أمّا الكافرون فقد أطلق عليهم أهل الشمال.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ

(١) سورة الحاقة ٦٩: ١٣-٣٢.

﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾[1].

وقد علل بعض المفسرين سبب تسمية المؤمنين بأصحاب اليمين، وتسمية الكافرين بأصحاب الشمال. فقال بعضهم لأن الطائفة الأولى تتسلم كتابها بيمينها، والثانية بشمائلها[2] أو أنهم يؤخد بهم ذات اليمين إلى الجنة، والذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار[3]، أو يعني به أصحاب اليمن والبركة والثواب من الله تعالى وأصحاب المشأمة معناه الشر والنكد وعقاب الأبد[4].

وللمرء أن يتساءل: لماذا أصبحت اليمين دليل الخير، والسعادة، والشمال دليل الشر والعقاب المنتظر؟ حتى إذا تسلم الإنسان كتابه عرف نتيجة قضاء الله فيه من اليد التي تسلم بها كتابه.

لقد ذكر الزمخشري توجيهاً أدبياً لهذه التسمية فقال مضيفاً إلى ما سبق ذكره من تعليل تسمية أهل اليمين وأهل الشمال بقوله:

(وأصحاب المشأمة الذين يؤتونها بشمائلهم أو أصحاب المنزلة السنية، وأصحاب المنزلة الدنية، من قولك: من قولك فلان مني باليمين، وفلان مني بالشمال، اذا وصفتهما بالرفعة والضعة وذلك لتيمنهم بالميامين، وتشاؤمهم بالشمائل، ولتفاؤلهم بالسانح وتطيرهم من البارح، ولذلك اشتقوا اليمن من اليمين، وسموا الشمال

---

(١) سورة الواقعة ٥٦: ٢٧-٤٤، وانظر أيضاً سورة المدثر ٧٤: ٣٩.

(٢) تنوير المقباس: ٣٣٨، تفسير التستري: ٩٧.

(٣) جامع البيان ٢٧: ١٧٠، التبيان ٩: ٤٨٩.

(٤) التبيان ٩: ٤٨٩.

الشؤمى. وقيل أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، أصحاب اليُمنى والشؤم، لأن السعداء ميامين على أنفسهم بطاعتهم، والأشقياء مشائيم عليها بمعصيتهم)[1].

ومن هذا التعليل الأخير الذي يرى أن أهل اليمين سموا بذلك، لأنهم ميامين على أنفسهم، وبالعكس أهل الشمال. من هذا التعليل نعود إلى الفكرة الأولى في إطلاق اليمين على الخير، والشمال على الشؤم، ذلك أننا إذا عدنا إلى البيئة العربية وجدنا فيها صدى الآيات الكريمة واضحاً في تفكير العربي ومثله. فالتشاؤم والتفاؤل لعبا دوراً مهماً من تفكير العربي، وتوجيه تصرفاته، وأعماله، ولنبدأ باليمين والشمال لأنهما موطن بحثنا.

وأول ما يتبادر إلى الذهن هو فكرة الزجر[2]؛ لأنهم كانوا يصيحون على الطائر أو الظبي إذا مرّ بهم، فإن انحرف إلى جهة اليمين تفاءلوا به وهو السانح، وإن انحرف إلى جهة اليسار، تشاءموا منه، وهو البارح[3]. وقد ذكر بعضهم[4] اختلاف القبائل العربية في التفاؤل، والتشاؤم من البارح، والسانح، وليس لهذا الاختلاف أهمية كبيرة فيما نحن بصدده، فالقرآن الكريم نزل بلغة قريش، وتعابيرها، وأكثر ما وردنا من الشعر يمثل لنا الوجهة الأولى في التفكير العربي: وهي التفاؤل من السانح، والتشاؤم من البارح. قال زهير بن أبي سلمى:

---

(١) الكشاف ٣: ١٩٣، وانظر أيضاً تفسير التستري: ١٢١

(٢)انظر حول فكرة الزجر: الحيوان ٣: ٤٣٨، فما بعدها، الزينة، الورقة ٢٥٢ (أ)، زهر الآداب ٢: ٤٩٠ فما بعدها، وقد ذكر ابن النديم الكتب المؤلفة في الفأل والزجر وما اشبه ذلك. انظر الفهرس ٤٥، وانظر ايضاً تاريخ العرب لجواد علي ٥: ٣٢٨.

(٣) جمهرة اللغة ١: ٢١٦، الصحاح ٣: ٦٦٨، مقاييس اللغة ١: ٢٣٩، أساس البلاغة: ٣٩٤.

(٤) جمهرة اللغة ١/ ٢١٦، المعاني الكبير ١/ ٢٧٣، وانظر أيضاً:

Ency. Of Religin: vol ٤. p: ٨١٦

فَلَـــما أنْ تَحَمَّـــلَ أهْـــلُ لَـــيلى
جَـــرَتْ بَيْنَـــي وبَيْـــنَهُمُ الظِبـــاءُ
جَـرَتْ سُـنُحاً فقلـتُ لهـا أجيـزي
نَـــوى مَشْـــمولةً فمتـــى اللّقـــاءُ[1]

تتطير به، لأنه لا يمكنك أن ترميه حتى تنحرف)[2].

ويتبين لنا من هذا التعليل اللطيف مدى تأثير البيئة على تفكير الإنسان وسلوكه سبل الحياة. فالبيئة العربية شحيحة بالمواد الغذائية، مفتقرة إلى ما يقوّم حياة البدوي، فهمّه أن يجوب الفيافي يتابع ظبياً، أو يختال طائراً ليحصل على رزق يومه فإذا تمكن من صيده فتلك فرحته وغنيمته، يرجع إلى أهله مسروراً، وإنْ لم يتمكن من صيده رجع خائباً. ومن هنا جاءت فكرة تفاؤله، وتشاؤمه، لأنَّ مرور الطائر إلى يمين الصائد، معناه التمكن من صيده، وبعكسها إن ابتعد إلى جهة اليسار، فإنّه بذلك يبتعد عن سلاح الصيد الذي يُحمل عادة باليد اليمنى، فيفلت الطائر من صائده.

هذه هي الفكرة الأساسية للتفاؤل من السانح، والتشاؤم من البارح أو بالأحرى فكرة اليمين والشمال. وقد ظلت هذه الفكرة عالقة في ذهن العربي حتى في الحالات

(١) شرح ديوان زهير: ٥٩، وانظر أيضاً شرح ديوان لبيد: ١٤٤ ديوان عنترة: ٤١، ديوان جران العود: ٣، ٥٣، ديوان الحماسة: ١٧٩.
(٢) النهاية في غريب الحديث ١، ٨٥.

التي لا يروم فيها الصيد، وأصبح يستدل من حركات الحيوانات على ما يستقبله من خير أو شر، كما كانت حاله من قبل مع صيده إذا مرّ إلى اليمين، أو الشمال[1].

ويتبين مما مرّ بنا أن يدي الإنسان هما الاساسان الأصليان في ظهور فكرة التفاؤل، والتشاؤم. وكون اليد اليمني هو القوية التي تعين الإنسان على صيده هي التي أوحت لهم بالتفاؤل من الطائر، أو الظبي إذا مرّ سانحاً، ومن هنا أيضاً جاء إطلاقهم اسم الشؤمى على اليد اليسرى[2].

وقد ورد ذكر اليمين في القرآن الكريم دالة على القوة، وذلك في قصة النبي موسى (عليه السلام) ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾[3].

فقد اقترن الضرب في الآية الأخيرة باليمين، لأن فيها القوة وشدة البطش فأخبرنا في الآية عن شدة ضربه لها، وإنما ذكر اليمين، لأن قوة كل شيء في ميامنه[4].

وقال تعالى أيضاً: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾[5].

---

(١) انظر شرح ديوان كعب بن زهير: ٢٤٠، شرح اشعار الهذليين ١: ٤٢. المعاني الكبير ١: ٥٦١، جمهرة أشعار العرب: ٤٣. وانظر أيضاً المخصص ٦: ١٩٥،

Ency- of Religion: vol. p. ٨١٦- ٨١٧

(٢) المخصص ٢: ٣.

(٣) سورة الصافات ٣٧: ٩٠-٩٣.

(٤) مجالس ثعلب ٢: ٤٦٩. وانظر أيضاً اسرار البلاغة: ٤٠٢، الخصائص ٣: ٢٤٩، تلخيص البيان: ٢٨٧، الكشاف ٣: ٣٩. متشابهات القرآن ١: ٨٠، وانظر الشعر في ديوان الشماخ: ٩٧.

(٥) سورة الحاقة ٦٩: ٤٤-٤٦

ومن ثم اقترنت دلالة اليمين في الذهن العربي على الخير، والبركة لأنها مركز القوة، والسيطرة اللتان تشكلان عماد حياة العربي في بيئته المتخاصمة، المتطاحنة، فإذا أرادوا بيان مكانة الرجل عندهم قالو: إنه بمنزلة اليمين، وبعكسها إذا أرادوا تحقيره قالوا هو بمنزلة الشمال، قال ابن الدمينة[1]:

أبينـــي أفي يُمنْـــى يَـــديكِ جَعلتِنِـــي

فـــأفرحَ أمْ صـــيَّرتني في شـــمالكِ[2]

أي هل أنا من المقدمين عندك أم من المؤخرين؟

ومن مجموع هذه الدلالات اشتقوا من اليمين اليُمن لدلالة على البركة والخير، فإذا امتدحوا شخصاً قالوا عنه: إنه ميمون[3] ومن هنا نرى أن التعبير القرآني المعجز يعطي من الصور والإيحاءات ما تعجز عن التعبير عنه صفات طويلة[4].

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى
عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ
﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾

---

(١) هو عبد الله بن عبيد الله بن أحمد بن خشعم والدمينة أمه، شاعر بدوي، كان رقيق الشعر وهو من شعراء العصر الأموي. اغتاله مصعب بن عمر السلولي وهو عائد من الحج سنة ١٣٠ هـ. أنظر معجم الشعراء ٤٠، الاغاني ١/ ١٤٤.

(٢) ديوان ابن الدمينة: ١٧.

(٣) وقد وردت هذه الفكرة في بعض الأساطير العربية. أنظر تاريخ العرب: ١٤

(٤) جمهرة اللغة ٣، ١٨١، لسان العرب ١٧: ٣٥.

مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾(١).

فالآيات الكريمة لم تفصّل في كيفية معرفة الناس نتيجة قضاء الله فيهم، وإنما عرضت في تعبير جامع لكل الصور والايحاءات التي يتصورها الذهن العربي لليُمن، والبركة والشؤم والشر. فإذا أردنا المعنى العام المقصود من الآيات الكريمة فهمنا أنه سبحانه وتعالى بعد أن يقضي بين الناس قضاء عادلا ينقسم الناس إلى قسمين نتيجة أعمالهم فإذا كانت حسنة رضي الله عنهم وأثابهم، وإن كانت سيآتهم كثيرة يئسوا، لما ينتظرهم من العقاب والعذاب.

هذا المعنى نجده في الآيات الكريم ة محلّى بإطار من الصور، والإيحاءات العالقة في الذهن العربي في التيمن من اليد اليمنى والتشاؤم من اليسرى، وإطلاق اليمين على البركة والشمال على الشر والشؤم.

ومن هنا نستطيع أن نجمع كل المعاني التي ذكرها المفسرون في تسمية أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال. فأصحاب اليمين هم المفضلون، لأنهم يثابون على أعمالهم الحسنة في الحياة الدنيا، وهم أيضاً ذوو المنزلة الحسنة والمكانة المرموقة عند ربهم بعكس أهل الشمال.

هكذا تعرض الآيات الكريمة نتيجة القضاء بين الناس، وأن المؤمنين – أصحاب اليمين – يلقون النعيم والثواب، على حين يلقى الكافرون – أصحاب الشمال – العقاب والعقاب.

---

(١) سورة الحاقة ٦٩: ١٩-٢٢، ٢٤-٣٢.

الفصل الخامس

العقاب بالنار

١. عذاب النار
٢. تسميتها
   أ- جهنم
   ب- الهاوية
   ت- الجحيم
   ث- السعير
٣. لهيب النار
٤. شررها
٥. شراب أهل النار
   أ- الحميم
   ب- الصديد
   ت- المهل
٦. طعامهم
   أ- الضريع
   ب- الزقوم
٧. صنوف أخرى من العذاب
   أ- السلاسل والاغلال
   ب- طلاء القطران

5

الفصل الخامس

العقاب بالنار

عذاب النار:

بعد أن يحاسب الناس حساباً دقيقاً، ويقضى بينهم ينقسمون إلى فريقين : فريق المجرمين حيث العقاب والنار، وفريق المؤمنين حيث الجنة والثواب. وفي المقابلة بين الصورتين يتجلى الإعجاز القرآني في تصوير البون الشاسع بين عقاب المجرمين، ونعيم المؤمنين. وكلتا الصورتين تثير في النفس أحاسيس وصوراً شتى تتراءى فيها ملامح البيئة العربية واضحة كل الوضوح، كما نجد فيها صوراً إنسانية زاخرة بالحياة . يقرأها المرء، فيفزع من صور العذاب، ثم يعود ليطمئن، ويرتاح عند قراءته لآيات النعيم. قال الخطابي ذاكراً بلاغة القرآن وتأثيره السحري في النفوس:

(فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوما، ولا منثورا، اذا قرع السمع خلص الى القلب في اللذة، والحلاوة في الحال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر له النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه، عادت مرتاحة، قد عراها الوجيب، والقلق وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب. . .)[1].

---

(١) رسالة في بيان إعجاز القرآن ٦٤.

قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾[1].

إنه الاعجاز القرآني الرائع الذي ينقل النفس في لحظات متعددة من الهدوء الشامل، والنعيم الرائع، تنساب فيه، وتتأمله بإعجاب إلى الخوف الرهيب والعذاب الموجع ترتاع منه، وتتصدع خوفا وهلعاً في تصور النار، وعذابها الرهيب قد اذهلت المسلمين من عرب وأعاجم، كما أذهلت غير المسلمين، فراحوا يبحثون عن تعليل يعللون به الرهبة العظيمة التي تثيرها التعابير القرآنية في وصف نار جهنم ولظاها.

لقد علل المتكلمون ترهيب زرادشت لأصحابه، وتوعده لهم بعقاب الثلج دون النار بأن زرادشت كان من أهل بلخ، وهي منطقة لم يعرف سكانها (إلاّ الأذى بالبرد ولا يضربون المثل الاّ به، حتى يقول الرجل لعبده: لئن عدت الى هذا لأنزعن عنك ثيابَك، ولاقيمنّك في الريح، ولاوقفنّك في الثلجِ، فلما رأى موقع البرد منهم هذا الموقع، جعل الوعيد بتضاعفه، وظن أن ذلك ازجر لهم عما يكره)[2] .

(١) سورة الحاقة ٦٩: ١٩-٣٤.

(٢) الحيوان ٥: ٦٧

وهذا التعليل صادر عن فكر عميق عارف بأثر البيئة، وأهميتها، بالنسبة لتفكير السكان، وطبيعي أن يناقش المجوس وغيرهم عذاب نار الآخرة في القرآن الكريم من هذه الوجهة أيضاً، فقال بعضهم: (فلعل أيضاً صاحبكم انما توعد أصحابه، لأن بلادهم ليست ببلاد ثلج، ولا دمق، وانما هي ناحية الحَرور، والوهج، والسموم، لأن ذلك المكروه أزجر لهم)[1].

وقد رد الجاحظ على هذا الإدعاء بأن العرب لم يعرفوا السموم والوهج القاتل فحسب، إنما عرفوا التطرف المناخي في بيئتهم من حر ، وبرد.

قال: فقلت له: ان أكثر بلاد العرب موصوفة بشدة الحر في الصيف، وشدة البرد في الشتاء، لأنها بلاد صخور وجبال. والصخر يقبل الحر والبرد، ولذلك سمت الفرس بالفارسية العرب والاعراب "كهيان" والكه بالفارسية هو الجبل، فمتى أحببت أن تعرف مقدار برد بلادهم في الشتاء، وحرّها في الصيف، فانظر في أشعارهم، وكيف قسموا ذلك، وكيف وصفوه، لتعرف أن الحالتين سواء عندهم في الشدة . . .)[2]

ورد الجاحظ هنا مفحم للزرادشتية، ومن يذهب مذهبهم، لأن النار التي يصفها الله سبحانه وتعالى في قرآنه الكريم لم يصفها عقاباً للعرب فحسبِ، وإنما هي عقاب وترهيب للبشرية جمعاء، يرهب منها الناس الذين عانوا لظى الحر الشديد، كما يرهب منها من لم يعان الحر، لأنه عرفها من الوجهة الثانية حين اتخذ النار وسيلة للتدفئة وقت البرد.

---

(١) المصدر السابق ٥ : ٦٩ والدمق : الثلج مع الريح، يغشى الإنسان من كل أوب حتى يكاد يقتل من يصيبه.

(٢) الحيوان ٥:٦٧

ونجد مصداق قول الجاحظ في تأمل مناخ البيئة العربية المتطرف، لأن العرب عرفوا التطرف المناخي في بيئتهم، وساعدتهم هذه المعرفة على تصور الصور الرهيبة لعذاب الآخرة لأنهم عانوا بعض جوانبها أيام الحر والسموم، كما ساعدتهم أيام البرد الشديد على معرفة النعيم الرائع الذي وعد به المتقون في جنة معتدلة الهواء، وارفة الظلال.

لقد وصفت معظم أقاليم الجزيرة العربية بشدة الحر، والسموم المؤذية[1]. وفي الأحاديث النبوية الشريفة ما يعكس شدة الحر التي كان المسلمون يعانون منها في بعض المواسم حتى أمر الرسول (ﷺ) بتأخير صلاة الظهر إلى أن تمر الهاجرة؛ لأنها كما يقول: (شدة الحر من فيح جهنم)[2].

أما شدة الحر في مكة، فيعكسه حديث نبوي آخر وهو قوله (ﷺ) (من صبر على حر مكة تباعدت منه جهنم مائة عام، وتقربت منه الجنة مائتي عام) [3]، وعدم تحديد النبي (ﷺ) لمدة الصبر يزيد في تصوير شدة الحر ولظاه في مكة.

وذكرت صفة المدينة وحّرها التي يكون فيها النبي (ﷺ) شفيعا لمن يصبر على لأوءاها [4].

أما في الشعر العربي، فاننا نجد فيه صور الحر يعرضها الشعراء بدقة وتفصيل لا نجدها في المعاجم الجغرافية، فقد وصفوا سيرهم وقت الهاجرة، وكيف أن شدة الحر

(١) أحسن التقاسيم: ٩٥، آثار البلاد : ٨٦.
(٢) الموطأ ١ :١٦، سنن أبي داود ١ :٩٦ ، الجامع الصحيح ١: ٢٩٥
(٣) مختصر البلدان ١٧، معجم البلدان ٤: ٦١٩.
(٤) مسند الإمام أحمد ٢: ١١٣ ، ١١٩ ، ٢٨٨ ، ٣٣٤، ٣٩٧، وانظر ايضا آثار البلاد : ١٠٨، وفاء الوفاء ١ : ٤ فما بعدها.

تجاوز أذاهم الى أذى حيواناتهم، فالناقة يصيبها الهزال[١]. وتحتفر الظباء والثيران كُنُسا تتقي فيها لفح الهاجرة [٢] وفصلوا في وصف صورة الحيوانات حين تنزى من أذى الرمضاء كالضّباب[٣] والجنادب[٤]، والحرباء[٥]، بل نرى بعضهم يبالغ في وصف لهيب الحر فيقول عنه إنه يكاد يشوي اللحم [٦] أو أن ملابسهم تكاد تشتعلُ لشدة لفح الهاجرة[٧].

ووصفوا أيام الحر بأوصاف كثيرة وأسماء متعددة [٨] . على أن شدة الحر لا تؤيد قول من اعترض بأن عذاب الآخرة كان بواسطة النار، لأن العرب أهل سموم، وحر شديد، وذلك لأنهم مع معاناتهم الحر الشديد، فقد عانوا البرد القارس في بيئتهم أيضاً [٩]، وذكروه في أشعارهم – وإنْ لم يبلغ مبلغَ الحرّ في أذاه وشدته – وقد فسر بعض المفسرين الغساق الذي يُسقاه أهل النار [١٠]، بأنه السائل الذي لا يستطيعون ذوقه

---

(١) انظر ديوان الشماخ : ١٣

(٢) ديوان طرفة: ٣٨ ، ديوان سحيم : ١٥، ديوان الشماخ ١٢، المفضليات ١٣٣، شرح القصائد: ١٦٢.

(٣) انظر الحيوان ٦، ١٣٦

(٤) انظر ديوان كعب بن زهير :١٦ ، المفضليات: ٣٠٤، ٣٠٥، الملاهي واسماؤها الورقة ٣٢.

(٥) انظر ديوان امرئ القيس ٣٠٤، ديوان كعب بن زهير ، ١٤ ، ٢٥٢ ، ديوان شعر ذي الرمة: ٤٧ ، أراجيز العرب : ١٠ ، الحيوان ٦ : ٣٦٦ .

(٦) المفضليات: ١٩٩ شرح ديوان الحماسة ٤: ١٨٠٣ .

(٧) ديوان القطامي :٢٦: ٢٧ ، أراجيز العرب: ١٢١.

(٨)الأزمنة لقطرب: ٤٠.

(٩) انظر الفصل السادس : الثواب بالجنة- ٢- اعتدال جوها.

(١٠) سورة ص ٣٨، ٥٧ ، النبأ ٧٨: ٢٥.

لشدة برده[1]، مما يدلنا على أنهم عرفوا أذى البرد كما عرفوا أذى الحر، وأنهم فهموا أن البرد يمكن أن يكون وسيلة من وسائل التعذيب. ومعرفتهم للحر والبرد هو الذي ساعدهم على تصور عذاب القيامة، وتخيل نعيم الجنة. وهما صورتان من الصور التي يتحسسها البشر جميعاً ويعانون منها.

ومما مر بنا تتبين لنا شدة الحرارة التي كان العرب يعانون منها في بيئتهم وأنها تجاوزت أذاهم الى أذى حيواناتهم، ودوابهم. ومن هنا نستطيع أن نتصور أي إيحاء رهيب ترسمه الآيات الكريمة في وصف هول النار، وعذاب لهيبها قال الله تعالى واصفا لظى النار المحرق:

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾[2].

إنها صورة تعيد الى الذاكرة أذى الحر ولفح الهاجرة، حتى إذا تجسدت هذه الصورة جاءت الآيات القرآنية الكريمة لتزيد إيحاء الرهبة، والهلع بأن حر النار وعقابها لا يقارن بصورة من صور الحياة الدنيا، ولا تدركه عقول البشر مهما تخيلته.

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾[3].

---

(١) جامع البيان ٣٠: ١٣-١٤، الكشاف ٣: ١٨.

(٢) سورة المعارج ٧٠: ١١-١٧.

(٣) سورة المدثر ٧٤: ٢٦-٢٨.

إنه استبعاد للذهن من أن يتصور نار الآخرة كما يصفها الله سبحانه وتعالى فحسب، ولكنه يستطيع أن يتصور بعض ملامحها فيما عاناه في حياته الدنيا من الأذى والعذاب، ومما ترسمه الآيات القرآنية الكريمة من صور العذاب في البيئة العربية.

٢- تسميتها:

ورد تعبير النار في إحدى وعشرين ومائة آية في القرآن الكريم [١] على أنها دار العذاب التي يحل بها المجرمون يوم القيامة، ويعذبون بلهيبها ولظاها المحرق. وقد سميت بعدة أسماء تجتمع كلها لترسم صورة العذاب الرهيبة. فقد أطلق عليها اسم جهنم، والجحيم، وهي نار الحريق ، واللظى، [٢] وهي السعير وسَقَر [٣].

أ - جهنم:

أما جهنم فقد اختلف المفسرون في أصلها، فقال بعضهم إنها عربية، وإنها مشتقة من قولهم بئر جِهنّام، للبعيدة القَعْر [٤].

وقال بعضهم إنَّها عربية مأخوذة من التَجَهُّمِ والتَكَرُّه، ويقال جَهْمُ الوجهِ أي كريه الوجه [٥].

---

(١) سورة الهمزة ١٠٤ : ٤-٧.
(٢) سورة آل عمران ٣: ١٨١ . الانفال ٨ : ٥٠ ، الحج ٢٢: ٩ ، البروج ٨٥ : ١٠.
(٣) المعارج ٧٠:١٥ ، سورة الليل ٩٢: ١٤.
(٤) انظر الاشتقاق: ٣٥٤، جمهرة اللغة ٣: ٤٠٤، المخصص ١٠: ٣٦، لسان العرب ١٤: ٣٩٦، النهاية في غريب الحديث ١: ١٩٢، الألفاظ السريانية، مجلة المجمع العلمي العربي م٢٣ ج٣ : ٣٤٥.
(٥) الزينة : الرازي٢١٢ .

أما الفريق الثاني فقد قالوا بأعجميتها، واختلفوا في أصلها أيضاً، فقال بعضهم : إنها فارسية[1] ، وقال آخرون بل هي سريانية[2] .

ويبدو أن أرجح الأقوال هو قول من قال بأنها عبرية الأصل.

قال يونس بن حبيب وقيل هو تعريب كِهِنّام بالعبرانية [3].

ويرى كاردي فو: (أن الكلمة مشتقة من اللفظ العبري جيحون، أو وادي هِنّوم[4] وكان وادياً بالقرب من بيت المقدس تُقدّم فيه القرابين)[5] .

ومع ترجيحنا كون جهنم عبرية الأصل ، فأننا نجد فيها دلالة واضحة للبيئة العربية، لأن الألفاظ الأعجمية حين تطلق على مسمياتها ، إنما تعكس سبب اختيار العرب لها، وتعكس لنا تفكير من أطلقها، ودلالتها في ذهنه؛ فجهنم حين عرفت في العبرية بالوادي العميق، وجد العربي فيها صورة لمظهر من مظاهر بيئته، ألا وهي صورة الآبار التي اعتمد عليها في حياته إلى جانب الأمطار. فكان منها العميقة القعر، وكان منها الصغيرة الضحلة، فاستعار لفظة جهنم للدلالة على البئر العميقة.

ومن هنا جاء التعبير القرآني ليربط بين المعنى المادي المستمد من البيئة العربية وبين أصل الكلمة الذي عرفته العبرية بالوادي العميق، ومع أن الكلمة عبرية الأصل يمكن أن نضيف إلى معناها قول من قال إنها عربية الأصل، وإنها مشتقة من التجهُّم والتكرُّه؛ لأن

---

(١) الصحاح(جهنم) ، المعرب:١٠٧، المفردات : ١٠١ .
(٢) الألفاظ السريانية، مجلة المجمع العلمي العربي م٢٣ج ٣: ٣٤٥.
(٣) انظر لسان العرب(جهنم).
(٤) انظر الكلمة في قاموس الكتاب المقدس ٢: ٤٥٤.
(٥) دائرة المعارف الاسلامية ٧: ١٩٥ .

هذا المعنى يعطينا فكرة عن الصورة التي رسمها العربي في ذهنه لجهنم، وكيف أنها شديدة على الكافرين، تحطمهم، وتأخذهم بقوة[1]. وهي عميقة القعر بعيدة الأغوار، يهوي فيها المجرم، فلا يجد له قراراً، وهو معنى، رسمه تعبير قرآني آخر وهو:

ب- الهاوية:

قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾[2]

فقد قالوا في تفسير الهاوية إنها سميت كذلك، لأنها عميقة يهوي من يرمي بها الى قعرها العميق[3].

وذهب بعضهم بتعبير الأم الى معناها الحقيقي المشهور. روى الطبري عن ابن عباس قوله: (وإنما جَعل النار أمّه، لأنها صارتْ مأواهُ، كما تؤوي المرأةُ ابنها)[4].

---

(١) وقد تعسف كارادي فو في شرحه لتصور المسلمين لجهنم حين زعم أن الرسول (ﷺ) تمثلها في بعض الآيات على صورة حيوان، فهي في نظره أشبه بوحش هائل فغر فاه، وكشف عن أنيابه وتأهب لالتهام المغضوب عليهم. أنظر دائرة المعارف الاسلامية مادة جهنم ٧: ١٩٦. وهذا تعسف من الكاتب لأن الأسلوب القرآني المعجز قد سار في معظم آياته -خاصة في الترهيب والترغيب- برسم صور مجازية تثير الذهن، وتهزه هزاً، وهي معان لا يدركها الآ من عرف أسرار العربية، وروعتها في التعبير، والمجاز.

(٢) سورة القارعة ١٠١: ٦-١١.

(٣) انظر تنوير المقباس: ٣٩٤، جامع البيان ٣٠: ٢٨٢، ٢٨٣، الزينة ٢:٢١٢، ١٠: ٤١٠. وقد ورد في قاموس الكتاب المقدس أن (هاوية ترجمة لكلمة شبول العبرانية، ومعنى هذه الكلمة في الأصل موضع الموتى، وتوصف الهاوية بالعمق) أنظر قاموس الكتاب المقدس ٢: ٤٥٨، ومع أن دلالة الكلمة في العبرية هي نفسها في العربية إلا أن هذا لا يعني أنها أعجمية لأن دلالتها في العربية مشهورة، واستعمالها اللغوي معروف. انظر الصحاح ٦:٢٥٣٨، لسان العرب ٢٠: ٢٤٨.

(٤) جامع البيان ٣٠: ٢٨٣.

وقال ابن قتيبة: (كانت الأم كافلة الولد وغاذيته ومأواه، وقريبته، وكانت النار للكافر كذلك، جعلها أمّه)[1].

ويؤيد هذا التفسير قوله تعالى واصفاً الجنة والنار بالمأوى ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[2].

وكون جهنم بمنزلة الأم للكافر ، وأنها الهاوية أُعتمد في فهمها على إستعمال لغوي وهو قولهم : هَوَت ْ امُّهُ أي هَلَكَت[3]، وهَوَتْ أمه فهي هاوية أي ثاكلة[4].

ويمكن القول إن هذا المعنى متطور عن المعنى الحسي الأول ، وهو السقوط والتردي؛ لأن من يهلك أو تصيبه مصيبة تثكل أمه، وفي ذلك هلاك لها لعظم مصيبتها .

ونقل أبو حاتم الرازي تفسيراً آخر، وهو قولهم: إن النار سميت كذلك ، لأنهم يهوون فيها أبداً (يعذبون لا يستقرون، ولا يجدون قراراً فهم يهوون، وهو مأخوذ من الهواء بين السماء والأرض، كأنهم أبداً في الهواء لا قرار لهم)[5].

ويبدو أن التفسير الأول: وهو أن الهاوية وصف لنار الآخرة ، بأنها عميقة يهوي فيها مجرمون، هذا التفسير أرجح التفاسير الأخرى، لأنه ينسجم مع الوصف العام

(١) تأويل مشاكل القرآن: ٧٧.
(٢) سورة النازعات ٧٩: ٣٧-٤١.
(٣) لسان العرب ٢٠ : ٢٥٠ .
(٤) الصحاح ٦: ٢٥٣٩، وانظر لسان العرب ٢٠: ٢٥٠.
(٥) الزينة٢: ٢١٢.

للنار، وكيف أنها رهيبة مخيفة عميقة، يهوي فيها المجرم فلا يجد لها قراراً، وهو معنى ورد في اللغة حين قالوا: هوي في البئر إذا سقط فيها وتردّى[1].

ومن الطبيعي أن ينتشر هذا الاستعمال اللغوي نظراً لكثرة الآبار، وما يطرأ للعربي في سيره في الصحراء من تعرضه الى السقوط والزلل في حفرة، أو بئر قديمة. وهي صورة إنسانية ترهب كل من يتخيلها ويؤيد هذ التفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [2].

ج- **الجحيم**[3]:

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [4]

وقال أيضاً: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ [5]

الجحيم في الآيات السابقة ، تعبير آخر وصفت به نار الآخرة لشدة تأججها وحرها[6]، من قولهم جَحَمْتْ النارُ إذا اضطرمت[7]، وحجر جاحم إذا اشتد اشتعاله[8]. قال الأعشى:

---

(١) الصحاح ٦: ٢٥٣٨، لسان العرب ٢٠: ٢٤٨.

(٢) سورة النساء ٤: ١٤٥.

(٣) وقد وردت في ست وعشرين آية انظر المعجم المفهرس: ١٦٤-١٦٥

(٤) سورة المائدة ٥: ١٠ .

(٥) سورة الواقعة ٥٦: ٨٨: ٩٤.

(٦) جامع البيان ١: ٥١٧، الزينة ٢: ٢١١ ، التبيان ١: ٤٣٧ المفردات : ٨٦ النهاية في غريب الحديث ١: ١٤٥.

(٧) الصحاح ٥: ١٨٨٣ ، المفردات: ٨٦، أساس البلاغة : ١٠٩.

(٨) جمهرة اللغة ٢: ٥٩

بُمشـعِلةٍ يغشـى الفـراشُ رَشاشَـها

يَبيــتُ لهــا ضـوءٌ مــن النارِجــاحِم[١]

أي ضوء نار متوقد شديد الحرارة. وقال قيس بن الخطيم:

ونَصْـــدُقُ في الصَـــباحُ إذا التقينـــا

ولــو كــانَ الصَــباحُ جحــيم جَمْــر[٢]

فقد أطلق الجحيم هنا على شدة الحر والتهابه، واستعاروا هذا اللفظ في التعبير عن شدة الحرب واستعارها[٣].

فلفظة الجحيم تصور شدة الحر في البيئة العربية ، وتعكس لنا أهمية البيئة في إيجاد التعابير والألفاظ ، وكيف أن شدة الحر جعلتهم يديرون في كلامهم تعابير كثيرة تصف شدة الحر والتهابه، وتسمية النار بالجحيم تشترك مع التعابير الأخرى في رسم صورة لهيب النار وعذابها الموجع.

د- السعير: [٤]

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[٥].

---

(١) ديوان الأعشى: ٨١

(٢) ديوان قيس بن الخطيم : ٦١ تحقيق إبراهيم السامرائي

(٣) أنظر شرح ديوان الحماسة ٢: ٥٠٠، ٤، ١٨٦٢.

(٤) وقد وردت في ست عشرة آية انظر المعجم المفهرس : ٣٥٠- ٣٥١.

(٥) سورة الحج ٢٢: ٤ .

وفُسّر السعير بالنار الموقدة [1]: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴾[2]

وفسر بعضهم السُعُر في هذه الآيات الكريمة بالحريق والنيران.[3] وخص بعضهم السُعُر بالعناء[4] فقط، ويمكن أن نجمع بين هذين التفسيرين بأن الحريق الذي يعذب به المشركون يتركهم في عناء ونصب.

وهناك من فسر السُعُر بالجنون روى السجستاني: (سُعُر جمعُ سَعير في قول أبي عبيدة . وقال غيره: في ضلال وسعر، في ضلال وجنون، يقال: ناقة مسعورة اذا كان بها جنون)[5]. وقال الزمخشري (السعر الجنون . يقال : ناقة مسعورة قال:

كـأن بهـا سُـعْراً إذا العـيس هزَّهـا

ذِميـلٌ وإرخـاءٌ مـن السـيرِ متعِـبُ[6]

وكذا ورد معنى السعر في كتب اللغة [7]. وتفسير السعر بالجنون واقترانه بالناقة المسعورة يثير الانتباه، لأنه ابتعد عن معنى الحريق؛ ولأنه اقترن بالناقة التي اعتادها

---

(١) تنوير المقباس : ٢٠٦ مجاز القرآن ١: ١٣٠ ، جامع البيان ١٧: ١١٦،
(٢) سورة القمر ٥٤ : ٤٦-٤٨.
(٣) مجاز القرآن ٢: ٢٤١، جامع البيان ٢٧: ١٠٩ ، الكشاف ٣: ١٨٦.
(٤) تنوير المقباس : ٣٣٥، الفراء عن لسان العرب (سعر): جامع البيان ٢٧: ١٠٩.
(٥) غريب القرآن : ١٣٦، وكذا قول الفارسي في المحكم ١: ٢٩٩.
(٦) الكشاف ٣: ١٨٤.
(٧) أنظر قول الخليل في المخصص ٣: ٥٥، ٧: ١٢٢، وانظر أيضاً غريب القرآن : ١٣٦ ، الصحاح ٢: ٦٨٥، لسان العرب ٦: ٣٠

العربي وجعلها صديقته في سيره الطويل ، فخبر كل حركاتها، وسكناتها، وعرفها في حالات مرضها وصحتها، فإذا أصابها السُعُر ركضت على غير هدى، وأسرعت في سيرها. ومن هنا فسر بعضهم السُعُر بالجنون في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ (١) لأن المجرمين في النار يفقدون رشدهم ، وتفكيرهم، لشدة العذاب وهول النار، ويكونون في ضلال وحيرة ، فيشبهون في ذلك الناقة المسعورة التي أصابه الجنون، فسارت على غير هدى .

أما في المجال اللغوي، فنجد أن الكلمة أطلقت في الأصل على إشتعال النار وشدة حرارتها (٢)، فإذا كانت الريح شديدة الحرارة قوية- وهي التي يسمونها السموم - أطلقوا عليها اسم السُعار (٣)؛ لأن شدة حرارتها شبيهة بشدة حرارة النار واشتعالها. واذا كان المفسرون لم يشيروا الى معنى السموم في تفسيرهم الآية الكريمة، فإننا نفهمه من دلالة الكلمة اللغوية، ومن ورود السموم في القرآن الكريم، فقد وصف الله سبحانه وتعالى عذاب النار بأنه عذاب السموم، حيث يفرح المؤمنون بنجاتهم من النار فيتباشرون بينهم:

---

(١) سورة القمر ٥٤: ٤٧.

(٢) جمهرة اللغة ٢: ٣٣٠ ، الصحاح ٢: ٦٨٥ ، مقاييس اللغة ٣: ٢٧٥، الزينة ٢: ٢٠٨ ، المحكم ١: ٢٨٩ ، أساس البلاغة : ٤٤٠ ، النهاية في غريب الحديث ٢: ١٦٢ . وانظر الشعر في شرح ديوان زهير: ٢١٤، المفضليات : ٨٤، الوحشيات : ١٢١.

(٣) الخليل عن المخصص ٩: ٩٠، جمهرة اللغة ٢: ٣٣٠ ، الصحاح ٢: ٦٨٥ مقاييس اللغة ٣: ٧٥، المحكم١: ٢٩٩.

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾[1]. وقال الله تعالى واصفاً أصحاب الشمال: ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ ﴾[2].

لقد عانت البيئة العربية من لفح السموم الحارة ما عانت، ولم يقتصر أذاها على الإنسان بل جاوزته الى الحيوان، فذكر ذلك الشعراء في أشعارهم، ووصفوا الصُوَر التي اعتادوها عند هبوب السموم، واشتداد الحر[3]، حتى إذا جاء التعبير القرآني واصفاً عذاب الكافرين : ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾[4] تذكر العربي السُّعار وتمثل له لظاه الحار ، فاستطاع أن يتصور الإيحاءات الرهيبة التي توحيها الآية الكريمة في تصوير عذاب المجرمين.

وهناك معنى آخر للكلمة ، وهو قولهم إذا اشتد العطش والجوع. استعر. قال ابن السكيت[5] : (رجل مسعور. وبه سُعار أي جوع وشهَوة) . وقال الزمخشري،

---

(١) سورة الطور ٥٢: ٢٥-٢٧

(٢) سورة الواقعة ٥٦: ٤١-٤٤

(٣) انظر شرح ديوان لبيد : ١٠٢، ديوان الشماخ : ٨٣، المفضليات ١٨٢ شرح ديوان الحماسة ٤: ١٨٠٣ ، الجبال والأمكنة : ٤٦، ذيل النوادر : ٢٠٧ الطرائف الادبية : ٦٢ معجم البلدان ١: ١٥٥

(٤) سورة القمر ٥٤: ٤٦-٤٨

(٥) ابن السكيت في المخصص ٥: ٣٥، وأنظر أيضاً جمهرة اللغة ٢: ٢٣٠ ، الصحاح ٢: ٦٨٥ ، فقه اللغة: ٥٠.

(ومن المجاز . . . وبه سُعار وهو توهج العطش) [١]، فكأن شدة العطش تلهب في جوف الانسان حرارة شبهوها بالنار.

ونستطيع أن نفهم هذا المعنى اللغوي في الآية الكريمة السابقة، لأن معنى العطش معنى عاشه البدوي في بيئته، واحسَّ به في أسفاره الطويلة، حين يتشوق الى قطرة من الماء تروى ظمأه، ومع أنهم قالوا إنّ السُّعار شدة العطش أو الجوع، إلا أن دلالة العطش على البيئة العربية أوضح من دلالته على الجوع [٢] ومع ذلك يمكن إضافة المعنى الأخير الى التفاسير السابقة لتجتمع صور العذاب والحرمان في عذاب النار .

فإذا جمعنا كل هذه التفاسير عرفنا أي اعجاز عظيم تحمله كلمة واحدة في تسمية النار التي يعذب بها المجرمون يوم القيامة، لأنها تجمع عدة صور رهيبة عاشها البدوي ويعيشها الإنسان ويتخيلها في كل مكان في العالم - وعانى من أذاها ما عانى، فيكون معناها أن المجرمين في ضلال، وحيرة من النار، ولظاها المؤذي، وتنقلهم هذه الصورة الى صورة السموم الحارة من الماء والطعام، بكل ما يحمله معنى العطش من معان رهيبة لها دلالتها على النفس العربية، ثم هم فاقدو الوعي حائرون، تائهون يشبه حالهم حال الناقة المسعورة التي تركض على غير هدى، وتسير الى غير غاية، هم حيارى، عطاشى، تلفحهم السموم بحرها، وتحرقهم النيران بلظاها كل هذه الصور يعكسها التعبير القرآني في تسمية النار ووصفها بالسُعُر [٣].

---

(١) أساس البلاغة ٤٤، وأنظر ايضا لسان العرب ٦: ٣٠

(٢) انظر الفصل الخامس -٦- طعامهم - ب- الزقوم .

(٣) أنظر في هذا موضوع الاشتراك من اسباب البلاغة في التعبير في كتاب: دروس في البلاغة : ١٩٧ .

هـ- سقر:

وسقر إسم آخر من أسماء النار التي يعذب بها الكافرون يوم القيامة. قال الله تعالى: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ [1]. وقال أيضاً: ﴿ إِلَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝ فِي جَنَّـٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ [2] وقال تعالى أيضاً: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ۝ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ [3].

قال بعض المفسرين في سَقَر إنها عَلَم من أسماء النار [4]، وخصَّها بعضهم بالباب الرابع من النار[5].

وقال غيرهم: إنَّ سقر إسم أ عجمي [6]. ويبدو أن للكلمة استعمالاً عربياً من قولهم سقرته الشمس تسقره سقراً بالسين والصاد إذا آلمت دماغه[7]. وقالوا الصَقْرة: شدة الحر[8]، وكذا وردت في الشعر[9].

(١) سورة المدثر ٧٤: ٢٦-٢٩.
(٢) سورة المدثر ٧٤: ٣٩-٤٣.
(٣) سورة القمر ٥٤: ٤٧-٤٨.
(٤) التبيان ١٠: ١٨٠، وانظر أيضاً المفردات: ٢٣٤، الكشاف ٣: ١٨٦
(٥) تنوير المقباس: ٣٧٣، وانظر ايضا جامع البيان ٢٩- ١٥٨.
(٦) النهاية في غريب الحديث ٢: ١٦٨.
(٧) الزينة ٢: ٢١٤ التبيان ١: ١٨٠، المفردات: ٢٣٤، الكشاف ٣: ١٨٦ وانظر اللغة في جمهرة اللغة ٢: ٣٣٤، المخصص ٩: ٦٩.
(٨) الصحاح (صقر).
(٩) ديوان شعر ذي الرمة: ٥٠٤، أمالي اليزيدي ١: ١٤٤، الحيوان ٥: ٢٣٢.

وشدة الحرارة أوحت للعرب استعمالا آخر للكلمة، وهو قولهم : الصَقْر الضرب على أعلى الرأس (١)، وسموا الفأس العظيمة التي تكسر الصخر والحجارة القوية بالصاقور (٢).

ومعاني الكلمة المختلفة تساعدنا كلها على فهم الجو المرعب الذي تثير الآيات الكريمة: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ (٣).

إن النار التي يعذب بها المجرمون شديدة الحر تلفح المعذبين بلظاها المحرق، فتفلق رؤوسهم، وتذيب ما في بطونهم ، وتنقل لنا هذه التسمية شدة حر الهاجرة في الجزيرة العربية الذي يكاد فيه الحجر أن يذوب ويفلق الصخر، إلا أن هذه الصورة لا يمكن أن تقارن بشيء من صورة نار الآخرة التي لا تبقي ولا تذر.

ويلاحظ في تعبير سَقَر في سورة المدثر أنها محاطة بالابهام والغموض فكأن سقر مجهولة للسامع فتكررها الآية لتزيد من إيحاء الرعب: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴾ (٤)

إنك لا تعرف معنى سقر، فليست كالتي عرفتها في الحياة الدنيا، إنما هي شديدة قوية، لا تبقي ولا تذر . وفي هذا استبعاد لذهن الإنسان بأنه مهما تخيل سقر، فإنه لن يستطيع أن يتصورها حق تصورها، الا أن العربي يستطيع أن يجد فيها إيحاء واضح

---

(١) المخصص ٦: ٩٦ .

(٢) جمهرة اللغة ٢: ٣٥٧ ، الصحاح ٢: ٧١٥ ، المخصص ١٠ : ١٠ ، لسان العرب ٦: ١٣٦ ، أساس البلاغة : ٥٣٥ ، النهاية في غريب الحديث ٢: ١٦٨ وانظر الشعر في مجالس ثعلب ٢: ٤٥٨، المؤتلف والمختلف: ١١٩.

(٣) سورة القمر ٥٤: ٤٧ .

(٤) سورة المدثر ٧٤: ٢٧

الملامح للبيئة العربية، فترسم في ذهنه صقر شمس الجزيرة، وحرّها المؤذي الذي يذكرهم بالفؤوس القوية تفلق الصخر، ولكن هيهات لهم أن يقارنوا بين الصورتين، لأن الآية الكريمة تقول وما أدراك ما سقر؟ فيوحي التنكير حالة من الخوف والفزع إنه الهول الذي يتجسد أمام الكافرين يوم القيامة ويعكسه تعبير سقر في الآيات الكريمة.

٣- لهيب النار:

أما لهيب النار فإنه تارة يكون لهيباً خالصا لا يشوبه دخان، وتارة يلف المعذبين بدخان قاتم، قال الله تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[1].

فالآيات الكريمة تصور لهيب النار بتعبير الشواظ. وقد قال المفسرون عن الشواظ بأنه اللّهب بلا دخان[2]. وفي المسائل التي سألها نافع بن الازرق لابن عباس أنه سأله عن الشواظ (فقال: اللهب الذي لا دخان له، قال: فهل كانت العرب تعرف ذلك قبل ان ينزل الكتابَ على محمدٍ ربُّك ؟ قال : نعم أما سمعت بقول أمية بن خلف[3] :

(١) سورة الرحمن ٥٥: ٣٣-٣٦

(٢) تنوير المقباس : ٣٣٧، مجاز القرآن ٣: ٢٤٤، جامع البيان ٢٧: ١٣٩ التبيان ٩: ٤٧٤.

(٣) أمية بن خلف بن وهب، من بني لؤي أحد جبابرة قريش في الجاهلية ومن ساداتهم ، أدرك الاسلام ولم يسلم ، وهو الذي عذّب بلالاً الحبشي عند ظهور الاسلام ، أسره عبد الرحمن بن عوف يوم بدر، فرآه بلال ، فصاح بالناس يحرضهم على قتله فقتلوه، انظر سيرة النبي ٢: ٧٢١ ، عيون الأثر ١: ٢٥٩ الكامل لابن الأثير ٢: ٤٨.

الا مَــــنْ مُبلــــغٍ حَســـانَ عنّـــي

مُغلْغَلَــــــةً تــــــدبُّ الى عُكـــــاظ

ألـــيسَ أبـــوكَ فينـــا كـــان قينـــاً

لــدى القينــاتِ (فســلا) [1] في الحفــاظ

يمانيـــــاً يظَــــلُّ يَشُــــدُّ كــــيراً

ويــــنفخُ دائِبــــاً لهـــبَ الشـــواظِ

قال: صدقت[2] وفي رواية اخرى انه تمثل بأبيات حسان التي ردَّ فيها على أمية:

فتأتيـــــهِ قصـــــائد محكـــــمات

وتنشــــــدُ بالمَجــــازِ إلى عُكــــاظِ

مَرتـــكَ فاخْضَـــعتْك بـــذات ذلّ

فقــــاقيع تــــأجَجُ كالشــــواظِ[3]

ومن هنا يتضح لنا أن الشواظ عرفه العرب في بيئتهم ، وعرفوا أن النار اذا كانت على أشدها، فإنها تكون لهبا خالصا لا دخان له، وكذا قال اللغويون [4].

---

(١) في المخطوط ضئيلاً ، والصواب كما هو مثبت اعلاه ، وهكذا رويت الأبيات في ديوان حسان بن ثابت : ١٤١ ، وكذلك ورد في الصحاح ٣: ١١٧٣ لسان العرب ٩: ٣٢٦.

(٢) مسائل نافع بن الازرق الورقة ٨(ب).

(٣) نفسه الورقة ٦ (أ) وانظر الأبيات في ديوان حسان : ١٤١، ١٤٢ مع اختلاف في رواية البيتين

(٤) الكامل المبرد ١ : ٣٢٤ ، جمهرة اللغة ٣: ٦٠ ، الصحاح ٣: ١١٧٢ مقاييس اللغة ٣: ٢٢٣.

أما النحاس فقد قالوا في تفسيره: إنه الصفر المذاب [1].

وقال بعضهم : إنه الدخان [2] وحين سئل ابن عباس عن معرفة العرب له قبل الإسلام تمثل بقول النابغة:

تُضِـــيُئكم مِـــنْ سِراجِ السَّـــليطِ

لم يَجْعَـــلِ اللهُ فيـــه نُحاســـا [3]

والسليط هو دهن الزيت [4]. وقد استدل ابن عباس بهذا البيت على معرفة العرب لهذا المعنى القرآني. ويبدو أن هناك علاقة متينة بين النحاس الذي هو الدخان، وبين النحاس ذلك الجوهر المعروف من المعدن هو الأساس في التسمية، لأن النحاس أو أي معدن من المعادن إذا أذيب سَبَّبَ دخانا قاتما. ومن هنا أطلق على كل دخان قاتم اسم النحاس . . . ومن الطبيعي أن يعرفه العرب في بيئتهم ؛ لكونه من المعادن المتوافرة في الصحراء العربية [5].

---

(١) جامع البيان ٢٧ : ١٤٠ ، الكشاف ٣: ١٩٠ .

(٢) تنوير المقباس: ٣٣٧، مجاز القرآن ٢: ٢٤٤، جامع البيان ٢٧: ١٤١ المفرادات : ٥٠٣، الكشاف ٣: ١٩٠ .

(٣) مسائل نافع بن الازرق الورقة ٨(ب) والبيت منسوب للنابغة الذبياني في المخطوط وجامع البيان ٢٧: ١٤١ ، والصواب أنه للنابغة الجعدي كما هو مذكور في ديوانه : ٨١ ، وانظر أيضا التبيان ٩: ٤٧٥.

(٤) الصحاح ٣: ١١٤٩.

(٥) أنظر زكاة المعادن في الموطأ ١: ٢٤٩ .

وقد فُسّر اليحمومُ بالدخان الأسود أيضاً في قوله تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ (١)

إنَّ جو الآيات الكريمة وسياقها يساعدنا في تصور هذا المعنى ، لأن السياق العام يوحي بهول العذاب ، فقد ذُكِر المجرمون وهم أصحاب الشمال، ثم تبعه استفهام يثير في الذهن جوا من الغموض والرهبة، حتى اذا اتضح هذا الإبهام ظهر عن سَموم لافحة تلوح المجرمين وتحرقهم بلظاها، ولكنها ليست كالسموم التي عرفوها في بيئتهم، فاحتاطوا لها بوسائل ، واحتموا منها بنخلة أو خيمة مثلا.

إنها سموم حارة لافحة لا يوجد معها ظل، فإذا وجدوه، فإنما هو ظل من دخان قاتم تثيره النار الرهيبة، فلا يجدون فيه البرد الذي وجدوه في ظل الحياة الدنيا، ولا الطمأنينة التي يحتاجون إليها، فهو ظل، ولكنه يثير السخرية على كل من يحتمي به، لأن أذاه أشد وأضنى من أذى النار ولظاها!! هذه السخرية تذكر العرب بالظل البارد الذي فاءوا إليه في حياتهم الدنيا، ليتقوا به صقرات الهجيرة ، ولفح سمومها ، وكيف أن شاعرهم مثلاً يحِنُّ الى نخلة استظل تحتها يوما، وجمعته مع من يحب، فيردد حنينه إليها، ويبعث لها سلامه وأشواقه، كما لو أنها كائن حي يبادله الشعور:

ألا يـــا نخلـــة مـــن ذات عِـــرْق

بَـــرودَ الظِـــلِّ شـــاعَكُمُ السَّـــلامُ(٢)

---

(١) سورة الواقعة ٥٦: ٤١ -٤٤ .

(٢) مجالس ثعلب ١: ١٩٨ ، وقيل إنه كنى بالنخلة عن المرأة ، وحتى لو كان هذا القول كناية، فإنه يعكس لنا الصورة المحببة للنخلة وظلها.

وذات عرق: موضع بالحجاز[1].

وقد نهى الرسول (ﷺ) عن كسر أغصان السدر أو التنضُب، لأنها من ذوات الظلال يسكن الناس اليها في البرد، والحر[2]. وفي هذا دليل واضح على شدة تعلق العرب بالأشجار والنخيل التي تمنحهم الظل إذا اشتد الحر، أو داهمهم البرد والمطر، وهي من الناحية الأخرى تساعدنا في فهم الآيات الكريمة التي تصور نار جهنم، وظلها القاتم، وكيف يتصورها العربي الذي عانى ما عانى من الحر، وعرف طيب الظل، والبرودة، فاذا به في الآخرة يلتجأ الى الظل الذي يتراءى له، فلا يجد فيه الأمان، ولا البرودة التي ينشدها. قال الله تعالى:

﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾[3].

وقال تعالى مخاطبا الكافرين بأسلوب يسخر منهم، وذلك بدعوتهم الى الالتجاء الى ظل من النار يزيد لهيبه أذى النار، وعذابها:

﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (٢٩) ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ (٣٠) لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾[4].

---

(١) انظر معجم البلدان ٣: ٦٥١.

(٢) انظر سنن أبي داوود ٢: ٦٥٠

(٣) سورة الزمر ٣٩: ١٦

(٤) سورة المرسلات ٧٧: ٢٩-٣٤.

وإذا قارنا هذه الصورة الرهيبة بصورة ظلال الجنة الوارفة اكتملت لنا الصورة الرائعة واتضح الأسلوب المعجز في بيان عذاب المجرمين ، ونعيم المؤمنين:

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾[1].

وقال تعالى أيضاً واصفا نعيم المؤمنين بين الظلال الوارفة :

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾[2].

هذه الظلال الوارفة ، والنعيم الرائع يوضح لنا معالم الأذى الذي يلاقيه المجرمون في النار، والمقارنة بينهما تزيد الصورة وضوحا، فالمجرمون لا يجدون ظلاً يفيئون تحته، ويحتمون به من لهيب النار وشررها، فإذا وجدوه فإنما هو ظِلٌّ من دخانٍ أسود، من نحاس يتعالى فوق رؤوسهم.

٤- شررها:

ولم تكتف الآيات الكريمة بتصوير النار، ولظاها، إنما وصفت الشرر االذي يتطاير منها، فشرر النار الذي عهده الناس في حياتهم الدنيا صغيراً، قصير الأمد نجده في وصف نار الآخرة صوّر تصويراً رهيباً لطوله،واستمرار قدحه، ثم لونه القاتم. قال الله تعالى:

---

(١) سورة النساء ٤ : ٥٧.

(٢) سورة يس ٣٦: ٥٥ ٥٨.

﴿ انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (١).

فقد شَبَه شرر النار بالقصر، واختلف المفسرون في تفسيره؛ تبعا لاختلافهم في قراءته، فمن قرأه بإسكان الصاد فسّره بالبناء المشيد، المسمى بالقصر (٢).

وفسَّره ابن قتيبة بالقصر من قصور مياه الاعراب(٣) والملاحظ في التفسير الأول أنه لا ينقل صورة من صور البيئة العربية، فالقصر-وان ذكره بعض الشعراء في أشعارهم (٤) قليلا ما عرفته البيئة العربية في فيافيها الواسعة، وأطنابها المضروبة ، وإنما سمي هذا البناء قصرا، لأن جذوع النخيل، والخشب هي أساس بنائه، وهي التي يطلق عليها القصر كما سيأتي ذكره.

أما القصر من قصور مياه الأعراب الذي فسر به ابن قتيبة الآية الكريمة فإنه لا يعطينا صورة واضحة عن قصده، ولا يوجد في الشعر العربي ما يصوره، إلا إذا كان المراد منه تلك العريشة التي تبنى حول البئر المعروشة بأنها التي تطوي قدر قامة من أسفلها بالحجارة، ثم يطوى سائرها بالخشب وحده، وذلك الخشب هو العرش(٥). ولكننا أيضاً لا نجد بين هذه الصورة وشرر النار في الآية الكريمة وجه شبه قوي، مما يبعدنا عن تفسير ابن قتيبة السابق.

---

(١) سورة المرسلات ٧٧: ٢٩-٣٤.
(٢) جامع البيان ٢٩: ٢٣٩، التبيان ، ١٠: ٢٣١، المفردات : ٤١٤، الكشاف ٣: ٣٠٢.
(٣) تأويل مشكل القرآن : ٢٤٥.
(٤) ديوان الأعشى: ٤٣.
(٥) الصحاح ٣: ١٠١٠، المخصص ١٠: ٤٢، أساس البلاغة ٦٢٢، لسان العرب ٨: ٢٠٤.

أما قراءة من قرأ القَصَرَ بفتح الصاد، فإنها تعطينا تفسيرا هو أقرب الى البيئة العربية من القراءة الاولى. قال ابن عباس كالقَصَرِ كأسافل الشجر العظام [1].

وقال ابن قتيبة ، ومن قرأ بالَقصَرِ شبه بأعناق النخل ، ويقال بأصوله إذا قطع [2].

وهنا يبدو اختلاف بسيط فهل القصر لغةَ أعناق الإبل أم أعناق النخل وأصوله؟ إلاّ أننا نجد في الشعر الجاهلي صوراً طالما رسمها الشعراء في أشعارهم ألا وهي صورة الناقة التي يشبهونها بجذع النخلة [3]، وصورة الظعائن التي وصفوها وشبهوها بمجموعة النخيل [4] مما يرجح كون القصر، أطلق في الأصل على النخلة، ومنه على الناقة، ومن ثم أطلق بصورة عامة على أصل العنق سواء كان للشجرة ، أو النخل، أو الإبل [5]. وفي كلتا الصورتين نجد دلالة واضحة للبيئة العربية ، فقد اعتاد العربي رؤية أعناق إبله الطويلة، كما اعتاد رؤية النخيل، وجذوعها السامقة ، فاستمد منها مادة تشبيهاته، وأخيلته.

ومن هنا يبدو أن التفسير الأخير أقرب التفاسير الى البيئة العربية فقوله تعالى:

---

(١) تنوير المقباس : ٣٧٧

(٢) تأويل مشكل القرآن : ٢٤٥، وانظر المفردات : ٤١٤ ، الكشاف ٣: ٣٠٣ ، النهاية في غريب الحديث ٣: ٢٥٦.

(٣) ديوان كعب بن زهير : ١٣، ٨١، ٢١٧، وانظر ايضا الطرائف الاددبية : ٦٩.

(٤) انظر ديوان كعب بن زهير : ١٢٢، ١٩١، ٢٥٢، ديوان علقمة الفحل : ٣١، أراجيز العرب: ٤٤، الأصمعيات : ٢١٧.

(٥) المخصص ١١: ١٠.

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ [1] يرسم لنا صورة لشرر النار يوم القيامة، وكيف أنه يختلف عن الشرر القصير الأمد في الحياة الدنيا، لأنه طويل الأمد، بعيد المدى، ينقل الى ذهن العربي صورة أعناق الإبل الممتدة الطول، أو صورة جذوع النخل الجبارة. ويتبع هذا التشبيه تشبيه آخر للشرارت يقصد منه تبيان لونها وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾[2].

قال بعض المفسرين إن معنى الجِمالات: الجمال [3]. فيكون معنى الآية أن الشرر الذي يتطاير بكثرة وقوة شديدة يشبه الجمال السود، وخصَّ بها الجمال أو النوق الضخمة [4] ليدل على عظم الشرارات فضلاً عن لونها القاتم. فاللون الأصفر كثيراً ما اطلقه العرب على لون السواد[5].

وقد علل ابن قتيبة هذه التسمية وسبب تخصيص الله سبحانه وتعالى للجمال السود. قال: وانما سُميت السود من الإبل صُفرا، لأنه يشوب سوادها شيء من صفرة كما قيل لبيض الظباء أُدْمٌ، لأن بياضها تعلوه كُدرة، والشرر إذا تطاير فسقط وفيه بقية من لون النار أشبه شيء بالإبل السود لما يشوبها من صفرة) [6].

---

(١) سورة المرسلات ٧٧: ٣٢.
(٢) نفسها.
(٣) تنوير المقباس: ٣٧٧، تأويل مشكل الحديث: ، المفردات: ٩٦، الكشاف٣: ٣٠٢.
(٤) غريب الحديث: ٢٨٠، مقاييس اللغة ١: ٤٨١، وانظر الشعر في ديوان الشماخ: ٤٠، ٥٤، المفضليات ٢٢٩، الحيوان٦: ٧٠.
(٥) الصحاح٢: ٧١٤، مقاييس اللغة ٣: ٢٩٤، المخصص ٧: ٦، ٥٥.
(٦) تأويل مشكل القرآن: ٢٤٥.

وهناك تفسير آخر لمعنى الجمالات الصفر في الآية الكريمة، وهو قولهم إنها حبال السفن الضخمة، معتمدين في ذلك على استعمال لغوي عرفه العرب. قال الخليل: (الجُمّل: حَبْلُ السفينة) [1]. واذا كانت صورة الشرر الذي يتطاير بقوة من نار الآخرة يشبه الى حد ما صورة الحبال الغليظة الممتدة، فان تفسير الجمالات في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ [2] بالجمال السود أقرب الى البيئة العربية التي اعتمدت على الإبل في حياتها اليومية اعتماداً كلياً، على حين نجد أهمية السفينة عند العرب لا تصل الى مستوى الضروريات، نظراً للصحارى الواسعة التي انعدمت فيها البحار والأنهار الدائمة. ويؤكد هذا القول ما نراه في كتاب المخصص، وإن ما استغرقه بحث السفينة من هذه الموسوعة الكبيرة لا يتجاوز الست صفحات، على حين كاد البحث عن الجمل يشكل جزء كاملا بذاته[3].

٥- شراب أهل النار:

تصور الآيات الكريمة العطش، والحرمان من الماء على أنها وسيلتان من وسائل التعذيب التي يعذب المجرمون يوم القيامة. فشراب أهل النار، وتعذيبهم بالعطش صُوِّر بصورة رائعة يظهر فيها الاعجاز القرآني متجلياً ويقف أمامها الإنسان ذاهلاً.

---

(١) عن المخصص ٢٥:١ ، الصحاح ٤: ٦٦١، وانظر أيضاً: النهاية في غريب الحديث ١: ١٧٩ وفسر بعضهم قوله تعالى (ولا يَدْخلون الجنة حتى يلج الجملُ في سم الخياط) سورة الأعراف ٧: ٤٠ بأنه حبل السفينة أنظر تنوير المقباس : ١٠١، الكشاف ١: ٥٤٨ وقد ذكر الأب مار اغناطيوس الجمل على أنه سرياني ، ، وفي هذا دلالة على بعد الكلمة عن البيئة العربية . انظر مقال الألفاظ السريانية مجلة المجمع العلمي العربي م٢٣-٣٣.

(٢) سورة المرسلات ٧٧: ٣٢-٣٣.

(٣) انظر المخصص عن الإبل ٧: ١- ١٧٤، السفينة ١٠: ٢٩ – ٣٣، وانظر أيضاً نظام الغريب ١٣٢ – ١٥١.

ففي اللحظة التي تصدر فيها نتيجة الحساب يبدأ عقاب المجرمين فيساقون سوقاً شديداً إلى جهنم، وهم عطاشى محرومون من الماء. أما المؤمنون فإنهم يحشرون الى الجنة بعزة وكرامة. قال الله تعالى:

﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾[1].

وقد فسر المفسرون الوِرْد في الآية الكريمة بمعنى العطاشى[2]. ومن المشهور أن معنى الورد في اللغة إتيان الماء وهو خلاف الصدر[3] وإنما أطلق تعبير الورد في الآية الكريمة على العطاش، لأن من يرد الماء لا يرِدُهُ الا لعطشٍ - كما يقول الزمخشري -[4] الاّ أن المجرمين لا يرتوون بورودهم جهنم، بل تبدأ مرحلة أخرى للتعذيب والعقاب. . . فمع شدة النار ولهيبها المحرق- الذي مرت بنا صوره- يعاقب المجرمون بلون آخر من صنوف التعذيب ، وهو حرمانهم من الماء.

وقد صور هذا الحرمان بشكل محاورة جرت بين أهل الجنة وأهل النار:

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾[5].

---

(١) سورة مريم ١٩: ٨٦.

(٢) اللغات في القرآن : ٣٦. جامع البيان ١٦: ١٢٩، ١٣٠، التبيان

(٣) انظر جمهرة اللغة ٢: ٢٥٨ الصحاح ١: ٢٥٨ ، مقاييس اللغة ٦: ١٠٥، المخصص ٩: ١٥٥، وانظر شواهد الشعر في المفضليات : ٢٢٥، الأمالي للقالي ٢: ٢٤٥

(٤) الكشاف ٤: ٢٩٢

(٥) سورة الاعراف ٧: ٥٠-٥١

فهذه الآيات الكريمة ترسم صورة رهيبة لحرمان المجرمين من الماء. وقد فهم العرب والمسلمون هذه الصورة، واستطاعوا أن يتمثلوها بما وجدوه في بيئتهم، ولم يكتفوا بتصور الآيات الخاصة بالحرمان من الماء، بل فسروا بالعطش الآيات التي تبدو بعيدة عن الماء، والعطش في مفهومها العام وقد فسر النعيم في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾[1] . مما يعطينا صورة عن أهمية الماء عندهم وكيف أنهم أحسوا أنَّ حرمانه عذاب لا يدانيه عذاب، وان تَوفرهَ في الجنة نعيم وثواب فالعربي الذي طالما احسَّ بأذى العطش والظمأ في بيئته الصحراوية، ثم عرف اللذة في الحصول عليه بعد ظمأ قاتل. هذا العربي يستطيع أن يتصور في الآيات الكريمة مدى العذاب الذي يعذب به المجرمون في النار بحرمأنهم من الماء ويستطيع ان يتصور الآيات التي تعرض عطش المجرمين ، وحرمأنهم . ومن هنا جاء التأثير العظيم في نفوس العرب من مسلمين ومشركين.

لقد عانى العرب من حرمأنهم الماء في بيئتهم الحارة ما عانوا، تلك البيئة التي يلاقي فيها الحيوان ما يلاقيه الإنسان من شدة القيظ والأذى، فقد روى الأصمعي أنه قيل لأعرابي ما لوَّح جسمك؟ قال الأداوى والنجم. يريد أنه كثير الأسفار، فهو يراعي أداته كم فيها من الماء[2]. فمن الطبيعي اذن أن نجدهم متلهفين إلى الماء في مثل هذه الأجواء الشديدة الحر وأن يجدوا فيه أعظم النعيم، وأحسنه، يفرح العربي ويبلغ غاية

(١) سورة التكاثر ١٠٢: ٥-٨

(٢) معاني الشعر : ٢٦

سعادته إذا تيسر له شيء من الماء، ويعدّ الحصول عليه بشارة يبشر بها وفرجاً يمنّه الله عليه. قال الراجز:

تبشَّري بالرِّفْهِ والماءِ الرَّوى

وفَـــرجٍ منـــكِ قريـــبٍ قـــد أُتي[1]

ويحن العربي الى الماء حنينه الى أهله ووطنه، ومرتع صباه، ولا يجد أجمل من تمنيه شربة ماء يشربها بعد عطش[2] وفخروا بكرمهم الذي لا يمنعه جوع، ولا عطش، وأنهم يجودون بها لديهم في الحالتين.

ولندرة الماء عندهم صار أعظم ما يمدح به الرجل هو الصبر على تحمل العطش، وقرنوه بالجمل، ذلك الحيوان الذي أحبوه لتحمله العطش الشديد في الصحارى الواسعة. من ذلك ما يذكر في خبر عامر بن الطفيل حين توفي، ونُصِبَ حول قبره حمى، إن أحد أبناء قومه قال لهم: (ضَيَّقْتمْ على. أبي علي إنّ أبا علي بان في الناس بثلاث : كان لا يَعْطشُ حتى يَعطشَ الجَمَلُ ، وكان لا يضلُّ حتى يضلَّ النجم. . .)[3].

كل هذا يعكس أهمية الماء في البيئة العربية ، لأنهم عانوا من فقدانه ما عانوا، فاستطاعوا ان يعرفوا لذة الماء البارد بعد لوحة شديدة وعطش مضن، وشبهوا به الحديث الجميل الذي يترك اثراً طيباً في نفوس سامعيه. قال القطامي:

فهـــنَّ يَنْبـــذْنَ مِـــنْ قَـــوْلٍ يُصـــبْن بـــه

---

(١) شرح القصائد السبع: ١٩٨، لسان العرب ١٩: ٦٣ والبيت غير منسوب الى قائله

(٢) أنظر الحيوان ٦: ٨٦ ، الوحشيات : ٢٠١، ٢٠٢ ، ثمار القلوب: ٤٤٥

(٣) الأغاني ١٥: ١٣٩ ط بولاق وانظر حول حمى الماء مجمع الامثال ٢:٣٤.

مَواقِـعَ المـاءِ مـنْ ذي الغُلَّـةِ الصّـادي[1]

وإذا اراد الشاعر أن يبين شدة وجده وولهِهِ بصاحيته، شبهه بوجد الظمآن للماء إذا حرم منه . قال امرؤ القيس:

لَعَمْـــرُكَ إنّنـــي لأحـــبُّ مَيّـــاً

كَحُـــبِّ مُحَـــلاءٍ ظمـــأنَ رَيّـــا[2]

وأنشد ابن دريد لأعرابي قوله :

واني لأهْواهـــا وأهـــوْى لِقاءهـــا

كما يشْتهي الصّادي الشَّرابَ المُبرّدا[3]

وشدة الشوق الذي يشعر به المحب لا يتصوره إلا حراً يأكل أحشاءه ، فإذا أراد المبالغة في إظهار ألمه قال: أنه حَرٌ لا برد فيه[4] .

وقال الثعالبي: برد الشراب يتمثل به في كل محبوب وعند كل مشتهى[5] .

---

(١) ديوان القطامي : وانظر أيضا الحيوان ٥:٤١.

(٢) ديوان امرىء القيس : ٢٥٩ .

(٣) الأمالي للقالي ١: ٣٣ ، وانظر ايضا أراجيز العرب : ٦٧، والبيت منسوب للأحوص الشاعر الإسلامي المعروف في الأغاني ١١: ٢٢ وانظر ايضا زهر الاداب ٢: ٣٧٢، التنبيه على أوهام ابي علي : ٢٧ .

(٤) الحيوان ٥: ١٩٢ ، الصناعتين : ٧٧، الكامل للمبرد ٢: ٦٠٦ ، الأمالي للقالي ٢: ١٩٢.

(٥) ثمار القلوب :٤٩٩ ، وانظر أيضا النهاية في غريب الحديث ١: ٧١

وأخيراً فقد سُئل الإمام علي عن حب المسلمين للرسول (ﷺ) فقال: (كان والله أحبُّ إلينا من أموالِنا وأولادنا، وآبائنا وأمهاتِنا، ومن الماء البارد على الظمأ) [1].

هذه الصورة المحببة للماء، وما يلاقيه العرب في بيئتهم الصحراوية الشحيحة تساعدنا في تصور الجو الرهيب الذي تثيره الآيات الكريمة. ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [2]. فهذه الآيات وحدها كافية لإثارة الجو الرهيب في نفس الإنسان، فكيف بالعربي الذي يرى في حرمان الماء عذاباً لا يدانيه عذاب؟ إن الآيات الكريمة تثير في ذهنه معالم بيئته القاسية التي عرف فيها أهمية الماء، وما يصيب الانسان من الأذى أو الحرمان حين يُحرم منه أو يفتقر إليه في مجاهل الصحراء وفيا فيها...!

إنها مشاهد رهيبة تثيرها الآيات الكريمة في رسم صور العذاب بالعطش والحرمان من الماء حين يطلب أهل النار من أهل الجنة أن يفيضوا عليهم شيئاً من الماء يروي عطشهم، ولكنّ الرد يأتيهم قاسياً رهيباً، اذ لا رحمة لأهل النار، ولا يفيض أهل الجنة عليهم بشيء من الماء، حتى إذا بلغ فيهم الظمأ مداه، وقُطِّعْت امعاؤُهم لهفا على الماء، سُقوا شرابًا حاراً واي شراب؟ إنه شراب صُوّر بعدة تعابير، كل منها يعطي صورة مفزعة، فهو تارة الحميم، وأخرى الغسّاق، ويشَبَّه مرة بالْمُهْل، وبالصديد مرة أخرى.

(١) الكامل للمبرد ٢: ٦٠٧، ثمار القلوب: ٤٩٤.
(٢) سورة الأعراف ٧: ٥٠

أ- الحميم:[1]

ورد الحميم في الآيات الكريمة محاطا بسياق عام يعرض عذاب جهنم الأليم، ولظاها المحرق، ففي سورة الدخان عرضت الآيات الكريمة طعام أهل النار الذي يغلي في بطونهم ويؤذيهم، فيأتي الشراب، ليغلي هو الآخر في بطونهم، ويزيد عذابهم:

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾[2].

وقال تعالى أيضاً:

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾[3].

وفي سورة الرحمن صُوِّرَ المجرمون وهم يطوفون في جهنم بينَ الحميمِ، والماء الحارِ الذي بلغ أقصى درجات الحرارة:

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾[4].

(١) ورد في خمس عشرة آية انظر المعجم المفهرس: ٢١٢

(٢) سورة الدخان ٤٤: ٤٣-٤٩

(٣) سورة الصافات ٣٧: ٦٢-٦٨

(٤) سورة الرحمن ٥٥: ٤٢-٤٤

وفي سورة الواقعة نجد وصفاً دقيقا لهذا الشراب المؤذي الذي يلجأ اليه المجرمون بعد أن يحرق الزقزم بطونهم ، فيشربون من الحميم، فلا يرتوون، بل يزيد أذاهم، وعطشهم، ويشبهون بذلك الإبل الهيم: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾[1].

ونجد في صفة هذا الشراب أيضاً أنه يقطع الأمعاء لشدة حرارته:

﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾[2].

لقد فسَّر بعض المفسرين الحميم في الآيات السابقة، بأنه الماء الحارالمغلي الذي تناهي حره، وبلغ أقصى الدرجات[3].

وقال آخرون: إن الحميم دموع أعين المجرمين في النار، تتجمع في خنادق فيُسْقَونه[4].

وكلا التفسيرين يعطي معنى واحداً هو أن ما يُسقى منه المجرمون شراب شديد الحرارة ، سواء كان مغليا أو كان دموع المجرمين الحارة.

(١) سورة الواقعة ٥٦: ٥١: ٥٦

(٢) سورة محمد ٤٧: ١٥

(٣) تنوير المقباس : ٨٩، مجاز القرآن ١: ٢٧٤، جامع البيان ١٧: ١٣٣، ٣٠: ١٣، تفسير القمي : ٣٤٦، التبيان ٨: ٥٠٣ ، الكشاف ١: ٥١١.

(٤) جامع البيان ٣٠: ١٣.

ومن الضروري تتبع دلالة الكلمة، ومعانيها في الذهن العربي لمعرفة الإيحاء الذي تثيره الآيات الكريمة.

فالحر في الصحراء العربية-وقد مرت بنا صوره- جعل العرب يكثرون من وصف شدة القيظ والأيام الحارة، فسموا القيظ الحميم[١] وقالوا: حُمّة الحر وشدته[٢]. وقد وردت بهذا المعنى الحسي في القرآن الكريم أيضاً حين ذكرت أموال الباطل، وكيف أنها يُحمى عليها في نار جهنم، ويكوى بها أصحابها[٣].

ووصفت النار بالحامية لشدة حرارتها[٤] وكذلك وردت في الحديث النبوي الشريف[٥].

ومن هنا أطلق الحميم على كل مااشتدت حرارته، فأطلق مثلا على العيون الحارة التي وجدت في بعض أنحاء الجزيرة العربية وسمّوها الحُمة[٦].

ومن ثم أطلق الحميم على كل ماء حار[٧]. أما العرق الذي أطلق عليه الحميم[٨] فقد سمي بذلك على التشبيه، ولأنه لا يخرج من مسامات جسم الإنسان إلاّ عند اشتداد الحر.

---

(١) الأزمنة لقطرب : ٤٥، النوادر ١ : ١٥، الصحاح ٥: ١٩٠٥، لسان العرب ١٥: ٤٣.
(٢) الصحاح ٥: ١٩٠٤، لسان العرب ١٥: ٤٢.
(٣) سورة التوبة ٩: ٣٥
(٤) سورة الغاشية ٨٨: ٤
(٥) مسند الإمام أحمد ١ : ٨٣، ٢٠٧ ، ٢٦٢.
(٦) المخصص ١٠: ٢٣، جمهرة اللغة ١ : ٦٤، الصحاح ٥: ١٩٠٤ .
(٧) أبو عبيدة وابن السكيت عن المخصص ١٠: ٣٣، جمهرة اللغة ١ : ٦٤، الصحاح ٥: ١٩٠٤
(٨) المخصص ٩: ١٣٩ ، جمهرة اللغة ١: ٦٤، المسلسل : ٢٨٧، المفردات : ١٢٩، وانظر الشعر في شرح ديوان لبيد : ١٣٢، ديوان النابغة الجعدي: ١١، ديوان المزرد بن ضرار: ٤١، شعر المثقب العبدي:٢٥.

أما الحميم الذي هو القريب أو الصديق و الذي ورد في القرآن الكريم أيضاً [1] فقد علل الراغب تسميته بأنه يحتد لحماية ذويه[2].

وفي كل هذه المعاني المتعددة للكلمة نجد أنها تعني شدة الحر وبلوغه أقصى الدرجات. وهو المعنى الذي فسرت به الآيات الكريمة بأن المجرمين حين تشويهم النار بلظاها فيتمنون ماء يطفئون به غليلهم، ويخففون به شدة الحر وعذاب النار فاذا بهم يسقون ماء بلغ في غليه أقصى درجات الحرارة، فيقطع أمعاءهم، ويزيد عذابهم.

وورد الحميم في آيتين على أنه وسيلة من وسائل التعذيب الجسدية فضلاً عن كونه شرابا قاسيا ﴿ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾[3] في هذه الآيات نجد تصويرا معجزا رائعا لشدة حرارة الحميم ، فهو إذا صب على رؤوسهم صهر جلودهم، وبطونهم، ومع ذلك يعادون الى خلقتهم الأولى، ليعاد عذابهم، وقوله تعالى: ﴿ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ يزيد تصوير شدة حرارة الحميم الذي يصب على رؤوس المجرمين ، وقد قُنِّعوا بالحديد ، فيلهب بحرارته رؤوسهم، وينفذ الحميم الى بطونهم فيذوبها، فتتشكل الصورة الكاملة لعذاب الحريق مع الشراب الحار الذي يسقونه، ويصب على رؤوسهم.

ب- الصديد:

اما الصديد فقد وصف به الماء الذي يغاث به المجرمون في النار حين يشتد عطشهم، ﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ

(١) أنظر المعجم المفهرس :٢١٢.

(٢) المفردات:١٣٩.

(٣) سورة الحج ٢٢: ٢٠-٢١

﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾[1].

فسَّر الصديد بأنه ما يخرج من أجساد المعذبين في النار من قيح ودم[2]. وهكذا عرفه العرب في حياتهم، وتعابيرهم اللغوية[3]. وهذا المعنى الذي فسرت به الآية الكريمة يعطي إيحاء رهيبا فضلاً عن إيحاء العطش، والحرمان من الماء، لأنه يوحي بالأذى والألم الشديد، فهو يخرج من أجساد المعذبين، وحروقهم في النار، ومع ذلك لايجدون شراباً غيره فيضطرون الى شربه وتجرعه، ولكنهم لا يستطيعون احتماله، لأنه لا يشفي غليلهم أولا ، ولأنه يثير التقزز في النفوس ثانيا، فيتمنون الموت، ولكنهم لا يموتون ، لأنهم قد كتب عليهم العذاب الأزلي الدائم.

ج- المهل:

ومثل الصديد فسَّر بعضهم المهل في قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[4] إلاّ أن في الآية الكريمة إيحاء آخر غير معنى الجروح والقروح، وهو معنى المُهلِ الذي فسره معظم المفسرين بالنحاس الذائب كما مر بنا سابقاً. فهذا المعنى يزيد الآية إيحاء آخر، ذلك ان الماء الذي يغاث به المجرمون يغلي

(١) سورة ابراهيم ١٤: ١٥-١٧.

(٢) تنوير المقباس: ١٦١ ، مجاز القرآن ١: ٣٣٨، جامع البيان١٣: ١٩٥ التبيان ٦: ٢٨٣، الكشاف٢: ١٧٥، النهاية في غريب الحديث ٢: ٢٥٤.

(٣) جمهرة اللغة ٣: ١٩٠ ، الصحاح ١: ٤٩٣، مقاييس اللغة ٣: ٢٨٢، المخصص باب الجراح والقروح ٥: ٩١

(٤) سورة الكهف ١٨: ٢٩

كغليان النحاس والمعدن، ولشدة غليانه يحرق الوجوه، ويشويها، فكيف بهم اذا أجبروا على شربه وتجرعه!! وهو في هذه الحالة مقزز غير سائغ كالصديد والقيح.

ومثل هذا فسر بعضهم الغساق في قولهم تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَّابِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾[1]، فقالوا أنه ما يسيل من جلودهم من الصديد، والقيح[2].

وقالوا في تفسير البرد في الآية الكريمة بأنه سبحانه وتعالى حَرَّم على الكافرين الشراب البارد الذي يبِّرد حر السعير[3]، فهم لا يسقون إلا الحميم والغَساق. وقد اجتمعت في هذا الشراب شدة الحرارة، ونتن الرائحة.

وقال بعضهم البرد هنا النوم. ويبدو أن المعنى الأول أكثر انسجاما مع سياق الآيات العام الذي يعرض شدة العطش والحرمان من الماء البارد الا الشراب الذي يزيد عطشهم ويحرق أبدانهم. هذه التعابير تجتمع كلها لتصور شراب أهل النار على أنه وسيلة من وسائل التعذيب فضلاً عن معاناتهم لهب النار، ولظاها المحرق. ومن الواضح أن إطلاق الشراب على هذا الضرب من العذاب إنما صدر عن سخرية لاذعة بالمجرمين، ولا يفيدهم فائدة الماء، ولكنهم يشربون منه، لأنهم لا يجدون شرابا غيره، ولأن الطعام الذي يتجرعونه يزيد عطشهم ويحرق بطونهم، فيشربون من هذا الشراب دون أن يجدوا فيه لذة الشراب ونعيم الماء.

---

(١) سورة النبا ٧٨: ٢١-٢٥

(٢) جامع البيان ٣٠: ١٣، الكشاف ٣: ١٨، وكذا قال اللغويون انظر شواهد الشعر في المفضليات: ٢٩، الوحشيات: ٢٢٦

(٣) تنوير المقباس: ٣٧٩، جامع البيان ٣٠: ١٢، تنزيه القرآن: ٣٦١ الكشاف ٣: ٣٠٦.

وعذاب العطش والحرمان من الماء صور في آية أخرى بتعبير رائع يجعل من صورة العطش لوعة دائمة التجديد ، تتجسد فيها صور من البيئة العربية قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [١] .

ففي هذه الآيات الكريمة ترتسم لنا صورة العطش الدائم ، والحرمان الأزلي من الماء، وشبه شربهم المتواصل الذي لا يجديهم بشرب الهيم.

وقد اختلف المفسرون في تفسير الهيم ، فقال بعضهم إنّ الهيم(هي الإبل الظماء إذا أخذها الداء الهيام لا تكاد أن ترتوي) [٢] .

وقال آخرون بأن الهيم هي الإبل العطاش، ولم يخصوها بالمرضى قال ابن عباس: (وقيل كشرب الإبل العطاشى إذا أكلت الحمض) [٣] وكذا قال اللغويون [٤].

وقد اعتمد المفسرون في هذا التفسير على معنى عرفوه في بيئتهم ، وكثر استعماله في لغتهم وتعابيرهم، ذلك أنهم اعتادوا أن يراقبوا إبلهم في حالة صحتها، ومرضها،

---

(١) سورة الواقعة ٥٦: ٥١-٥٦

(٢) تنوير المقباس : ٣٣٩، جامع البيان ٢٧: ١٩٥، التبيان ٩: ٥٠٢ الكشاف ٣: ١٩٥

(٣) تنوير المقباس٣٣٩ ، وانظر ايضا جامع البيان ٢٧: ١٩٥-١٩٦

(٤) جمهرة اللغة ٣: ١٨٢ ، الصحاح ٥: ٢٠٦٣، أساس البلاغة : ١٠٧١ لسان العرب ١٦: ١١٠، ١١٠، ديوان الشماخ: ٨٥

فعرفوا فيها داء أسموه الهيام (داء يصيب الإبل من ماء تشربه مستنقعاً)[1]. وقال ابن السكيت (الهُيامُ داءٌ يأخذ الإبل في بعض المياه بتهامة) [2].

وقد عرف الجغرافيون العرب هذا الضرب من الماء في وصفهم لأنحاء الجزيرة العربية، فذكره عرام في وصفه لواد شس في تهامة، فقال: وهو بلد مهيمة موباة، لا تكون بها الإبل، يأخذها الهيام عن نقوع بها ساكرة لا تجري قال الشاعر:

كأنَّـــكَ مَـــزْدوعٌ بشـــس مَطَـــرَّدِ

يفارِقُــه مــن عُقْــدةِ البَعــقِ هيُمهــا[3]

أي كأنك جمل مبعد عن وادي شسّ مصاب بأوجاع مؤلمة ، يريد أن يفارقه ، وخصت هذه المنطقة بالذكر ، لأنها موباة بمرض الهيُام.

واذا كان هذا الماء الذي يسبب مرض الإبل قد عرف بعينه في منطقة تهامة، وعرفوا نتائجه الوخيمة على ابلهم، فمن الجائز أن نجد ماء راكدا مثله في مناطق أخرى من الجزيرة العربية يسبب مرض الهيام أيضاً، ومن هنا نجد شيوع استعمال كلمة الهيام في أشعارهم، ووصفهم لإبلهم . قال الحادرة[4]:

---

(١) لسان العرب ١٦/ ١١٠

(٢) عن المخصص ٥:٣٧. وانظر ايضاً ٧: ١٧٠

(٣) أسماء جبال تهامة :٢٩ ، والبيت غير منسوب لقائله ، وانظر ايضاً معجم البلدان ١ : ٦٧٢

(٤) الحادرة لقب غلب عليه ، والحويدرة ايضا اسمه قطبة بن أوس بن محضن من شعراء قيس ، شاعر جاهلي مقل، وانما سمي الحادر ة لقول زبان بن صبار الفزاري

كأنـــــكَ حـــــادرةُ المَنكبـــــينِ

رصـــــعاء تـــــنقضُ في حـــــائرِ

انظر ديوان المفضليات : ٤٨- ٤٩ ، الأغاني ٣: ٧٩

أودى السِــــفارُ برمّهـــا فتخالُهـــا

هـــيماً مُقطَّعَـــةَ حبـــالَ الأذرع [1]

أي ذهبت كثرة الأسفار بلحوم هذه الإبل ، وشحومها ، وأصابها الهيام ففصّد عروقها وقطعها، لأنها تشرب من الماء فلا تروى .

وقال لبيد:

أجْـــزتُ الى معارِفهـــا بُشْـــعثٍ

وأطـــلاح مـــن العيـــديّ هِـــيمُ [2]

هذه الصورة للإبل العطاشى المريضة قد علقت في أذهان العرب وشعرائهم، فجعلوا منها مادة لا تنضب لتشبيهاتهم ، وأخيلتهم . قال أعرابي:

فـما وَجْـدُ ملـواحِ مـن الهِـيمِ حُلِئَـت

عـن المـاءِ حتـى جَوفُهـا يَتَصلْصـلُ

تحـومُ وَتغشاهـــا الـــعصيُّ وحوهَـــا

أقطِّـــع أنعـــامِ تُعَـــلُّ وُتْنَهـــل

بـــأكثرَ منـــــي غُلـــةَ وتَعَطُفـــاَ

الى المـــاءِ الا اننـــي أتجَمَـــلُ [3]

(١) المفضليات : ٤٧ ، وانظر ايضا قول ربيعة بن مقروم :١١٨

(٢) شرح ديوان لبيد : ١٠٣

(٣) الحيوان ٣:١٠٤، وانظر شواهد شعرية أخرى في ديوان عامر بن الطفيل : ٣٢، ديوان شعر ذي الرمة : ٥٨٨، تاريخ العرب للأصمعي :١٠٣ الصحاح ٥: ٦٠٣

فصورة الإبل المصابة بمرض الهيام ، المتشوقة الى الماء الدائمة العطش الا أنها محرومة يمنعها أصحابها عن الورد بالضرب والعصي، ومع ذلك ترى الأنعام ترد الماء وترتوي منه ، فيزيد وجدها وتشوقها الى الماء هذه الصورة شبه بها الأعرابي حاله في شدة عطشه إلا أنه أكثر صبراً وتجملا من الإبل الهيم. والأعرابي في هذه التشبيهات إنما استند على صورة اعتادها في الصحراء الواسعة .

ومن هنا جاء تفسير المفسرين لقوله تعالى ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [١]

إنّ عطش أهل النار الشديد يجعلهم يشربون من الماء المغلي فلا يرتوون، بل يزداد عطشهم، وألمهم، ومثلهم في هذا مثل الإبل الهيم التي مرت بنا صورها، والتي اعتادها العرب في بيئتهم.

اما التفسير الثاني للآية الكريمة فقد ذهب به بعضهم بعيدا عن معنى الإبل العطاشى فقالوا (الهيم هي الأرض السهلة) [٢]. وقال الطبري: (يقال إنّ الهيم الرمل، بمعنى ان أهل النار يشربون الحميم شرب الرمل الماء)[٣]. وقد استمد المفسرون هذا المعنى من استعمال لغوي للكلمة عرفه العرب، وشاع استعماله أيضاً، وهو اطلاقهم

---

(١) سورة الواقعة ٥٦: ١٥-٥٦

(٢) تنوير المقباس : ٣٣٩.

(٣) جامع البيان ٢٧: ١٩٥، الكشاف ٣:١٩٥

الهيام على نوع من الرمل، قال الاصمعي: (الهيام الذي لا يتمالك أن يسيل من اليد من لينه) [1]، قال لبيد:

تَجتـــافُ أصْـــلاً قالصـــاً متنبـــذاً

بعجُـــوب أنقـــاءٍ يَميـــلُ هيامهـــا [2]

يقول ان هذه البقرة تدخل نفسها في جوف شجرة كبيرة ، بعيدة عن المسالك نابتة في اطراف كثبان تنهال رمالها بسرعة وقال أيضاً:

يَـــزَعُ الهِيـــامَ عـــن الثـــرى ويمـــدّهُ

بُطَـــحٌ تَهايُلُـــه عـــلى الكثبـــانِ [3]

هذا الرمل الذي يتساقط بسرعة ، ويسيل منها لأدنى حركة لا يمسك الماء إذ سرعان ما تبتلعه ذراته، وتغور به، فلا يبقى له أثر ، وهي صورة تشبه صورة الإبل الهيم التي لا يجديها الماء شيئاً، فمهما شربت عادت إلى حالها الأولى من لوعة العطش والتشوق الى الماء وفي كلا الصورتين نجد معنى ماديا وثيق الصلة بالبيئة العربية بحيث يصعب علينا تحديد دلالة الكلمة الاولى .

وهكذا يعرض لنا تعبير الهيم في الآيات الكريمة صورة العطش الدائم واللوعة المستمرة التي يعاني منها المجرمون يوم القيامة، كما يعكس لنا صوراً من البيئة العربية،

---

(١) مجالس ثعلب ٢: ٤٦٨ ، جمهرة اللغة : ٣: ١٨٢ ، الصحاح ٥: ٢٠٦٣ ، أساس البلاغة : ١٠٧١ ١٠٧١ لسان العرب ١٦، ١١٢.

(٢) شرح ديوان لبيد ٣٠٩ ، ، والشطر الثاني من شواهد الخليل في العين ١٤ والأصمعي في المخصص ١٠: ١٤٥ .

(٣) شرح ديوان لبيد :١٤٤

صورة الإبل المريضة بالهُيام تشرب الماء فلا ترتوي، وصورة الرمل المنهال الذي لا يمسك الماء. ولا يحفظه، وهي صورة تكمل ملامح عذاب المجرمين في النار حين يسقون الطعام المؤذي الذي يلهب بطونهم، فيشربون شرابا حارا يزيد عطشهم ويلهب أحشاءهم.

٦- طعامهم:

اما طعام أهل النار فقد صور في القرآن الكريم بعدة تعابير تجتمع كلها لإثارة جو رهيب لصنف آخر من صنوف عذاب المجرمين في النار:

أ- الضريع:

قال الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾[١].

فقد سمي طعام المجرمين بالضريع ووصف بأنه لا يسمن ولا يشبع كما هو معروف في طعام الناس.

وقد اختلف المفسرون في تفسيره ، فقال بعضهم : (لا أدري ما الضريع ، لم أسمع عن أصحاب محمد ﷺ فيه شيئا) [٢].

وقال آخرون إن الضريع شجر من نار [٣] .

---

(١) سورة الغاشية ٨٨: ٢-٦

(٢) هو قول الحسن البصري في التبيان ١٠: ٣٣٤- ٣٣٥

(٣) تأويل مشكل القرآن : ٤٨، جامع البيان ٣٠: ١٦٢ وانظر ايضاً متشابهات القرآن ٢: ١١٦

وقرن فريق من المفسرين الضريع بنبات عهدوه في البيئة العربية ، وعرفوا ميزاته وصفاته. قال ابن عباس: (شوك يكون في البادية)[1].

وقال ابن قتيبة مفسراً الضريع بأنه (نبت يكون في الحجاز ، يقال لرطبه الشبرق ، لا يسمن ولا يشبع، قال امرؤ القيس:

فـاتبعتُهُم طَـرْ في وقـد حـال دونَهـم

غـواربُ رَمْـلِ ذي ألاءِ وشِـبرقِ

والعرب تصفه بذلك) [2] . وقال ابن قتيبة أيضاً إن (الضريع من أقوات الأنعام، لا من أقوات الناس، وإذا وقعت فيه الإبل لم تشبع وهلكت هزلا قال الهذلي يذكر إبلا وسوء مرعاها:

وحُبِسـنَ في هَـزْمِ الضّـرِيعِ فكلُّهـا

حَـدباءُ داميـةُ اليـدينِ حَـرودُ [3]

وهذا البيت لقيس بن خويلد بن العيزارة [4]، في أبيات يرثي بها أخاه وروايته في الديوان :

---

(١) اللغات في القرآن الكريم.

(٢) تأويل مشكل القرآن : ٤٨ ، والبيت في ديوان امرئ القيس ١٦٩، وانظر أيضاً النهاية في غريب الحديث ٣:١٨.

(٣) تأويل مشكل القرآن : ٤٩

(٤) شاعر جاهلي من بني هذيل ، والعيزارة أمه ، وبها يعرف. وهو قيس بن خويلد، أسرته فهم فافلت منهم ، واخذ سلاحه تأبط شرا. انظر شرح اشعار الهذلين ٢: ٤٨٩ .

وحُبِسْـــن في هَـــزْمِ الضَـــريعِ فكلُّهـــا

حَـــدباءُ داميـــةُ اليـــدينِ جـــدودُ[1]

وهي أرجح من رواية ابن قتيبة ، لأنها تبين صورة الإبل التي شبه بها الشاعر القوم الذين يقتاتون ما لا يشبعهم ، بأنهم كالإبل لتي حبست ، ومنعت إلاّ من أكل الضريع- وهو الشبرق- فهزلت وبدت عظامها، وانقطع لبنها .

وقال آخرون إنّ الضريع هو الحجارة [2]، ولايوجد في استعمال الكلمة اللغوي ما يساعدنا في فهم الضريع بأنه الحجارة، أما الذين قالوا بأنّ الضريع شجر من نار [3]، فإنما ردوا بقولهم على من اعترض على وجود طعام في النار التي تحرق كل شيء .

ويبدو أن أقرب هذه التفاسير هو قول من قال: إن الضريع نبت معروف في الجزيرة العربية، وليس القصد من هذا إطعامهم، ضربا من الطعام، انما المراد السخرية بالمجرمين ، ذلك لان الناس تأكل لتزيد قواها وتشبع، اما طعام أهل النار فأنه لا يغني من جوع ولا يسمن ابداً، وله صورته الواضحة في البيئة العربية ، فقد اعتاد العرب النباتات المتوفرة في بيئتهم، وخبروا أنواعها، وما يفيد حيوانها ، وما يضره، فكان من بينهاضرب خاص من النباتات اذا رعت فيه حيواناتهم ساءت حالها وتدهورت صحتها، وذلك هو الشبرق اليابس الذي اطلقوا عليه اسم الضريع[4]، ومن هنا فخروا

(١) شرح ديوان الهذليين ٢: ٥٩٨ ، وانظر أيضاً الصحاح ١: ١٠٨، ٤٦١

(٢) جامع البيان ٣٠: ١٦٢

(٣) انظر : الصفحة السابقة.

(٤) انظر الفاخر: ١٠٧ ، جمهرة اللغة: ٢: ٣٦٢، فقه اللغة : ٤٧ المحكم ١: ٢٥٠

بخيولهم القوية، واعتنائهم بها، وكيف أنهم لا يطعمونها الى الطعام الجيد لا الضريع المؤذي:

ألا منَعَـــــتْ ثُمالـــــةُ بطـــــنَ وجٍ

بجُرْدٍ لم تُباحَتْ بالضرَيعِ [1]

ومن هذا النبت الذي يهزل الإبل ويضعفها أطلقوا تعبير الضَرَع على الضعف والذل بصورة عامة[2]. لأن من يضعف ، ويهزل تذل نفسه ، وتسكن ومنهنا فسر بعضهم الضريع بقولهم: (الضريعُ بمعنى المُضرْعُ أي يضرعهم).

وهذا المعنى المتطور من الأصل المادي يساعدنا في فهم الآية الكريمة، وذلك أنه مادام طعام أهل النار لا يسمن ، ولا يغني من جوع، وأنه الضريع الذي أكلته الإبل هزلت قواها، فإن هذا الطعام يؤدي حتماً إلى ضعف قواهم وهزلهم، وإنما سمي طعاما (من حيث يستطعم) [3] أو (أريد أنه لا طعام لهم أصلا، لأن الضريع ليس بطعام للبهائم فضلا عن الإنس ، لأن الطعام ما أشبع، او أسمن، وهو منهما بمعزل كما تقول ليس لفلان ظل إلاّ الشمس، تريد نفي الظل على التوكيد) [4].

---

(١) الفاخر: ١٠٧، والبيت منسوب لمالك بن عوف الغامدي في أساس البلاغة : ٣٢

(٢) جمهرة اللغة ٢: ٣٦٢، الصحاح ٣: ١٢٤٩، تمام فصيح الكلام : الورقة ١٥ ، مقاييس اللغة ٣٩٥، المحكم ١: ٢٤٩، وانظر شواهد الشعر في ديوان الاعشى ٣٩: ١٠٩، المفضليات ٢٠١، الوحشيات: ٢٣: ١٢٢. وكذا وردت في القرآن الكريم أنظر سورة المؤمنين ٢٣: ٧٦

(٣) تنزيه القرآن : ٣٥٣

(٤) الكشاف ٣: ٣٣٢

وهذا الجوع المهزل الذي يعذب به المجرمون تضاف اليه شدة العطش، والحرمان من الماء، فتكتمل صورة المعذبين في النار وما يلاقونه من صنوف العذاب والأذى.

ب- الزقوم:

وهناك تعبير آخر يخص طعام أهل النار ونجد فيه وصفاً للشجرة التي يأكل
المعذبون منها. قال الله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ
﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا
هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا
تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ
كِدْتَ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا
نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ
شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا
كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾
ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾[1].

---

(١) سورة الصافات ٣٧: ٤١ – ٦٨

وقال تعالى أيضاً واصفاً ثواب أهل الجنة معدداً نعمهم ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾[1].

وقال سبحانه وتعالى واصفاً عذاب المجرمين وطعامهم: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴾[2].

ففي هذه الآيات الكريمة مقابلة رائعة بين شجرة الزقوم التي يأكل المجرمون منها، فتملأ بطونهم، وتغلي فيها كغلي الحميم، وبين صورة المؤمنين الآمنين في جناتهم حيث الفاكهة المتنوعة، ولحوم الطير، وكل ما تشتهيه أنفسهم.

وطعام المجرمين في هذه الآيات الكريمة عبر عنه بشجرة الزقوم ، إلاّ أن المفسرين لم يفسروا لنا ماهية هذه الشجرة، لأنهم لم يعرفوا شجرة بعينها في بيئتهم تسمى الزقوم، ولكن في أذهانهم صورة لها، ذلك لأنهم اعتادوا أن يسموا كل طعام ثقيل بالزقوم[3] .

وقد اعترض ناس على وجود شجرة في النار التي تحرق كل شيء ، وأن هذه الشجرة لا يعرفها العرب فكيف خاطبهم الله سبحانه وتعالى بها يجهلون؟ قال القاضي عبد الجبار بن أحمد راداً على هؤلاء : (وجوابنا أنه اذا وصف حالها صحَّ التخويف بها ،

---

(١) سورة الواقعة ٥٦: ٢٦- ٣٤

(٢) سورة الدخان ٤٤: ٤٣- ٤٨

(٣) لسان العرب ١٥: ١٦١ ، النهاية في غريب الحدجيث ١: ١٢٨

ولذلك قال الله تعالى: ﴿كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ﴾(١). وقال أيضاً (وربما قيل في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ﴾ كيف يصح التوعد بما لا يعرف من جملة الأشجار؟ وجوابنا إنّ لفظة الزقوم معروفة بأنها تستعمل في الكريه من الأشياء، فجاز أن يتوعد الله تعالى بذكرها)(٢).

روي أنه لما نزلت الآيات الكريمة بذكر الزقوم لم يعرفه العرب. فقال ابو جهل: هذا شجر لا ينبت بأرضنا فمن منكم يعرفه؟ فقال رجل من إفريقيا: الزقوم بلغة إفريقيا الزبد والتمر. فقال أبو جهل: يا جارية، هات تمراً وزيداً نزدقمه؟ فجعلوا يأكلون ويتزقمون ويقولون: أبهذا يخوفنا محمد في الآخرة ؟ فبين الله تعالى في آية أخرى الزقوم بقوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

ومن هذه الرواية يتبين لنا أن العرب لم يعرفوا شجرة بعينها تسمى الزقوم . وإذا كان هذا الإفريقي – إن صحت الرواية– قد ادعى أنها عندهم التمر والزبد، وأن أبا جهل استغل قوله للسخرية من الرسول الكريم (ﷺ) فقول الإفريقي هذا يؤكد لنا جهل العرب في بيئتهم بالزقوم ، أما دلالتها على الطعام الثقيل أو المكروه فإنما عرفت بعد نزول الآيات الكريمة :

وتأتي بشاعة الزقوم من الآيات التي تليها، وتصفها وصفاً رهيباً تضع سخرية أبي جهل في صورة شاحبة سرعان ما تتلاشى لتحل محلها صورة الرهبة من هذه الشجرة ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ۝٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ

---

(١) تنزيه القرآن : ٣٥١

(٢) نفسه.

فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ ﴾ [1].

وتشبيه طلع شجرة (الزقوم برؤوس الشياطين أثار نقاشاً بين المفسرين فقال بعضهم الشياطين هنا الحيات. وذكر هذا ابن قتيبة حين قال : (والشياطين حيات خفيفات الأجسام قبيحات المناظر . قال الشاعر ذاكراً ناقته:

تُلاعِـــب مثنـــى حضـــرميٍ كأنـــهُ
تعمـج شـيطانِ بـذي خِـرْوَعٍ قَفْـرِ [2]

يعني زماما ، شبه تلويه بتلوي الحية . وقال آخر:

عُجَيِّـــز تَحلِـــفُ حـــينَ أحلِـــفُ
كمثـــلِ شـــيطانِ الحـــماطِ أعـــرَفُ [3]

والحماط شجر، والعرب تقول ذلك إذا رأت منظراً قبيحاً كأنّه شيطان الحَماط، يريدون حية تأوي في الحماط) [4].

وتفسير المفسرين هذا صادر عن معرفتهم ضرباً خاصا من الحيات اطلقوا عليه اسم الشيطان كما ورد في كتب اللغة [5].

---

(١) سورة الصافات ٣٧: ٦٢ –٦٨ .

(٢) لم ينسبه ابن قتيبة الى قائله ، وكذا قال الجوهري في الصحاح ٥: ٢١٤٤، وهو منسوب لطرفة بن العبد في الحيوان ٤: ١٣٣ ، والبيت غير موجود في ديوانه.

(٣) البيت غير منسوب وانظر ايضا التبيان ٨: ٥٠٣ .

(٤) تأويل مشكل القرآن : ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٣، وأنظر أيضاً أدب الكاتب: ٢٢١، جامع البيان ٢٣: ٦٤، التبيان ٨/ ٥٠٣، الكشاف ٢/ ٦٠٣.

(٥) الصحاح ٥: ٢١٤٤ ، مقاييس اللغة ٣: ١٨٤ .

وقال آخرون: إنّ رؤوس الشياطين شجر معروف في البيئة العربية. وذكر الأصمعي أنه يسمى الصوم [1]، وأطلق عليه بعضهم اسم الأستن وقالوا عنه إنه: شجر بشع، منكر الصورة، يقال لثمره رؤوس الشياطين، وهو الذي ذكره النابغة

تَحِيدُ عن استَنَ سُودٍ أسافلُهُ

مثلُ الأماءِ الغوادي تحملُ الحُزَما [2]

وهناك تفسير آخر يجمع التفسيرين السابقين، وهو أقرب التفاسير الى الناحية الادبية يرى بأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يصور بشاعة شجرة الزقوم، فشبه طلعها برؤوس الشياطين؛ لأن الناس رسموا في أذهانهم صورة منكرة لها ، وأول من ذكر هذا التفسير – فيما قرأت من مصادر– هو أبو عبيدة حين سئل في مجلس الفضل بن الربيع عن قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴾ [3] (بأن الوعد والوعيد إنما يقع بما عرف مثله وهذا لم يعرف. قال: فقلت: إنما كلّم الله تعالى العرب على قدر كلامهم أما سمعت قول إمرئ القيس:

أيَقْتُلُني والمَشْرَفيُّ مضاجِعي

ومسنونةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أغوالِ [4]

---

(١) عن الكامل للمبرد ٣: ٨٢١ ، وانظر أيضا جامع البيان ٢٣: ١٦٤، التبيان ٨: ٥٠٣.

(٢) الكامل للمبرد ٣: ٨١٨ ، الحيوان ٤:٣٩، ٦: ٢١١، الصناعتين ، ٨٥ والبيت في ديوان النابغة ١٠٣

(٣) سورة الصافات ٣٨: ٦٤

(٤) البيت في ديوان امرئ القيس : ٣٣

وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به) [1].

وقال الجاحظ معللا هذا التشبيه أيضاً بأنه سبحانه وتعالى (قد جعل في طباع جميع الأمم استقباح جميع صور الشياطين ، واستسماجه وكراهيته، وأجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل في ذلك)[2]. وقال أيضاً رادّا على من أنكر هذا التشبيه لأن الناس لم يروا الشيطان ، ولا وصفت لهم صورته فقال: (قلنا: وان كنا نحن لم نرَ الشيطان قط، ولا صَّور رؤوسها لنا صادق بيده، ففي إجماعهم على الضرب المثل بقبح الشيطان، حتى صاروا يضعون ذلك في مكانين أحدهما أن يقال: لهو اقبح من الشيطان، والوجه الاخر أن يسمى الجميل شيطانا على جهة التطير. . . ففي إجماع المسلمين العرب، وكل من لقيناه على ضرب المثل بقبح الشيطان دليل على أنه في الحقيقة أقبح من كل قبيح، والكتاب إنما أنزل على هؤلاء الذين قد ثبت في طبائعهم بغاية التثبيت) [3]. ويبدو هذا التفسير أقرب التفاسير الى الناحية الأدبية، ذلك لأنهم جروا في تشبيهاتهم على ما عهدته أذهانهم ، وتمثلته أخيلتهم، وللشياطين في أذهانهم صورة واضحة الملامح للبشاعة والقبح.

وتعكس لنا هذه الفكرة نادرة يرويها الجاحظ عن امرأة أخجلته، وذلك أنها أتته يوما وهو على باب داره فقالت له: (لي إليك حاجة، وأريد أن تمشي معي، فقمت معها إلى أن فأتت بي الى صائغ يهودي فقالت له: مثل هذا، وانصرفت. فسألت الصايغ عن

---

(١) معجم الأدباء ٧: ١٦٧ ، وذكر أنه بعد ان رأى استحسان الفضل لقوله، واستحسان السائل أيضا عزم على أن يضع كتاباً في القرآن الكريم ثم وضع كتاب مجاز القرآن، إلاّ أنّ الملاحظ أنه لم يذكر هذا التفسير في مجازه.

(٢) الحيوان ٤: ٩٤.

(٣) الحيوان ٦: ٢١٣ وانظر ايضا تأويل مشكل القرآن : ٣٠٢ ، الكامل للمبرد ٣: ٨١٨ -٨٢١، جمهرة اللغة ٢: ١٥٠ .

قولها فقال: أنها أتتت الي بفصّ وأمرتني أن أنقش لها عليه صورة شيطان فقلت: يا ستي ما رأيت الشيطان، فاتت بك، وقالت ما سمعت!!)[1].

وإذا كانت هذه النادرة تعكس لنا روح النادرة والنكتة التي عرف بها الجاحظ، والتي استدل بعضهم بها على بشاعة خلقه، فإن فيها انعكاسا لصورة الشيطان كما تمثله الذهن العربي، ومن هنا شبهوا به كل شيء كريه المنظر بشع الصورة[2]. كما سمّوا كل خبيث مهلك بالغول[3].

ومن هنا أيضاً نفهم سبب تسميتهم ذلك الضرب من الحيات بالشياطين ، لأن رؤوسها كريهة المنظر، أو لأنها شديدة الأذى، وكذلك القول في النبات الذي أسموا ثمره بالشياطين لبشاعة منظره، فصدر تفسير القائلين في وصف شجرة الزقوم بأنّ طلعها كأنه رؤوس الشياطين أو رؤوس الحيات.

أما التفسير الجامع لكل هذه الصور فهو الذي مرّ بنا سابقاً بأنّ طلع شجرة الزقوم شبه في القرآن الكريم برؤوس الشياطين الحقيقية. لأن كفار قريش حينما استهزأوا واستهانوا بشجرة الزقوم نزلت الآيات بعدها لتصف صورة هذه الشجرة الملعونة، بأنها ليست كما تتصورها أذهانهم، إنما هي بشعة مؤذية كصورة الشياطين التي تخيلتها أذهانهم، ومع ذلك فإن التفسيرين الأولين يضفيان على شجرة الزقوم إيحاء آخر

---

(١) سرح العيون : ٢٥٠ .
(٢) الحيوان ١: ٣٠٠ ثمار القلوب : ٦٠
(٣) الصحاح ٥: ١٧٨٦، لسان العرب ١٤: ٢١

للبشاعة، والرهبة مقترنا برؤوس الحيات المنكرة ، ورؤوس ثمار الشجر البشع الصورة المسماة بالشياطين.

ومما مر بنا نجد أن طعام أهل النار وصف في كل الآيات الكريمة بأنه ليس كالطعام الذي اعتاده الناس ، فهو لا يسمن ، ولا يشبع ويتجرعه المجرمون على مضض لأنهم مجبرون على أكله ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾[1]، وهم في هذه الحالة كأنهم قد حرم عليهم الطعام ، اذ كيف تستطيع النفس أن تدنو من طعام هذه صفته وأذاه؟ ومن هنا جاء قوله تعالى ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾[2] في نفي وجود الطعام لأهل النار إلاّ ما يخرج من جروحهم من الدّم، والصديد[3].

وقال ابن عباس: إنّ الغِسْلين هنا معناه الحار[4]، وكذا قال اللغويون[5] وطبيعي أن يكون الصديد الذي يخرج من أبدانهم حاراً، لأن كل ما يحيطهم هو اللهب ، واللظى المستعر فضلاً عن أن شرابهم شديد الحرارة مغلي. ولا يمكن أن نفهم أن الغِسْلين ضرب آخر من الطعام، وأن المعذبين في النار على طبقات ، ومنهم من يأكل الزقوم، ومنهم من يأكل الغِسلين، ومنهم من يأكل الضريع، كما ذهب بعض المفسرين، لأن الغسلين ليس ضرباً من الطعام، وإنما أريد به نفي وجود الطعام الذي يسمن، ويشبع

(١) سورة المزمل ٧٣: ١٢ -١٣

(٢) سورة الحاقة ٦٩ : ٣٦

(٣) مجاز القرآن ٢: ٢٦٨ : تأويل مشكل القرآن : ٤٨ ، الكامل للمبرد ٢، ٤٥ ، تنزيه القرآن : ٣٥٣ الكشاف ٣: ٢٦٦

(٤) اللغات في القرآن : ٥٠ ، وانظر أيضاً متشابهات القرآن : ١٠٦

(٥) الصحاح ٥: ١٧٨٢ ، لسان العرب ١٤، ٧

كما هو مصور في الزقوم والضريع. فليس لهم طعام إلاّ من الصديد الذي تفرزه أجسادهم، وفي ذلك تبشيع لحالهم.

ويلاحظ في كل التعابير التي تحدثت عن طعام أهل النار في القرآن الكريم أنها اقتصرت على وصف بشاعة الطعام، فلو قارنا هذه الآيات بالآيات التي تخص الشراب، والتي ورد ذكرها سابقاً لوجدنا في الطائفة الأولى تصويراً لبشاعة الطعام الذي يكره على استساغته المجرمون دون الحديث عن عناء الجوع، والحرمان من الطعام، على حين نرى الآيات التي تخص الشراب تحدثت عن العطش، وما يلاقيه المعذبون من أذى حرمانه. ولعل خير ما يعلل هذه الظاهرة القرآنية هو تحرج العربي، واباؤه الذي يحول دون وصف جوعه، وما يلاقيه من حرمان الطعام، أو ما يسد رمقه.

قال الأستاذ جميل سعيد في حديثه عن وصف الطعام عند العرب: (على أننا حين ننظر في الشعر العربي — ولا سيما الجاهلي منه — نجد الشعراء قد كتبوا احساسهم بالجوع كبتاً، وفخروا به وجعلوا التصريح بهذا الاحساس أمراً يخزى الانسان منه، ويلام عليه.. والشعراء الإسلاميون تابعوا الشعراء الجاهليين في هذا، وعدوا شكاة الجوع منقصة توجب اللوم)[1]. على أنّ هذا القول لا يعني أن العرب لم يعانوا من شدة الجوع ما عانوه من العطش، ذلك لأننا نعرف أن الجزيرة العربية أرض جدب وفقر في معظم أجزائها وقد كثرت فيها المجاعات، واشتدت فيها الحاجة الى الطعام في كثير من الأحيان. ومن هنا ذكرت هذه المجاعات، في

(١) الوصف في شعر العراق: ٤٠٠

أشعارهم في موضوع فخرهم [1] حين يفضلون ضيفهم وجارهم على أنفسهم عند المسغبة، وأنهم لا يدنون الى الطعام ، وان كانت بهم حاجة إليه يؤثرون به غيرهم على أنفسهم [2]، كما هجوا أعداءهم بحبهم الطعام [3].

هذا الإباء النفسي يجعل العربي يأنف من ذكر جوعه ، وحاجته الى الطعام بل نراه يفخر بتحمله الجوع . قال الشنفرى في لاميته المشهورة:

أديـــمُ مِطـــالَ الجُـــوَع حتـــى أُمِيتَـــهُ

وأضرِبُ عنه الذِكْرَ صَفْحاً فأذهل [4]

ومثل هذا قول أبي خراش الهذلي [5]:

وإنّي لأُثْـــوي الجـــوعَ حتـــى يَمَلنـــي

فيـذهب لم تـدنسْ ثيـابي، ولا جرمـي [6]

---

(١) وهذا لا يعني انعدام ذكر الجوع في الشعر الجاهلي في غير موضوع الفخر، فقد وجدت إشارات اليه، إلاّ أنهم لم يقصدوا فيها إظهار ألمهم من الجوع ، والحاجة إلى الطعام. انظر في هذا أعجب العجب : ٣٢، ٣٦ وشعر السليك في أمثال العرب : ١٤.

(٢) انظر ديوان عروة بن الورد : ٦٢ ، ديوان علقمة الفحل : ٥٢ ، ٧٢، ديوان عدي بن زيد : ١٤٧ ، وانظر إيضاً أعجب العجب : ٢٠ ، مجالس ثعلب ١: ٦٨، ٦٩ أمالي الزجاجي : ٢٠٤ ، أسماء المغتالين : ٢٤٢

(٣) أنظر ديوان المزرد بن ضرار : ٥٠: ٥١

(٤) أعجب العجب : ٣٢

(٥) هو خويلد بن مرة من بني هذيل من مضر . شاعر مخضرم وفارس فاتك مشهور بالعدو، فكان يسبق الخيل. أسلم وهو شيخ كبير توفي نحو ١٥ هـ. أنظر الشعر والشعراء ٢: ٥٥٤ ، الأغاني ٢١: ٣٨ فما بعدها ، الإصابة ١، ٤٥٧ ، خزانة الأدب ١ : ٢١٣، الإصابة ١ : ٤٥٧

(٦) الأشباه والنظائر : ١٥٧

فهو هنا يفخر بأنه لا يبالي بالجوع الذي يؤذيه ، ويربأ بنفسه عن الحصول على الطعام الذي يدنس سيرته ، وإباءه، وإنما يتغلب على جوعه ويؤثر عبده، وعياله بما لديه من طعام . هذا هو المثل الأعلى الذي رسمه العربي لنفسه حين ترّفع عم ذكر حاجته الى الطعام، أو وصف ألمه من شدة الجوع، وهو يختلف عن وصفه لعطشه، وشدة تشوقه إلى الماء كما – مر بنا سابقاً –. ومن هنا لم تتحدث الآيات الكريمة عن حرمان المجرمين من الطعام الذي يشبعهم جرياً على عادة العرب في تحرجهم من الحديث في هذا الموضوع ، على حين نرى عكس ذلك في الحديث عن العطش الذي صورته الآيات الكريمة أروع تصوير، مما ينسجم مع ما اعتاد العرب ذكره في أشعارهم من وصفهم لشدة العطش الذي عانوه في أسفارهم، وأوقات الهاجرة الحارة. وسنجد هذه الفكرة أيضاً في الحديث عن شراب أهل الجنة وطعامهم.

٧- صنوف أخرى من العذاب:

إنّ ما عرفه الناس في مجتمعاتهم من وسائل التعذيب فضلاً عن الصور التي مرّت بنا باختلاف الأزمنة والأمكنه يضاف إليه ما نجده في القرآن الكريم من صنوف أخرى تعرض جوانب جديدة لتعذيب المجرمين في النار، وتنعكس فيها أيضاً بعض ملامح البيئة العربية.

أ- السلاسل والأغلال:

إن السلاسل والأغلال من الصور التي تؤكد الآيات الكريمة وجودها حيث يقيد المعذبون : ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾[1].

وصفت الآيات الكريمة هذه القيود بأنها تغل أعناق الكافرين، فيسحبون بالنار على وجوههم: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ

(١) سورة الإنسان ٧٦: ٤

ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ (1).

وقال تعالى أيضاً: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾ (2)، والأغلال جمع غلّ: وهي الحديدة التي تجمع يد الأسير الى عنقه(3). هذه القيود الرهيبة تثير في النفس تساؤلا ما إذا كان العرب يعرفون القيود ، والسلاسل؟ . أم أنهم بمجرد سماع الآيات الكريمة يستطيعون تخيلها من الجو الرهيب الذي يرسمه سياق الآيات العام. واذا بحثنا عن هذه الصورة في البيئة الجاهلية وجدناها واضحة كل الوضوح، فقد فخر الشعراء بقبائلهم ، وبطولاتهم التي ينتصرون فيها على أعدائهم. ويكبلونهم بالأغلال. وقد كررها الشعراء الفرسان في أشعارهم، وكيف أنهم يعودون من الغارات، وقد كبلوا أسراهم بالأصفاد، والقيود.

قال عنترة:

تَركْنــا ضرارا بــين عــانٍ مُكَبَّــلِ
وبَــيْن قَتيــلٍ غــابَ عنــه النــوائحُ(4)

(1) سورة غافر ٤٠: ٧٠-٧٣

(2) سورة الرعد ١٣-١٥ وانظر ايضاً سورة سبأ ٣٤: ٣٣

(3) الصحاح ٥ : ١٧٣٢، لسان العرب ١٤ : ١٣

(4) ديوان عنترة: ٤٥

وقال أيضاً:

وعـــدنا بالنِّهـــابِ وبالســـبايا

وبـــالأسرى تُكَبَّـــلُ بالصِـــفادِ [1]

وقال يزيد بن عمرو بن الصعق[2] في يوم المروت[3] مفتخرا:

وضَرَّجنْـــا عبيـــدة بـــالعَوالي

فأصـــبحَ مُوثقـــاً فينـــا أســـيرا [4]

ونجد ذكر القيود مصورا في جانب شعري آخر، حين وصفها الشعراء الذين عانوا ثقلها وأحسّوا بوطئها الشديد على أيديهم وأقدامهم قال المهلهل بن ربيعة ذاكراً القيود التي أوثق بها، فحالت دون حراكه:

اليـــك ابنـــةَ المُجَلّـــل عنـــي

لا يُـــواتي العنـــاقَ مَـــنْ في الوِثـــاق [5]

---

(١) وانظر ايضا ٦٤، ٧١، ٩٧، ديوان سلامة ابن جندل : ١٨، ٤٧، ٤٨، النقائض، ١، ٧٦، ١٥٣، أسماء المغتالين : ٢٢٧.

(٢) يزيد بن عمرو بن الصعق من وجوه قيس . ذكر انه كان يحضر مجلس ابن جفنة ، وهو الذي اسر رؤبة أخا المنذر لأمه . انظر الأغاني ١: ١٣٨ معجم الشعراء: ٢٣٧

(٣) هو يوم بين بني تميم وعامر بن صعصعة. وكان سببه انه التقى قعنب ابن عتاب الرياحي وبجير بن عبدالله العامري بعكاظ. فقال بجير لقعنب: ما فعلت فرسك البيضاء ؟ قال هي عندي وما سؤالك عنها ؟ قال : لأنها نجتك في يوم كذا وكذا . فانكر قعنب ذلك وتلاعنا وتداعيا، فكانت بعدها غارات واسرى بين الطرفين . انظر الكامل لابن الأثير : ٢٦٤: ٢٦٥

(٤) النقائض ١: ٧٢

(٥) أسماء المغتالين: ٢٠٨. وانظر ايضا شرح ديوان عنترة : ٩٧، ديوان عدي بن زيد: ٢٤٠، ديوان النابغة الجعدي: ١٠٣: ديوان الخنساء ١٢. ٢٢ وانظر أيضا الشعر والشعراء ٢: ٥٨٣، امثال العرب: ٦٢ غريب الحديث ١: ٣٢٢-٣٢٤.

وقال أبو محجن الثقفي ، وقد أوثق بالحديد والسلاسل التي حالت دون حركته وسيره قال:

اذا قُمْتُ عنّاني الحديد وأُغْلقَتْ

مصارعُ دوني قد تُصم المنَادِيا [1]

فصورة القيود والسلاسل الواضحة الملامح في البيئة العربية تتمثل في الذهن العربي حين يتلو الآيات الكريمة : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾[2] .

ففي هذه الآيات الكريمة تتابع مشاهد التعذيب والعقاب ، حيث يوثق المجرمون بالسلاسل والأغلال تلف أجسادهم فلا يطيقون الحركة، ثم تتلاشى هذه الصورة لتحل محلها صورة أشد رهبة ورعبا، وهي صورة الأصفاد التي يوثقون بها، فتلفهم لفاً، لأن سياق الآيات العام يساعدنا في تصور هذه الرهبة حين يوجه الخطاب إلى الملائكة بأخذ المجرمين عنوة وبقوة[3]، وتضييق وثاقهم بالسلاسل والقيود.

اما تحديد طول السلسلة التي يقيد بها المجرمون في النار، والتي ذكرت الآيات الكريمة أنها سبعون ذراعاً، فقد ذهب فريق من المفسرين الى العدد الحقيقي فقالوا:

(١) ديوان: أبي محجن ٦٧.

(٢) سورة الحاقة ٦٩: ٣٠-٣٤.

(٣) ويؤكد معنى القوة في أخذ المجرمين قوله تعالى : (يُؤخذُ المجرمون بالنواصي والأقدام) سورة الرحمن ٥٥: ٤١.

(سبعين ذراعاً من ذراع الملك)[1]. وروي عن نوف البكالي [2] أنه قال: كل ذراع سبعون باعاً كل باع أبعد مما بينك وبين مكة وهو يومئذ في مسجد الكوفة [3].

هكذا فهم بعض المفسرين طول السلسة وتحديدها ، إلاّ أن الذي يتتبع الاستعمال اللغوي للعدد سبعة، والأسلوب القرآني الكريم يجد أنه سبحانه وتعالى نهج في بيانه البلاغي نهج العرب في أساليبهم، وتعابيرهم، فقد ذكرت السبعة والسبعون في التضعيف، والتكثير . وهكذا وردت في القرآن الكريم[4]، والحديث النبوي الشريف[5] في مواضع كثيرة لا يراد منها العدد حقيقة، وإنما مجازاً على سبيل المثل والكثرة لا العد والحصر .

ومن الذين أشاروا إلى هذه الناحية الأزهري بقوله: (وأرى قول الله عزوجل لنبيه ﷺ: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [6]. في باب التكثير والتضعيف، لا باب حصر العدد ، ولم يرد الله عزوجل إن زاد على السبعين غفر لهم، ولكن المعنى إنْ استكثرت من الدعاء، والاستغفار للمنافقين، لم يغفر الله لهم)[7].

---

(١) تنوير المقباس : ٣٦٦، جامع البيان ٢٩: ٦٣

(٢) هو نوف بن فضالة البكالي . كان إماماً لأهل دمشق . ذكره ابن حبان في الثقاة وقال : كان راوية للقصص استشهد مع محمد بن مروان في انظر تهذيب التهذيب ١٠: ٤٩٠

(٣) جامع البيان ٢٩: ٦٣

(٤) المعجم المفهرس: ٣٤٠

(٥) النهاية في غريب الحديث ٢: ١٤٣.

(٦) سورة التوبة ٩: ٨٠

(٧) عن لسان العرب ٨: ١٠

وقال الزمخشري مؤكدا هذه الفكرة: (وجعلها سبعين ذراعاً إرادة الوصف بالطول كما قال ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾[1]. يريد مرات كثيرة ، لأنها إذا طالت كان الارهاق أشد)[2].

ب- طلاء القطران:

قال الله تعالى: ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾[3].

في هذه الآيات نجد وصفا لملابس أهل النار ، وكيف أنها تضفي صورا رهيبة أخرى تزيد ملامح العذاب هولا ورعبا.

فالسرابيل هي القمص كما قال المفسرون [4] واللغويون [5] .

اما القطران ثلاث لغات قَطران، قطِران، قِطِران [6]. وقرأها ابن عباس: (قِطْرٍ آنٍ) والقِطْر والقَطْر: النحاس. وقد اختلف المفسرون في تفسيره فقال بعضهم: إنه الهناء

(١) سورة التوبة ٩: ٨٠

(٢) الكشاف ٣: ٣٦٤

(٣) سورة ابراهيم ١٤: ٤٨

(٤) تنوير المقباس : ١٦٣، مجاز القرآن ١: ٣٤٥

(٥) جمهرة اللغة ٣: ٣٠٥، الصحاح ٥: ١٧٢٩، لسان العرب ٦: ٣٥٦ وانظر شواهد الشعر في ديوان عامر بن الطفيل : ١٤، شرح ديوان لبيد : ٣٥٨، المفضليات : ١٤٥، الوحشيات : ٢٢٦ ، وانظر أيضا الصناعتين: ٥٩

(٦) جامع البيان ١٣: ٢٥٥ ، التبيان ٦: ٣١٠ ، الكشاف ٢: ١٨٥

الذي تهنأ به الإبل الجربي[1]. وقال بعضهم: بل هو الصفر المذاب [2]. وبمثل هذا التفسير الأخير قال من قرأ قطرانٍ[3] أي من صفر مذاب قد تناهي حره[4].

ومع أن القراءتين تقدم لنا معنى مشتركا واحدا، وهو السائل المذاب، الشديد الحر سواء كان من صفر مذاب ، أو من الهناء الذي تهنا به الإبل، فالذي يبدو أن القراءة الأولى وعدّ الكلمة اسما واحدا (القطران) هي الأرجح، لأن أكثر القراء عليها [5]، ولأنها تقدم لنا صورة واضحة الملامح للبيئة العربية، شديدة الصلة بحيوانها، لأن إبلهم كثيرا ما كانت تصاب بالجرب فاضطروا الى معرفة دواء يعالجونها به، فكان الهناء أو القطران، وقد قالوا عنه (إنه عصارة الإبل، والإرز، ونحوها، يطبخ فيتحلب منه، ثم تهنأ به الإبل)[6]. وقال أبو حنيفة: (زعم من ينظر في كلام العرب أن القطران هو عصر الصنوبر، وأن الصنوبر هو اسم لوزة ذاك، وأن شجرته به سميت صنوبراً)[7].

---

(١) جامع البيان ١٣ : ٢٥٥ ، التبيان ٦ : ٣١٠ ، الكشاف ٢: ١٨٥ .

(٢) تنوير المقباس : ١٦٣، جامع البيان ١٣ : ٢٥٦ .

(٣) وبهذا المعنى ورد القطر في قوله تعالى : ﴿جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرًا﴾ سورة الكهف ١٨ : ٩٦ .

(٤) تنوير المقباس : ١٦٣، جامع البيان ١٣ : ٢٥٧. وانظر أيضا أدب الكاتب : ٢٢١ لسان العرب ٦: ٤١٧ .

(٥) التبيان ٦: ٣١٠

(٦) لسان العرب ٦ : ٤١٦، الأبهل حمل شجر العرعر ، أنظر الصحاح ٤: ١٦٤٣ .

(٧) لسان العرب ٦: ٤١٧

ولا يهمنا في هذا الباب اختلافهم في استخراج مادة القطران [1]. وإنما المهم معرفة صفة القطران ، ثم دلالته على البيئة العربية، ومعرفة العرب له قال علقمة الفحل واصفا ناقة:

قـدْ أدْبـرَ العُـرّ عنهـا وهـي شـامِلِها

مـن ناصِـعِ القطـرانِ الصِرـفِ سـيم [2]

يقول: قد ذهب الجرب عن هذه الناقة، ولكن بقايا القطران مازال مطليا على جسدها ، ومع أننا لا نستخلص من هذا البيت صفة من صفات القطران، الا أنه يعكس لنا دلالته في الذهن العربي، ومعرفة العرب له قال الزمخشري مفسراً القطران، ذاكراً صفاته بأنه : (ما يتحلب من شجر يسمى الأبهل فيُطبَخُ فتُهنأ به الإبل الجربى، فيحرق الجرب بحرّه وحدته، ومن شأنه أن يسرع في اشتعال النار، وقد يستسرج به، وهو أسود اللون، نتن الريح، فتطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه كالسرابيل وهي القمص لتُجمع عليهم الأربع: لذع القطران وحرقه، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوحش ونتن الريح)[3]. فالزمخشري هنا يجمع كل الإيحاءات التي تدل عليها كلمة القطران، فهو شديد الحر تطلى به أجساد الكافرين، فتسرع النار اليها وتحيطهم من كل مكان. وقول الزمخشري بأنه أسود اللون منسجم مع صفة المجرمين يوم القيامة، وأنهم يكونون سود الوجوه[4].

---

(١) قد يكون هذا الاختلاف صادرا عن اختلافهم في استخراجه ، فيصنعه بعضهم من مادة ، ويصنعه آخرون من مادة أخرى .

(٢) ديوان علقمة الفحل :٦٠ ، وانظر ايضا شرح ديوان كعب: ١٦٠ ، وانظر ص ٨٤ .

(٣) الكشاف ٢: ١٨٥

(٤) يؤجل إلى استقرار الصفحات.

ومن هنا يبدو أن قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾(١) لا يراد به وصف لباس حقيقي لأهل النار (٢)، وانما رسم صورة رهيبة لعذاب النار، حيث تطلى أجسادهم بمادة يسرع فيها لهيب النار، وتحرق جلودهم حتى يصل اللهب الى داخل أبدانهم وقد عبر عن هذه الصورة بتعبير القطران الذي ينقلنا الى صور اعتادها العرب في بيئتهم. وإطلاق اسم السرابيل على هذه المادة يزيد من هول الوصف، لأن الناس قد عهدوا الملابس تقيهم أذى الحر والبرد(٣)، فاذا بالمجرمين في النار يُسَرْبَلُون بمادة لا تمنع عنهم الاذى، بل تزيد في سرعة اشتعال أجسادهم، وأذاهم. هذه المادة اعتادها العربي في بيئته، وألف أن يطلي بها أبلها الجربى، فعرف صفتها، وخبر شدة حرارتها، فكيف به اذا قيل له أنها ستكون بمثابة السربال للمجرم يوم القيامة. !!

وبمثل هذا التعبير جاء قوله تعالى: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾(٤). فكأن شمول النار واحاطتها باجساد الكافرين تشكل لباسا لهم.

---

(١) سورة ابراهيم ١٤: ٤٨

(٢) تلخيص البيان: ٢٣٨.

(٣) وبهذا المعنى ورد اللباس في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ سورة النحل ١٦: ٨١.

(٤) سورة الحج ٢٢: ١٩-٢٢

إنها صورة رهيبة تكمل جوانب العذاب حين تجتمع مع لظى النيران، والقيود والأصفاد التي تشلّ حركتهم، فلا يستطيعون الهرب ، أو التخلص من العقاب ، لأنهم قد كتب عليهم العذاب الدائم. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [1]

(١) سورة النساء ٤ : ٥٦

الفصل السادس

الثواب بالجنة

١.وصف طبيعتها

٢.اعتدال جوها

٣.أنهارها وشرابها

-أنهار الماء

-أنهار اللبن

-أنهار الخمر

٤. صنوف أخرى من النعيم

-لباسهم

-أساور الذهب والفضة

6

الفصل السادس

الثواب بالجنة

١- وصف طبيعتها

لقد مرّت بنا سابقاً صور العذاب في النار ودلالتها على البيئة العربية ولنقارنها الآن بصور النعيم التي يثاب بها المؤمنون. فالنار الحامية التي يعذب بها المجرمون، ويسقون من شرابها الحار المحرق، تقابلها صورة الجنة العالية والعيون والأنهار الجارية، والفرش الجميلة المنصوبة. قال الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ (٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾[١].

وفي سورة التكوير نجد العرض السريع لمشاهد القيامة المتتالية من اضطراب السماوات والارض، ثم موقف الحساب، والقضاء حيث يصدر بعدها قرار الحكم في النار أو الجنة: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا

(١) سورة الغاشية ٨٨: ٢-١٤.

ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ ﴾ (١).

وقد ورد ذكر الجنة ١٢١ آية (٢) على أنها المثوى الأخير للمؤمنين، وتقابلها النار قرار المجرمين الأبدي.

وقد فسرت الجنة بأنها البستان المحفوف بالشجر، المتكاثف بالنخيل (٣)، وكذلك قال اللغويون (٤).

وقد وردت في الشعر الجاهلي دالة على هذا المعنى . قال امرؤ القيس:

تَبَصَّر خليلي هَلْ تَرى مِنْ ظعائنٍ
سـوالكَ نقبـاً بـيْنَ حزمـى شَـعَبْعَب
عَلَـونَ بانطاكّيـة فـوق عقمـةٍ
كجرمـةِ نَخْـل أو كَجنـةِ يَثْـرِبِ (٥)

فمجموعة الظعائن في سيرها، وارتفاعها، تشبه عند الشاعر مجموعة النخيل، أو جنة يثرب بنخيلها وأشجارها العالية، مما يعطينا صورة واضحة لدلالة الجنة في

---

(١) سورة التكوير ٨١: ١-١٣.

(٢) انظر المعجم المفهرس ١٨٠- ١٨١

(٣) تفسير الخمسمائة آية : الورقة ٥٠ الينابيع : ١٣٧ التبيان ٦: ٢٤٦ : حقائق التأويل ٥: ٢٤٦ : الكشاف ١: ١٩٨

(٤) الصحاح ٥: ٢٠٩٣، لسان العرب ٦: ٢٥٣

(٥) ديوان امرئ القيس : ٤٣، ٥٨، ١١٥، شرح ديوان عنترة ٨٠: المفضليات : ١٠٦

الذهن العربي، وإطلاقها على البستان المتكاثف الأشجار. وكذلك فسروا الفردوس بالجنة [1]، إلاّ أنهم اختلفوا في أصلها [2].

واذا قارنا صورة الجنة كما وصفها القرآن الكريم بالبيئة العربية استطعنا أن نتصور الإيحاءات الجميلة التي توحيها الآيات الكريمة في الذهن العربي، ذلك لأننا نجد للزرع، والأشجار بصورة عامة أهمية عظيمة في حياة العرب وتعابيرهم وتفكيرهم. ونظراً لتعلقهم بصور النخيل فقد أداروها في أشعارهم وتشبيهاتهم فكثيرا ما وصفوا الضعائن في ارتفاع هوادجهن، واختلاف ألوانهن، وشبهوها بالنخيل، وطلعه المختلف الألوان. قال امرؤ القيس :

فَشَبَهْتُّم في الآلِ لَمّا تَكَمّشُوا
حدائقَ دَومٍ او سَفينا مُقيَرا
او المكرعاتِ مِن نَخيلِ ابنِ يامِن
دُوْينَ الصفّا اللائي يَلينَ المُشَقَّرا
سَوامِقَ جبَارٍ أثيثٍ فُرُوعهُ
وعَالْين َقِنوانا من البُسْرِ أحْمَرا

(١) جامع البيان ١٦: ٣٦ التيان ٧: ٩٨

(٢) قال بعضهم إنها عربية مأخوذة من الفردسة وهي السعة . الفراء عن لسان العرب ٨: ٤٣ -٤٤، جمهرة اللغة ٣: ٣٣٣، المعرب: ٢٤١، وقال بعضهم بل هي رومية – جامع البيان ١٦: ٣٦ : التبيان ٧: ٩٨، الإتقان ٢: ١٣٩، شفاء الغليل : ١٩٩، وذهب آخرون – وهو الأرجح – أنها كلمة توافقت فيها اللغات القديمة السامية والشرقية بصورة عامة. أنظر ذيل ألفاظ السريانية، مجلة المجمع العلمي العربي م٢٦ ج٣ ص ٣٣٦، الدخيل في اللغة العربية، مجلة كلية الآداب جامعة فؤاد الأول م١١ ج٢

فسرعة الأظعان، وسيرها في الصحراء الواسعة تشبه عند الشاعر النخيل التي تتعالى سامقة في السماء. وتَغَنّوا بوصف الناقة وشبهوها بالنخلة في امتداد صلبها.[1] كل هذه التشبيهات تعطينا صورة لأهمية الشجر، والنخيل في الذهن العربي[2]، وكيف أنها وجدت في بيئتهم وأحبوها كل الحب، إلاّ أن وجودها محدود النطاق إذ افتقرت إليه كثير من المناطق، نظراً للبيئة الصحراوية التي تفتقر في كثير من أماكنها الى العشب فضلا عن الشجر والنخيل .

هذه الصورة تعكس في الذهن العربي نعيم الجنة، وجمالها الطبيعي الرائع الذي طالما تاقت إليه نفوسهم فنجد في وصف الجنة النخيل، والأشجار المتدانية القطوف الوفيرة الأثمار والأعناب: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾[3].

(١) راجع في هذا تشبيه شرر النار بالجمالات ص ٢٢٨

(٢) لقد بلغ تعلقهم بالاشجار ان بعضهم قدسها وعبدها، انظر الميثولوجيا عند العرب : ١٠٩ فما بعدها.

(٣) سورة الرحمن ٥٥ : ٤٦-٥٣-، ٦٢ -٦٨

وقال تعالى معددا نِعم الجنة الكثيرة، والفاكهة المتنوعة، والطعام اللذيذ، والظل الوارف الجميل مع وفرة المياه، والنخل، والأشجار.

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [1].

لقد أحب العرب العشب الذي ترعاه ماشيتهم، وأحبوا المطر، وترقبوه لأن في انعدامه افتقاراً للعشب وموتاً لحيوانهم، وماشيتهم ولما كان لون العشب اخضر فقد تعلقوا بهذا اللون، وعدّوه أحبّ الألوان الى نفوسهم، فهو لون الشباب المحبب ولذلك قيل إذا توفي الرجل شاباً قد اختضر[2]، لأنه توفي في ريعان شبابه كالغصن حين يكون على أحسن حال، وأجمله، أيام خضرته، ونضارته.

أما إذا ارادوا الدعاء على قوم، فإنهم يدعون عليهم بالجدب، والحرمان من الخصب فيقولون : أباد الله خضراءهم) [3]. لأن الخضرة مقترنة بالخير والنعيم، وإذا أرادوا لتعبير عن دوام المحبة قالوا: (الأمر بيننا أخضر أي جديد لم تخلق المودة بيننا)[4].

ومن هنا قال ذو الرمة واصفاً الوصال بالخضرة :

أترابُ ميّ والوِصالُ أخْضَرُ

ولمْ يغـــيَّر وصْـــلَها المغــيّرُ[5]

---

(١) سورة الواقعة ٥٦ : ٢٧-٣٣

(٢) الصحاح ٢ : ٦٤٧، لسان العرب ٥ : ٣٢٧.

(٣) الفراء عن لسان العرب ٥ : ٣٢٩، أدب الكاتب: ٥٠، مجمع الأمثال ١ : ١٠٩

(٤) أساس البلاغة : ٢٣٦

(٥) ديوان شعر ذي الرمة : ٢٠٢، أراجيز العرب : ١٠

فأيام الوصال وصفها بالخضرة لجمالها، واقترانها بالجدة والبهّجة. وأما وصف الأشخاص بالخضرة، فقد ذهب بعضهم إلى أن المراد به الفخر، وأنهم إذا أرادوا مدح الرجل نعتوه بالأخضر [١] كقول اللّهبي [٢]:

وأنا الأخْضَر مَنْ يَعْرِفني

أخضَــرُ الجلــدة في بَيْــتِ العَــربْ [٣]

ويبدو أن هذا النعت لا يراد به الفخر من حيث دلالة اللون على النعمة، والخير، وإنما أريد به لون البشرة. قال ابن قتيبة معلقا على البيت : (الخضرة السواد أراد الأدمة)[٤].

وروى ابن منظور تعقيبا على البيت (يقول إن لون العرب السمرة) [٥] وقال المبرد شارحا ابياتاً لحسان، ورد فيها ذكر خضر بني خلف قال: (يريد سواد جلودهم كما قال الفضل بن العباس) [٦] (البيت). وقال(فهذا على القول الأول. وقال آخرون شبههم في جودهم بالبحار، لما يرى من لون الخضرة في مياهها)[٧]. وكون الشاعر

---

(١) إحساس الشعراء العرب بالالوان والأصوات، مجلة كلية الاداب العدد الأول لسنة ١٩٥٦ ص٨، الوصف في شعر العراق: ٩٧ .

(٢) هو الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب أحد شعراء بني هاشم. وكان ممن قدم على عبد الملك بن مروان أنظر المعارف: ١٢٦، الأغاني ١٥: ٨-١٠ المؤتلف والمختلف: ٤١ .

(٣) الحيوان ٣: ٢٤٨، المؤتلف والمختلف: ٤١، أساس البلاغة : ٢٣٦، لسان العرب ٥: ٢٨، فخر السودان : رسائل الجاحظ ١: ٢٠٧.

(٤) المعارف : ١٢٦

(٥) لسان العرب ٥: ٣٢٥

(٦) الكامل للمبرد ١: ٢١٧.

(٧) نفسه

مدحهم لأنه شبههم بالبحار التي وصفت بالخضرة غير واضح المعنى، إلا إذا اريد به اللون القاتم الذي يرى في مياه البحر حين تربدّ، وتضطرب بشدة. ومن هنا يبدو لنا أن الشاعر أراد الفخر بكونه من العرب الخُلَّص الذين لمْ تُشبهم حمرة الأعاجم[1]. وهذه التسمية هي التي تفسر لنا وصفه جلَّ. من قائل الجنة بالدهمة: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾[2]. وذلك وصف لخضرتها بأنها لشدة ريها، ونضرتها تبدو زاهية، وتقرب الى لون السواد، قال الجاحظ: (واحسن الخضرة ما ضارع السواد. قال الله عز وجل ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾، ثم قال لما وصفهما وشوّق اليهما مدهامتان).

هذا اللون المحبب إلى النفس العربي هو الذي يتمثل في الذهن عند قراءة الآيات الكريمة التي تخص ثواب الجنة، واشجارها ورياضها.

وهناك آيات اخرى تجسد صورة الخضرة المحببة الى نفس العربي، لأن لون ثياب أهل الجنة وصفت بالخضرة دون الألوان الباقية لما لهذا اللون من إيحاء جميل في نفوس العرب، وذوقهم العام. قال الله تعالى: ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾[3].

---

(١) وإطلاق الخضرة على السمرة أو السواد ناتج عن طبيعة الألوان، وصعوبة تحديدها وقد مر بنا سابقا أن الذوق العربي عدّ البياض المشوب بالصفرة أجمل الألوان وأحلاها انظر ص١٤١.

(٢) فخر السودان : رسائل الجاحظ ١ : ٢٠٤.

(٣) سورة الكهف ١٨ : ٣١.

وقال تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾[1]. هذا اللون الجميل المحبب نجده في وصف ملابس الملوك، وذلك أنهم كانوا يوشونها باللون الاخضر[2]. كما نجد في وصف الملابس أن بعضها لا تكون إلاّ خضراء اللون[3]. مما يعكس لنا أهمية هذا اللون، وحب الذوق العربي له[4].

ومن هنا يتضح لنا أن الخضرة في القرآن الكريم تجسيد للذوق العربي الذي أحبها وشغف بها، لأنها تمثل في نظره الخير، والرفاهية، والحياة الدائمة. وكل هذه الصور ترتسم في الذهن عند قراءة وصف الجنة، وطبيعتها المشرقة الزاهية.

٢- اعتدال جوها

إن لظى النار، وحرها الشديد تقابله في الجنة صورة مخالفة إذ وصف جوها بالاعتدال، وطيب الهواء: ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾[5] أي أنهم في الجنة في جو معتدل لا يعانون الحر الشديد الذي يعانيه أهل النار، ولا البرد القارص المؤذي. وفي هذا رد لاعتراض الزرادشتية الذي مر بنا ذكره[6]، فكما تفي عن الجنة الحر الشديد الذي عانى منه العرب، فكذلك نفي عنها البرد الشديد القارص، وهو أيضاً مما عانى

---

(١) سورة الرحمن ٥٥: ٧٦، وانظر الكشاف ٣: ١٩١ .

(٢) انظر ديوان النابغة الذبياني :١٢

(٣) انظر في هذا مقال الأنسجة في مجلة أبحاث ج٤ كانون الاول السنة ١٤/ ١٩٦١ ص٥٦٦، ٥٧١.

(٤) انظر في هذا مقال البيئة العربية في القرآن الكريم مجلة البيّنة السنة الاولى العدد ١٠- ١٩٦٣-١٣٨٢هـ.

(٥) سورة الإنسان ٧٦: ١٣ .

(٦) انظر ص ٢٠٥ يؤجل تثبيتها.

منه العربي في بيئته لأن بلاد العرب لم تكن أرض سموم وحر فقط، انما عانت البرد والحر على اختلاف فصول السنة، وإن كانت صور الحر أكثر وضوحاً ملامح في الشعر الجاهلي من صور البرد، ولعل مرد ذلك الى أن الحر يصحبه عطش مضنٍ يؤلم العربي ويؤذيه، أما في البرد فقد اكتفوا بوصف شدة البرد، وحاجتهم الى الدفء.

ومعرفة العرب للبرد هو الذي أوحى لبعض المفسرين تفسير الغساق في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ [1] وذلك لأنهم قالوا بأن ما يسقاه أهل النار إنما هو شراب لا يستطيعون ذوقه لشدة برده[2]. مما يدلنا على أنّ العرب عانوا من أذى البرد، مثلما عانوا الحر ولظاه حتى فهموا أن البرد يمكن أنّ يكون وسيلة من وسائل التعذيب يوم القيامة .

لقد عرفت الطائف باعتدال هوائها، وطيب جوها، ومع ذلك فقد ذكر أن درجة البرودة تصل فيها أحياناً الى درجة يجمد فيها الماء[3]، وكذلك الحال مع باقي جبال الجزيرة العربية، قال المقدسي: (وأما ما كان من ناحية الجبال فهي باردة)[4]، وسميت آكام بلاد الازد(آل قراس لكثرة ثلجها)[5].

---

(١) سورة النبأ ٧٨: ٢٥

(٢) جامع البيان ٣٠: ١٣-١٤، الكشاف ٣: ١٨

(٣) صورة الارض : ٣٢، أحسن التقاسيم : ٧٩، آثار البلاد: ٩٨، قطعة من كتاب في الجغرافية : الورقة ٦٦ ب

(٤) أحسن التقاسيم : ٧٠

(٥) معجم البلدان ٤ : ٤٦، معجم ما استعجم ١: ٩٢.

وكما وجدنا صورة الحر واضحة الملامح في الشعر الجاهلي، فكذلك نستطيع ان نجد فيه وصفاً لشدة البرد، ورياحه القارصة . قال حاتم الطائي :

أوقِـــد فـــانَّ الليـــلَ ليـــلٌ قـــرٌ

والـــريحُ ياموقِـــدُ ريـــحٌ صرٌّ(١)

وقال آخر(٢):

اذا كـــانَ الشـــتاءُ فـــأدفِئوني

فـــانَّ الشـــيخَ يهدمُـــهُ الشـــتاءُ(٣)

ومن هنا كثر وصفهم لنار الاصطلاء، وقربهم منها، وحبهم لدفئها وما يحكى في هذا الباب أنَّ أعرابيا اشتد عليه البرد، فأصاب ناراً، فدنا منها ليصطلي وهو يقول: (اللهم لا تحرمنيها في الدنيا والآخرة)(٤). ومع أن الطابع الاسلامي واضح في هذه الحكاية الطريفة، فإنّ لها دلالتها على البيئة العربية وقت الشتاء وكيف أن البرد يشتد فيها الى درجة يتمنى فيها المصطلي النار في دنياه وآخرته ! ومن هنا وصفوا أذى البرد الذي تعاني منه حيواناتهم(٥).

---

(١) ديوان حاتم الطائي : ٥٩ .

(٢) حقائق التأويل ٥: ٢١٧، ولم أعثر على نسبة البيت.

(٣) ثمار القلوب : ٤٦٠.

(٤) نفسه.

(٥) ديوان جراد العود : ٧ شرح أشعار الهذلين ١ : ٦٨، المفضليات : ١٢٦، ١٧٧ أسماء المغتالين : ٢٤٢، الحيوان ٥: ٧٥، الأزمنة والأمكنة ٢: ٢٤٢، أراجيز العرب : ١٠٩ .

ومع ذكرهم لصور البرد، ومعاناتهم له في البيئة العربية إلا انه لا يبلغ مبلغ تصويره الحر الشديد، ومعانته العطش فيه، ومن هنا كان تخويف القرآن الكريم بالحر اضعاف ما خوف بالبرد.

ومن هنا يستطيع العربي أن يتمثل الصورة المشرقة للجنة في انعدام الحر، والبرد الشديدين، ويستطيع أن يتصور السعادة المتناهية التي يثاب بها المؤمنون في الجنة .

٣- أنهارها وشرابها:

أ- أنها الماء.

والى جانب الخضرة المحببة، والأشجار الجميلة، نجد في وصف الجنة صورة أخرى تزيد المشهد روعة وجمالا، ألا وهي صورة الأنهار الجارية الوفيرة المياه، وقد وردت في (٣٨) آية [١]. كلها تصف الجنة التي تجري من تحتها الأنهار ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [٢].

وقال تعالى ايضاً: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [٣].

---

(١) انظر المعجم المفهرس ٧١٩-٧٢٠

(٢) سورة البقرة ٢: ٢٥

(٣) سورة الرعد ١٣: ٣٥

وفي سورة محمد (ﷺ) نجد صورتين متعاقبتين إحداهما صورة الجنة التي تجري فيها الأنهار وقد عدد الله سبحانه وتعالى انواع هذه الأنهار فبعضها من ماء صاف وبعضها من لبن، أو خمر، أو عسل كلها أعدت لينعم بها المؤمنون.

هذه الصورة تقارن بأخرى تليها، وهي صورة العذاب وما يلاقيه المجرمون في النار حين يسقون الماء الحميم الشديد الحرارة، فتُقطّع امعاؤهم: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾[1].

واذا بحثنا الماء في القرآن الكريم في غير الآيات التي تخص القيامة، نجد له أهمية كبيرة، فقد ورد في (٣٤) آية[2] تصور الماء على أنه من النعم العظيمة التي اسبغها الله سبحانه وتعالى على البشر، فهو أساس الحياة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[3] ومع ذلك نجد شح الماء، وقلته في البيئة العربية، وحيثما نقرأ نجد ذكر الماء، والعطش ذلك ان الصحراء العربية لا توجد فيها أنهار دائمة الجريان، وإنما وديان تسيل فيها المياه وقت الأمطار، وسرعان ما تتلاشى، وتغور[4].

---

(١) سورة محمد ٤٧: ١٥

(٢) المعجم المفهرس: ٦٨٤

(٣) سورة الأنبياء ٢١: ٣٠

(٤) صورة الأرض: ٢٧، وانظر أيضا هذا العالم: ٣٣٣. أما ما يذكر عن سد مأرب والمياه التي تجري في أنهاره، فإنما احتفر العرب هذه الأنهار ليوجهوا اليها السيول التي تسيل من الجبال (أنظر الأعلاق النفيسة: ١١٢، أحسن التقاسيم: ٩٥.

فلا يوجد في مكة مثلا ماءُ جار ابداً[1]، إلاّ ما يحتفرونه من الآبار والعيون[2]. فالمدينة حياتها على السيول وقت الأمطار، وعلى الآبار سائر السنة[3]. اما جُدة فإن أهلها في تعب دائم، من الماء كما يقول المقدسي[4]. وأما سائر الجزيرة العربية فإن اعتمادها الكلي على الأمطار التي قد تشح أحياناً فتتركهم في يأس من الحياة والمراعي [5]. وقد تخلو بعض المناطق من الآبار، والعيون، فتنعدم فيها الحياة [6]. وحول الماء وحفر الآبار دارت الأساطير العربية، وكلها تصور التقديس الذي أحيط به الماء[7].

وقلة المياه، والحرمان منها عرضت العرب في كثير من أسفارهم الى الخطر المحدق حيث يعانون من أذى العطش والظمأ ما يعرضهم الى الهلاك. ومن هنا أوجدوا طريقة يقتسمون بها الماء، وذلك أنهم يضعون حصاة في إناء، ثم يصب به من الماء قدر ما يغمر الحصاة، فيعطاها كل رجل منهم، وأسموا هذه الحصاة بالمقلة[8]. وهذه الطريقة تطلعنا على شح الماء في بيئتهم إلى درجة يقتسمونه فيها، بقدر ما يغمر الحصاة.

(١) اسماء جبال تهامة : ٤٤

(٢) البلدان ٣١٦، صورة الأرض : ٢٩ المسالك والممالك : ١٣٤، معجم ما استعجم ١ : ٢٦٩، معجم البلدان ٤ : ٦٢٢.

(٣) البلدان : ٣١٢

(٤) أحسن التقاسيم : ٧٩ .

(٥) هذا العالم : ٣٣٣

(٦) صورة الأرض: ٣٤، جزيرة العرب ليبري : ٢١

(٧) المنمق: ٤١٣ فما بعدها، المحاسن والاضداد: ٧٨، المحاسن : ٤١٥، ثمار القلوب : ٤٤٤، وقد خص العرب القدماء الماء بأحاديث طويلة، فمدحوا الماء البارد، وذكروا منافع الماء وميزوا بين العذب والرديء كل ذلك نتيجة خبرتهم به . أنظر الدلائل والاعتبار: ٦١ المحاسن : ٤٧٠ مختصر البلدان : ٢٢٠ أحسن التقاسيم : ١٠١ .

(٨) أمثال لعرب : ٦١ . مجالس العلماء: ٢١٦. ٢١٧

واذا كانت البيئة العربية قد حرمت الأنهار، وشحت فيها المياه فمن الطبيعي أن يكون اعتمادهم الكلي عل الأمطار، ومن هنا صارت لهم خبرة عظيمة في تتبع مواقع المطر ومعرفة السحاب الممطر، أو الخادع[١]. فاذا انقطع عنهم المطر واحتبس فإن هناك فروضاً عديدة يقدمونها لاستنزال المطر، ومنها صلاة الاستسقاء[٢]، أو النيران التي يوقدونها[٣] ومن هنا عبد بعضهم الكواكب التي لا يمطرون عندها رهبة منها وخوفاً[٤]. كما عبد آخرون النجوم التي اذا طلعت عليهم توقعوا نزول الأمطار، وكثرة الخيرات[٥].

ومن هنا نرى أي صورة جميلة، تلك التي ينقلها لنا الأعرابي حين يشبه صوت حبيبته بالقطر الذي يسمعه الراعي بعد سنين طويلة مجدبة وقد أصاخ سمعه، وملأت الفرحة قلبه في انتظار المطر:

وَحـــديثُها كـــالقَطرِ يَسْـــمَعُهُ
راعـــي ســـنينَ تَتَابَعَـــتْ جَـــدبا

فأصـــاخَ يَرجُـــو أنْ يكـــونَ حيَـــاً
وَيَقُـــولُ مـــن فَـــرَحٍ هَيَـــا ربـــا[٦]

(١) أنظر الأشباه والنظائر ١: ٥٥، أمالي القالي ١: ٨٤

(٢) أنظر صحيح مسلم ٣: ١٢١٢: الأزمنة والانواء: ١٣٦، بلوغ الأرب ٢: ٣٠١

(٣) Ency of Religion، Art Religion of the Semitic ١: ٦٦٩

(٤) من ذلك عبادتهم للدبران أنظر بلوغ الإرب ٢: ٢٤٠، الميثولوجيا عند العرب: ٧٨.

(٥) من ذلك عبادتهم للثريا أنظر بلوغ الإرب ٢: ٢٤٠، الميثولوجيا عند العرب: ٨٤، ١٠٠.

(٦) الأشباه والنظائر ١: ٥٥، الأمالي للقالي ١: ٨٤، أسرار البلاغة: ١٢٤.

ومن هنا كان دعاؤهم للميت أن يسقي قبره المطر [1]. كما نجد في ذكر أيمانهم أنهم كانوا يقسمون بالمطر، وبمنزِل المطر[2]. وقال الجاحظ : والماء قد يكون القسم كقول الشاعر :

غَضْـــبي ولا والله يـــا أهْلَهـــا

لا أشْرَبُ البـــاردَ او تـــرضى

ويقولون لو علم فلان أنّ شربَ البارد يضع من مروءته لما ذاقه [3] وقال طفيل مقسماً بالماء .

ولا أقــولُ وَجــمّ المــاءِ ذو نَفَــسِ

مــن الحــرارةِ إنَّ المــاءِ مَشْــغولُ

ولأهمية الماء في نفوسهم سموّا بعض الأشخاص باسم ماء السماء [4]. ونجد أهمية الماء في البيئة العربية متمثلا في الشعر العربي في كافة أغراضه، فنجده في الفخر، فإنما يفخر بشرب قومه الماء الصافي على حين يشرب غيرهم الكدر. قال الحارث بن حلزة اليشكري :

وانّــا الشــاربونَ المــاءَ صــفَواً

ويَشــربُ غــيرُنــا كــدراً وطينــا[5]

---

(١) ديوان الخنساء : ١٥،أمالي اليزيدي : ٢٢، ٢٩، ٣١، ٣٤، الأشباه والنظائر : ٦

(٢) من ذلك قولهم لا ومقطع القطر، أنظر الأمالي للقالي ١ : ٥٠، إيمان العرب : ٢٠، وتروي لا ومقطع القطرة، أنظر المخصص ١٣ : ١١٨، المزهر ٢ : ٢٦٢

(٣) الحيوان ٥ : ١٤٨، وقد علق محقق الكتاب على قول الجاحظ بقوله : (والحق أن الماء مقسم عليه لا مقسم به، وأما المقسم به فهو لفظ الجلالة) ويبدو أنه حتى في حالة كون الماء مقسم عليه فإن دلالته على أهميته في البيئة العربية. والبيت غير منسوب، وانظر أيضاً مختصر البلدان : ٢٢٢ .

(٤) الحيوان : ١٤١، وانظر ايضاً شرح القصائد السبع : ٤٧٥ .

(٥) شرح القصائد السبع : ٤١٩

ويفخر شاعرهم بأنه يمنع نفسه لذةالشراب، لأنه يؤْثِر رفيقه بالشراب قبله، مما يظهر لنا قلة الماء، وحاجتهم اليه، قال أبو دؤاد[1]:

لا يَخـافُ النَـديمُ جهَـلي عـلى الكـأس
ولا يحـــذَرُ الصـــدَيقُ عقـــوقي

أمنَـعُ الــنفَسَ لَـذة المــاءِ ظَمــآنَ
اذا لمْ ينَلـــهُ قبـــل رفيقــــي

وإذا أرادوا هجاء شخص شبهوه بالماء الكدر المالح:

لــــو كنـــتَ مــــاءً كنـــتَ لا
عــذبَ المَـــذاقِ ولا مَسوســـا[2]

ومن إتيان الماء وورده صدرت عن العرب أمثال عديدة تعكس كلها أهمية الماء[3] . وأثره العظيم في نفوسهم ولغتهم، ومن هنا لوَّن الماء تعابيرهم، واكتست به ألفاظهم فقالوا: (صبغ له ماء، وفلان ليس في وجهه ماء) [4].

---

(١) هو أبو دؤاد الأيادي اختلفوا في اسمه فقال بعضهم هو جارية بن الحجاج، وقال غيرهم هو حنظلة بن الشرقي . شاعر جاهلي كان من وصاف الخيل وكان في عصر كعب بن أمامة الأيادي الذي آثر بنصيبه من الماء رفيقه النمري فمات عطشاً، أنظر الشعر والشعراء ١: ١٦١، الأغاني ١٥: ٩١، خزانة الادب ٤: ١٩٠ .

(٢) ديوان السموأل : ٩٣، ديوان النابغة الجعدي : ٧ شرح القصائد السبع: ٢٧٣، الأمالي للقالي ١: ٣، ثمار القلوب : ٤٤٥، الجبال والأمكنة : ٦٦.

(٣) أمثال العرب : ٢٢ .

(٤) ثمار القلوب : ٤٤٥، ٤٤٧، وانظر في هذا، الماء في الأدب االعربي: ٧.

هذه الصورة المحببة للماء، والأهمية العظيمة التي نجدها في حياة العربي هي التي تجسد لنا الصورة الرائعة للجنة التي أعدها الله للمؤمنين، وأجرى فيها الأنهار الواسعة، والمياه الوفيرة. وكما استطعنا من قبل أن نتصور مدى التصوير المعجز الذي رسمته الآيات اكريمة للعطش نجد صورة وفرة الماء مقابلة لها في القرآن الكريم: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (١). إنّ الآيات الكريمة تصور لنا العطش المؤلم الذي يعانيه أهل النار، فيتمنون قليلا من الماء، فأنها من الناحية الأخرى تعكس لنا نعيم الجنة، فصورة الجنة الوارفة الظلال المتنوعة الأشجار مع الأنهار الوفيرة والعيون المتفجرة، تقابلها صورة النار ولظاها، والحرمان من الماء.

وصورة الأنهار الجارية هي التي تكمل صورة الطبيعة الرائعة في القرآن الكريم، وقد ذكر هذا الزمخشري بقوله: (ولولا أن الماء الجاري من النعمة واللذة الكبرى، وأن الجنان والرياض وإنْ كانت آنق شيء وأحسنه لاتروق النواظر، ولاتبهج الأنفس، ولا تجلب الأريحية والنشاط حتى يجري فيها الماء، وإلاّ كان الأنس الأعظم فائتاً والسرور الأوفر مفقوداً. وكانت كتماثيل لا روح فيها، وصور لا حياة لها لما جاء الله بذكر الجنات مشفوعاً بذكر الأنهار الجارية من تحتها مسوقين عل قران واحد كالشيئين لا بد لأحدهما من صاحبه)(٢).

---

(١) سورة الأعراف ٧: ٥٠

(٢) الكشاف ١: ١٩٩-٢٠٠

وفي الآيات التي وردت فيها الجنة غير مقترنة بالأنهار نجدها مقرونة بالعيون المتفجرة بالمياه والى جانبها صورة أخرى هي صورة المجرمين مع الماء الحار قال الله تعالى: ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [1]. وقال ايضاً: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [2].

واذا كانت عيون الحياة الدنيا معرضة للجفاف والنفاذ، فإن عيون الجنة وفيرة المياه دائمة التفجير ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [3]. فاقتران عين الجنة بالمصدر (تفجيرا) تبين ميزتها، وجمالها بأنها دائمة التفجير غير مقترنة بزمن معين .

وفي كل هذه الآيات ترتسم في الذهن الصورة المحببة للماء، والجمال الذي تثيره الآيات الكريمة في تصوير أنهار الجنة ووفرة المياه فيها[4].

وقد وصفت كؤوس شراب أهل الجنة بأنها ممزوجة بطعم الزنجبيل قال الله تعالى: ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ ﴾ [5] فالزنجبيل مما ينبت في

---

(١) سورة الرحمن ٥٥: ٤٤-٤٥

(٢) سورة الغاشية ٨٨: ٢-١٢ .

(٣) سورة الإنسان ٧٦: ٦

(٤) أنظر في هذا مقال البيئة العربية في القرآن الكريم مجلة البيِّنة السنة الأولى العدد العاشر ١٩٦٣ ص٣٣ فما بعدها .

(٥) سورة الإنسان ٧٦: ١٤.

بلاد العرب بأرض عمان، وهو عروق تسري في الارض . وأجوده ما يؤتى به من الزنج او بلاد الصين[1]. وكانت العرب تستلذ طعمه، وتستطيبه، قال الطوسي(الزنجبيل ضرب من القرفة طيب الطعم، يلذع اللسان، يربي بالعسل، يستدفع به المضار اذا مزج به الشراب فاق في الالذاذ، والعرب تستطسب الزنجبيل جداً قال الشاعر:

كـــأنَّ القرْنفـــلَ والزَنْجبيـــلَ

باتـــا بفيهـــا وأرْيـــا شُـــوارا [2]

فالزنجبيل مما استلذته العرب، واستطابته، وقد شبهوا به ريق المرأة في تغزلهم بها، قال امرؤ القيس:

كـــأنَّ المُـــدامَ بأنيبهـــا

وصـــوبَ الغـــمامِ بـــماء غلـــلْ

وَطْعـــمَ السَـــفرْجلِ والزنجبيـــلِ

عـــلّ بـــه، ويصـــافي العَسَـــل [3]

وقال الأعشى متغزلا:

كـــأنَّ طَعـــمَ الزنجبيـــلِ وتّفاحـــاً

عـــلى أري الـــدبُور نَـــزَل[4]

---

(١) لسان العرب ١٣: ٢٣٢ . وقيل ان الكلمة اعجمية . انظر شفاء الغليل: ١٤٠ وقد قال فؤاد حسنين الزنجبيل الزنجبيل (بقلة يقال لها فلفل الماء: الدخيل في العربية مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول مايو ١٩٤٩

(٢) التبيان ١٠: ٢١٤: والبيت للأعشى في ديوانه: ٩٣ مع اختلاف في الراوية، وانظر أيضا الكشاف ٣: ٢٩٨

(٣) ديوان امرئ القيس: ٢٩٨

(٤) ديوان الأعشى ص٢٧٧

اما رائحة الشراب فإنه معطر بالكافور قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [1].

قال الطوسي : (كان مزاجها كافورا قيل ما يُشَمُّ من ريحها لا من جهة طعمها، والكافور في اللغة ضرب من الطيب)[2].

وقد ذكر ابن دريد انه ليس بعربي محض مستدلا بقولهم القَفور والقافور[3]. وليس في هذا القول دليل قاطع على أعجمية الكلمة ذلك لأن هناك نباتاً معروفاً بعينه يسمى الكافور قال الليث: (الكافور: نبات له نورٌ ابيض كَنُّورِ الأقحوان)[4]. فمن الجائز ان يكون الكافور مستخرجاً منه.

ومن هنا نرى ان القرآن الكريم بعد أن وصف وفرة المياه، وتنوع الشراب اللذيذ الذي ينعم به المؤمنون في الجنة، وصف لنا طعمه بأنه مخلوط بطعم الزنجبيل الذي أحبه العرب واستطابته نفوسهم، ثم أن رائحته طيبة كطعم الكافور الذي اعجبوا به واستلذوا رائحته.

ب- أنهار اللبن:

وإلى جانب أنهار المياه التي تجري في الجنة نجد وصفاً آخر لأنهار من اللبن والخمر، قال الله تعالى:

---

(١) سورة الإنسان ٧٦: ٤-٦

(٢) جمهرة اللغة ٢: ٤٠١، الصحاح ٢: ٨٠٨، لسان العرب ٦: ٤٦٦

(٣) جمهرة اللغة ٢: ٤٠١، وانظر ايضا المعرب : ٢٨٤، ٢٨٦

(٤) لسان العرب ٦: ٤٦٦

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴾ (١).

وذكر اللبن ضمن أنهار الجنة يثير صورة في الذهن العربي، صورة البيئة التي عاشها العربي . فاللبن من منتجات حيوانهم، وهو شرابهم المفضل إلا أنّ شح البيئة العربية بالكلأ، والزرع في أكثر أيام السنة كان يؤدي الى قلة الخيرات، وانعدم اللبن في اثدائها، ومن هنا نجد ندرة اللبن- وخاصة في الشتاء- فتنبعث من ندرته نغمات جديدة يبعثها الشاعر في فخره وحماسته، فقد خصوا بشرب اللبن أعزّ من في منازلهم : الضيف والفرس.

أما الضيف فقد عرفنا عادة العرب، وماحتمته البيئة العربية الشحيحة من تعود الكرم وبذل المال والنفس له، فكانوا يُؤثرون الضيف باللبن وتلك سمة من سمات الكرم. قال الحارث بن حلزة مخاطبا صاحبه ليقدم اللبن الخالص للأضياف:

لا تَكْسَعِ الشَوْلَ باغبارها
انَك لا تدري من الناتجُ

وأصْبب لأضيافِك من رَسلِها
فانَّ شَرَّ اللبنَ الوالِجُ (٢)

(١) سورة محمد ٤٧: ١٤-١٥

(٢) المعاني الكبير ١: ٤٠، وانظر ايضاً ١: ٣٩٨، والكسع أن ينضح الضرع بالماء البارد ثم يضربها بالكف صعدا. أراد: فشرّ اللبن ما حقن في الضرع.

قال الحطيئة :

قَــروا جــارِكَ العــيمان لمــا جَفْوتــهُ
وقَلَّصَ عن بَرد الشَرابِ مشافره

سـناما ومحضـا أنبـتَ اللحـم فاكتسـتْ
عظـامُ امـرئٍ ماكـانَ يَشـبَعُ طـائرة [1]

يقول: لقد قلصت مشافر جارك عن برد الماء، فلم يقدر على شربه لشهوة اللبن، وأنه لشدة هزاله إذا وقع عليه طائر وهو ميت لم يشبع من قلة لحمه وهزله، فكونه متشوقاً الى اللبن بدرجة عافت نفسه الماء، مما يدلنا على تعلق نفس العربي باللبن، وأهميته في حياته .

اما في الهجاء فإنهم كانوا يعكسون هذه الناحية التي عدّوها من أهم صفات المديح. فقالوا عن المهجو إنه يخص نفسه باللبن، ولا يسقيه أهله وجيرانه .

قال الشاعر:

وَيشْـــرَبُهُ مَحَضْــاً ويســقي ابــنَ عَمّــهِ
ســجاحاً كــأقرابِ الثعالــبِ أوْرَقــا [2]

والسجاج هو الذي مذق حتى تغير طعمه.

(١) نفسه ١ : ٤٠٤-٤٠٥، والبيت الأول غير موجود في ديوان الحطيئة : ١٧٧ .

(٢) المعاني الكبير ١ : ٤٠ .

اما سقي الفرس اللبن، فإننا نجد صداه واضحا عند شعراء الفروسية الذين أولوا الفرس حياتهم، ونزل في نفوسهم منزلة العزيز الكريم وذلك لكونها الأساس الذي يعتمد عليه العربي في الدفاع عن شرفه، وقبيلته حين يغار عليه، ومن هنا اعتنوا بالخيول اعتناءهم بأولادهم، ونسائهم بل جاوزوا ذلك الى تفضيله على عيالهم جميعاً. قال عنترة بن شداد : [1]

فمَـــن يَـــكُ ســـائلاً عنـــي فـــإنّي
وجَـــروةَ لا تـــرَودُ ولا تعـــارُ

مُقَّربـــةَ الشـــتاءِ ولا تراهـــا
وراءَ الحَـــي يتبعَهـــا المهـــارُ [2]

لهـــا بالصـــيفِ أصْـــبِرةُ وجِـــلّ
ونيـــب مـــن كرائمهـــا غـــزار [3]

وفي الشتاء حين تهزل الماشية وتجف ألبانها يخصون الفرس باللبن المحض ويعيّرون غيرهم بسوء صيانتهم الخيل، وإذلالهم[4]. ويقول مالك بن نويرة:

أعَلِـلِ أهـلي عـن قليـلِ متـاعِهمِ
وأسقيه محضَ الشَولِ والحيّ هـاتِفُ [5]

---

(١) شرح ديوان عنترة : ٧٨ والشعر منسوب الى شداد بن معاوية العبسي انظر أمثال العرب: ٣٦ .
(٢) لقد خص الشتاء هنا لأنه زمن المحل، والجدب، فالكرم فيه أمدح أي أنها للركوب لا للنسل.
(٣) الأصبرة من الغنم والإبل التي تروح وتغدو على أهلها لا تعزب عنهم والجلّ بالكسر البعير، والنيب المسنة من الابل، وانظر أيضا شرح أشعار الهذليين ١ : ١١٣، الشعر والشعراء ١ : ٢٢٧.
(٤) أنظر الخيل : ١٢، نخبة عقد الجياد : ٢٢٣، وانظر هذا في أخبار عنترة الأغاني ٨: ٤٤٣ ط دار الكتب.
(٥) الخيل : ١٢، حلبة الفرسان : ١٨٢، والشول من الإبل ما أتى عليها من حملها سبعة أشهر فخف لبنها.

فهو هنا يقول بأنه يحرم أهله شرب اللبن، ويعللهم، ويلهيهم، ليسقي فرسه اللبن الشول الخالص ويخصها به، وتبلغ ندرة اللبن أحياناً الى درجة لا يسقي الرجل عياله إلا ما فضل من شرب الفرس قال متمم بن نويرة:

فَلَـــهُ ضريـــبُ الشَـــوْل الاّ ســـؤرهُ

والجِـــلُّ فهـــو مربَّـــب لا يُخلـــعُ[1]

ويريد بأنه يسقي فرسه اللبن المحض، وما بقى سؤره لا يرده عليه، بل يشربه هو وأهله .

ومن هنا نجد في أخبار الشعراء، وأشعارهم إشارات إلى أن النساء كانوا يلومون أزواجهم بحرمانهم اللبن، وخصهم الفرس به، وهم في أشد الحاجة اليه أيام المحل، والجدب. فيذكر عنترة زوجته، ولومها له، مظهرا قلة اكتراثه بأنينها، وتوجعها، وينذرها بالهجران إن استمرت على لومه:

لا تـــذْكُري مُهْـــري ومـــا أطعمَتْـــهُ

فيكـون جلـدُك مثـل جلْـدِ الأجـربِ

إن الغَبـــوقَ لـــه، وأنـــتِ مســـوءة

فتـأوَّهـي مـا شـئت ثـم تحـوَّبي[2]

---

(١) المفضليات ٥٢، وانظر أخباره وأشعاره وأشعار أخيه مالك في كتابنا: مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي.

(٢) ديوان عنترة : ١٩

ويقول الأعرج المُعنّى[1] ذاكراً زوجته ولومها لإيثاره الفرس عليها بشرب اللبن:

أرى أم سَهْلٍ ماتَزالُ تَفَجَّعُ
تَلومُ وما تدري عَلامَ تَوَجَّعُ
تَلومُ على أن أعطي الوردَ لقمة
وما تستوي والوردُ ساعة تُفْزَعُ[2]

ونجد أهمية اللبن في الحديث النبوي الشريف، وذلك أنه كان (ﷺ) يحب اللبن[3] وانه أوصى بالدعاء عند شرب اللبن. قال: (اذا أكل أحدكم طعاماً فليقل اللهم بارك لنا فيه، وأطعمنا خيراً منه، وإذا سقي لبناً فليقل، اللهم بارك لنا فيه، وزدنا منه، فإنه ليس شيء يجزئ عن الطعام والشراب إلا اللبن)[4]. فالرسول (ﷺ) أوصى هنا أن يدعو الانسان ربه اذا أكل الطعام بأن يرزقه خيراً منه، على حين أنه إذا شرب اللبن لم يطلب خيراً منه، وإنما يدعو الله أن يزيده منه، لأنه لا يوجد طعام ولا شراب يكفي الإنسان، أو يغنيه مثل اللبن .

ومن الطبيعي أن يكون اهتمامهم باللبن صادراً عن كونه من أهم منتجات حيوانهم. ويبدو أن هناك سببا آخر لهذا الاهتمام، ذلك لأن اللبن عندهم يمثل الفطرة،

---

(١) هو عدي بن سويد بن ريّان الأعرج الطائي المعني وقيل اسمه سويد بن عدي، وهو مخضرم . أنظر معجم الشعراء: ٢٥١

(٢) شرح ديوان الحماسة ١: ٣٤٩.

(٣) المحاسن : ٤٠٩، الطب النبوي : ٨٠.

(٤) سنن أبي داود ٢: ٣٠٤، سنن ابن ماجة ٢: ١١٠٣، الطب النبوي : ٨٠

فهو أول مايسقى منه رضيعهم، وحيوانهم بالفطرة، فإذا رضع رضيعان من ثدي واحد ربطهما اللبن بالأخوة الطبيعية. وإن اختلف نسبهما وأصلهما.

فاللبن هو الخير الطبيعي الذي يلازم الانسانية في وجودها . وقد دار الفكر العربي حول هذه الفكرة يحب اللبن ويقدسه، حتى تبلورت في ذهنه فكرة الخير المطلق، وارتبط اللبن باليُمْنِ والبركة فقالوا أيمن من اللبن[1]، لهذه الدلالة المقترنة بالخير الدائم. ومما يروي أن رسول الله (ﷺ) قال عن عمار بن ياسر : (**أبو اليقظان على الفطرة لن يدعها حتى يموت، أو ينسيه الهرم**)[2]. وعنه(ﷺ) أنه قال عن عمار أيضاً إنّ آخر شربة يشربها من الدنيا شربة لبن، وأنه قد شرب اللبن قبل مقتله فصدق قول الرسول الكريم [3]. ويمكن أن نقرن بين الروايتين بأن عمار بن ياسر عاش حياته على الطبيعة والسليقة، فكان اللبن قوام طعامه وشرابه، حتى ختم حياته الفطرية باللبن الذي يمثل شراب الفطرة، وفارقه الى الجنة حيث يلقى هناك شراب الخير الطبيعي الدائم.

ومن هنا تتضح لنا الصورة الجميلة لأنهار اللبن في الجنة فضلاً عن كونها توفر لهم الشراب المفضل اللذيذ، لأنها تؤكد لهم فكرة الخير المطلق والبركة الدائمة التي تظلل المؤمنين، لأن اللبن شراب الفطرة، الشراب الميمون المبارك الذي يجدونه في الجنة متوفرا، بل يمتعون أنظارهم بمشهد جريه في أنهار جميلة رائعة.

---

(١) أساس البلاغة : ٨٤٤.

(٢) الطبقات الكبرى ج٣ ق ١ : ١٨٨ .

(٣) مسند الإمام أحمد ٤ : ٣١٩.

ج- أنهار الخمر

أما أنهار الخمر التي ذكرتها الآيات الكريمة: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾[1]. فأنها تعطيينا صنفاً آخر من أصناف شراب أهل الجنة، واذا عدنا الى البيئة العربية وجدنا للخمرة صدى عميقا في نفوس العرب وحياتهم[2].

فقد ذكرت الخمرة في الشعر العربي، ذكرها الشاعر ليغمر في كأسه أحزانه، ويدفن فيها قلقه، وقد تغني الشعراء بشربها، ووصفوا تأثيرها السحري على نفوسهم. قال عمرو بن كلثوم:

ألا هبّـــي بصَـــحْنِكِ فاصـــبحينا
ولا تُبقـــي خُمـــورَ الأنـــدرينا

مُشَعْشَـــةً كـــأنَ الحـــصّ فيهـــا
اذا مالمـــاء خالطهـــا ســـخِينا

تجـــور بـــذي اللبانـــةِ عـــنْ هـــواهُ
اذا ماذاقهـــا حتـــى يلينـــا[3]

---

(١) سورة محمد ٤٧ : ١٥

(٢) أنظر في هذا تطور الخمريات : ٢٨ فما بعدها .

(٣) جمهرة أشعار الغرب : ١١٧، وانظر ايضاً ديوان ابن مقبل ٢٨٧، ٢٩٢، ديوان حميد بن ثور : ٥٩، شرح أشعار الهذلين ١ : ٤٨، ٤٩ .

وقد فخروا بشربها . قال طرفة بن العبد:

وإن تبغِنـــي في حلْقـــة القـــوم تلْقنـــي

وإنْ تقتنصـــني في الحوانيـــتِ تصْـــطدِ

متـــى تـــأتني أصْـــبحْك كأســـا رويّـــة

وإنْ كنـــت عنهـــا غانيـــا فـــاغن وازددِ[1]

ووصفوا أواني الشراب وكؤوسه. قال عنترة بن شداد واصفا زجاجة الخمر:

ولقـــدْ شرِبْـــتُ مـــن المُدامـــةِ بعْـــدما

ركـــد الهـــواجِرُ بالمشُـــوفِ المُعْلـــمِ

بزُجاجـــــــةٍ صـــــــفْراء ذاتِ أسرّةٍ

قرُنـــتْ بـــأزْهر في الشـــمالِ مفُـــدّمِ[2]

وقد شبهوا ريق المرأة بالخمرة [3]. ولم يكتفوا بوصف مجالس الخمر بل نجد عندهم نظرات تأملية يعللون بها شربهم الخمر، وانغمارهم في الملذات. يقول طرفة بن العبد مخاطبا الذين يلومونه على كثرة شربه، ولهوه، بأنه مادام لا يستطيع دفع منيته فان عليه أن يبادر الى اشباع رغبات نفسه، تلك المنية التي تهدده في كل لحظة في بيئته الحربية المتطاحنة :

(١) ديوان طرفة : ٤٧، جمهرة أشعار العرب : ١٣٨، وانظر أيضا ديوان النابغة الجعدي : ٨٦.

(٢) شرح ديوان عنترة : ١٤٨، ديوان علقمة الفحل : ٦٩.

(٣) ديوان جران العود: ١٥، ٤٥ ديوان سلامة بن جندل : ١٤، شرح أشعار الهذلين ١: ١٤١، جمهرة اشعار : العرب : ٨٥، ١٤١ .

الا أيُّهذا اللائمي احضرْ الوغي
وإنْ أشهدِ اللّذاتِ هلْ انت مُخْلدِي
فإنْ كنت لا تستطيع دْفع منيتي
فدعْني أبادرها بما ملكت يدي
فذرْني أروّي ها متى في حياتها
مخافة شرب في الحياةِ مُصرّدِ
كريمٌ يُروي نفسه في حياتهِ
ستعلم إنْ متنا غدا ايّنا الصّدي[1]

إنها البيئة التي حتّمت على العربي هذا الضرب من العيش حين اعوزته الاستقرار، والأمان . فكان العربي فيها مهددا في كل لحظة بغارة مفاجئة تثكله بأعز الناس اليه، أو تقتله. ومن هنا عكفوا على شربها وقضوا لياليهم وأيامهم ينهلون منها قبل أن تصيبهم يد الظروف القاسية. يقول الاستاذ جميل سعيد(فالقبيلة تصبح وكل شيء فيها هادئ ثم تمسي، فاذا هي قد أغير عليها، وفقدت نعمها ورجالها، فلا يبقى أمامها إلا أن تبحث عن الخمر تغرق فيها أحزانها)[2].

وجاء الإسلام ومعه نظام دقيق لإصلاح البشرية، ودفع دفّة الحياة بالعمل، والتفكير، دون الانغماس بالملذات والكبائر، ولم يشأ الله سبحانه وتعالى أن يحرّم الخمرة على المسلمين فجأة، بل كانت مشيئته الربانية في معاملة النفوس البشرية بالرقة

(١) ديوان طرفة : ٥، جمهرة أشعار العرب : ١٤١.
(٢) الوصف في شعر العراق: ٦٢، وانظر أيضاً تطور الخمريات : ٢٩، فما بعدها .

واللطف، فكان تحريم الخمر على مراحل بدأت بذكر اثم الخمر، وأنه أكثر من نفعها [1]، وأنه لا تجوز الصلاة في حالة السكر[2]، وأخيرا كان التحريم المطلق لشرب الخمر، وحدّ شاربها [3]. ومع ذلك نجد في وصف أنهار الجنة أن فيها أنهارا من الخمر وان هذه الخمرة تقدم بكأس بيضاء جميلة، ووصفت بأنها ليست كخمر الدنيا: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ [4].

قال ابن عباس مفسرا الغول بأنه (وجع البطن، وذهاب العقل والأذى)[5]. ونقل الطبري عن ابن عباس أيضا بأنه فسر الغول هنا بالصداع [6].

أما أبو عبيدة فقد خص الغول بأنه مايغتال العقل، ولم يعممه على وجع البطن، والإثم قال : (ليس فيها غول) والغول أن تغتال عقولهم قال الشاعر:

ومازالـــــتْ الكـــــأسُ تغتالنـــــا

وتـــــــذهب الأوّل بــــــالأوّل[7]

(١) قال الله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ سورة البقرة ٢: ٢١٩ .

(٢) قال الله تعالى : (ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى. . .) سورة النساء ٤: ٤٣.

(٣) قال الله تعالى: (إنما الخمر والميسر ... فاجتنبوه)سورة المائدة ٥: ٩٠ .

(٤) سورة الصافات ٣٧: ٤١-٤٧ .

(٥) تنوير المقباس: ٢٢٧

(٦) جامع البيان ٢٣: ٥٣، وكذلك قول الخليل كما نقله ابن سيدة في في المخصص ٥: ٧٤، وانظر ايضاً التبيان ٨: ٤٩٦، وهو معنى أكدته آيات أخرى بقوله تعالى(لا يصدعون عنها ولا ينزفون) سورة الواقعة ٥٦: ١٩، فقيل إن معنى يصدعون يصيبهم الصداع أنظر مجاز القرآن ٢: ٢٤٩، الكشاف ٣: ١٩٤.

(٧) مجاز القرآن ٢: ١٦٩، جامع البيان ٢٣: ٥٣.

وقال الزمخشري : (الغول ما غاله يغولهُ اذا أهلكهُ وأفسده، ومنه الغول الذي في تكاذيب العرب، وفي أمثالهم الغضب غول الحليم)[1].

وفي الاستعمال اللغوي ما يؤكد هذا المعنى فالغول (المهلكة، وكل ما أهلك الإنسان فهو غول)[2]. قال طفيل الغنوي:

ولا أخـــالفُ جـــاري في حليلتـــه

ولا ابـــن عمـــي" إذا غـــالتنيَ الغُـــولُ[3]

أي أصابتني داهية أهلكتني، ومنه سميت الصحراء البعيدة المرامي بالغول[4]. لأنها تغتال الإنسان بمجالها، وبهذا تكون الآية الكريمة قد نفت بتعبير واحد معظم عيوب الخمر، وذلك أن المنعمين في الجنة لا يصيبهم صداع، ولا ألم في بطونهم، إذ لا تؤذيهم الخمر، ولا تهلكم، إنما هي خمر من ضرب آخر أعدت للمؤمنين في الجنة.

ويتبع هذا النعت وصف آخر الخمر الجنة، وهو أنها لا تنزف اذا شربوها، ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾[5]. قال ابن عباس مفسرا هذا التعبير بقوله: (ينزفون ينفذون ويقال ولا هم يسكرون ولا تصدع رؤسهم)[6].

وقال ابو عبيدة (لا يسكرون)[7].

---

(١) الكشاف ٢: ٦٠١

(٢) فقه اللغة : ١٩، المخصص٦: ١٢٨، لسان العرب ١٤: ٢٠.

(٣) ديوان طفيل : ٣١، وانظر أيضاً المفضليات : ٥٩ .

(٤) المخصص ١٠: ١١٥، وانظر شاهد الشعر في مجالس ثعلب ١: ٨، ١٠، ١١٨.

(٥) سورة الصافات ٣٧: ٤٧

(٦) تنوير المقباس: ٢٧٧

(٧) مجاز القرآن ٢: ٢٤٩

وقد ذكر الطبري أن سبب الاختلاف في التفسير النزف هو اختلافهم في قراءة الكلمة قال : (والصواب في ذلك أ، أهل الجنة لا ينفد شرابهم ولا يسكرهم شربهم إياه فيذهب عقولهم)(١).

فالخمر حين حرمت في الحياة الدنيا على المسلمين، إنما حرمت لعيوبها، ومضارها. وقد عرف العرب عيوبها من قبل، ونجد ذكرها في الحديث عن أيام لهوهم، ووصف مجالس شرابهم. قال عدي بن زيد :

إذْ غبقتْـــــهُ حمـــــراء صـــــافية

والخمـــر وهْـــلٌ يهـــيم شـــاربها(٢)

أي ان الخمر تذهب بلب شاربها فيهيم، ولا يستطيع التفكير الصحيح. قال أبو ذؤيب واصفا مجلس الندامى، بأنهم لكثرة شربهم يبدون، وكأن برؤوسهم جراحا:

تـــرى شربهـــا حُمْـــر العيـــون كـــأنّهُمْ

أســاوى إذا مــا ســار فــيهم ســؤارها

والأساوى جمع آس وأسيان. يريد كأن شربها بهم جراح في رؤسهم قد دوويت. شبه السكارى بذلك لانكسار أعينهم. (٣)

وقد تفقد الخمر لب الإنسان، وتفكيره، مما يؤدي به الى مشاكل كثيرة (٤). ومن هنا نفى الشعراء في اشعارهم ان تذهب الخمرة عقولهم قال عنترة بن شداد: .

---

(١) جامع البيان ٢٣: ٥٥

(٢) ديوان عدي بن زيد : ٤٨

(٣) المعاني الكبير ١ : ٤٢٢

(٤) انظر ديوان أبي محجن : ٦٧ .

فــاذا ســكرتُ فــانّني مُســتهلكٌ مــالي
وعـــرضي وافـــرٌ لم يكلـــم
واذا صــحوْتُ فــما اقصّــرُ عــن نــدى
وكــما علمــتِ شــمائلي وتكرُمــي[1]

ومن هنا نرى أي إعجاز عظيم ذلك الذي نجده في الآيات الكريمة حين تصف خمر الجنة، وأنهارها الجارية، بأن خمرها خالص المتعة قد نفيت عنه كل عيوب خمر الحياة الدنيا. فهي لا تسكر، ولا يصيب شاربها الصداع، أو أي ألم كان، ثم إنَّ خمر الجنة مخلوط بالمسك قال الله تعالى.

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾[2]. فخمر الجنة صافية مخلوطة بالمسك، وهو طيب الرائحة[3]. وكان العرب يتطيبون به[4]. ويحفظ عادة في قوارير، وهو من الطيب الثمين الذي يباع بأثمان عالية كما يقول الأستاذ جواد علي[5].

(١) شرح ديوان عنترة : ١٤٩

(٢) سورة المطففين ٨٣: ٢٢-٢٦

(٣) وقد قال الجوهري انه فارسي معرب . انظر الصحاح ٤: ١٦٠٨، المعرب : ٣٢٥، لسان العرب ١٢: ٣٧٧. وصيغة الكلمة لا توحي بكونها اعجمية، الاانهم ذكروا أنها مادة متوفرة في الصين، والتبت، موجودة في قرون ظبائها انظر آثار البلاد: ٧٩

(٤) ديوان الاعشى : ٥٥

(٥) تاريخ العرب الجواد علي ٨: ٩٣، ١٣٥

ج- أنهار العسل :

وأخيراً فهناك أنهار من عسل تجري الى جانب أنهار المياه والخمر واللبن، واذا كان العسل شرابا متوفرا في كثير من البيئات، فإن معرفة نظرة العرب إليه تشكل لنا صورة لأهميته في بيئتهم، ونفوسهم، فقد ذكر وجود العسل في بعض أنحاء الجزيرة العربية حتى صار من أهم مواد تجارتهم، قال ابن المجاور: (كان لبني سليم في الجاهلية نحل عظيم يشتريه الحجاج، وأهل الحجاز، وبعض أهل اليمن)[١]. أمّا في باقي أنحاء الجزيرة العربية، فقد ذكر العسل في أشعار الشعراء، فوصفوا الأماكن التي يكثر فيها، ووصفوا معاناة المشتار في اشتياره العسل[٢].

ولم يحب العرب العسل لأنه شراب حلو فحسب، بل لأنهم اعتقدوا فيه مالا يعتقدون بغيره من أنواع الشراب، وذلك انهم اعتبروه من الادوية التي يعالجون بها أمراضهم، فضلاً عن كونه شرابا لذيذا حلوا وقد أكد القرآن الكريم هذه التاحية بذكر نعم الله الوفيرة التي انعمها على عباده ومنها العسل قال تعالى: ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾[٣] كما أوصى به الرسول الكريم (ﷺ) بقوله: (عليكم بالشفائين العسل والقرآن)[٤]. وقد طبق الرسول (ﷺ) قوله هذا في حياته، فقد روي انه كان يشرب كل يوم قدح عسل ممزوج بالماء على الريق[٥].

---

(١) صفة بلاد اليمن: ١٥

(٢) شرح أشعار الهذليين١: ١٤١

(٣) سورة النحل ١٦: ٦٩-٧٠.

(٤) سنن ابن ماجة ٢: ١١٤٢.

(٥) الطب النبوي : ٧٠

وروي عن عائشة أنها قالت: (كان احب الشراب الى رسول الله ﷺ العسل)[1].

وقالت ايضا (إن النبي ﷺ كان يحب الحلوى والعسل)[2].

وهذ الاهتمام بالعسل مرده الى الفكرة التي رسخت في أذهانهم، وجربوها في حياتهم، يكون العسل شفاء لكثير من الامراض. هذا من ناحية ومن الناحية الاخرى) فإن طعمه الحلو يجعل الشارب يستزيد منه، ويستلذه، ومن هنا تغزلوا بالمرأة وشبهوا ريقها بالعسل، قال النابغة الذبياني:

كــأنّ مّشــمولَةً صِرْفــا بريقتهـــا

مــن بعْــدِ رقــدتِهــا او شُــهد مُشْــتارِ[3]

وقالوا في مديح الرجل، ورثائه بأنه كالعسل الخالصِ في لينِهِ، وعموم نفعه.[4]

وكان شاعرهم اذا ذكر العسل استطرد الى وصف النحل الذي يجمعه، والى وصف ما يعانيه المشتار حين يجمع العسل، معرّضا نفسه الى اذى النحل، لأجل الحصول على هذا الشراب اللذيذ[5].

ومن هاتين الناحتين جاء اهتمام القرآن الكريم بالعسل، فذكرت أنهار العسل الجارية في الجنة لتزيد متعة المؤمنين الى جانب النعم الاخرى التي يوفرها الله سبحانه وتعالى في الجنة.

هذه هي صورة الأنهار المتعددة التي تجري في الجنة، فيتمتع بشربها ومنظرها المؤمنون، واذا قارنا هذه الصورة بصورة التعذيب بالعطش وجدنا فرقا شاسعا بين

---

(١) نفسه: ٦٩

(٢) المحاسن: ٤١٥، سنن الدارمي ٢: ١٠٧، الطب النبوي: ٦٩.

(٣) ديوان النابغة: ٥٠، جمهرة أشعار العرب: ٧٩

(٤) جمهرة أشعار العرب: ٢٧٥، الشعر والشعراء ١: ١٠٧.

(٥) أشعار الهذليين ١: ٤٨-٤٩

الصورتين، فرقا بين من يتوسل، ويتمنى شربة ماء صاف، وبين المؤمن الذي يجد امامه نعيما متوفرا من خمر ولبن وعسل . وقد أورد القرآن الكريم هاتين الصورتين معا ليزيد ملامح كل صورة وضوحا، وبيانا:

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ (٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾[١].

وقال تعالى ايضا: ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾[٢]. إن تكرار لفظة الأنهار مرة بعد مرة يزيد جمال الآية ويرسخ الصورة الرائعة للأنهار، والشراب المتوافر في الجنة، حتى اذا اكتملت هذه الصورة جاءت صورة المجرمين الخالدين في النار الذين لا يسقون إلاّ الحميم الحار الذي يقطّعُ أمعاءهم ويحرق بطونهم.

وتحيط الأنهار المتوافرة في الجنة الأشجار والنخيل بظلالها الوارفة، وجوها المعتدل الطيب. أما العطش والحرمان من الماء، فتحيطه صورة النار، ولظاها المحرق وصنوف عذابها. وبهذا تتجلى الصورتان فتغمر الراحة، والسعادة نفس المؤمن حين يقرأ وصف الجنة، على حين يقشعر جسده، وتملكه الرهبة حين يقرأ وصف عذاب النار[٣].

---

(١) سورة الغاشية ٨٨: ٢-١٤

(٢) سورة محمد ٤٧: ١٥-١٦

(٣) أنظر من حديث الماء في الأدب العربي: ٨، وقد أهملت الحديث عن طعام أهل الجنة، لأن دلالته على البيئة العربية غير واضحة كما مرّ بنا في الحديث عن طعام أهل النار أما ذكر أشجار الفاكهة المتنوعة فإنها تدخل ضمن الحديث عن وصف الجنة وأشجارها الوارفة. انظر.

٤- صنوف اخرى من النعيم :

أ- لباسهم:

لقد مر بنا وصف ألوان لباس المؤمنين في الجنة، وكيف أنها اقترنت بالخضرة أحب الألوان الى نفوسهم. أما نسيجها فهو من الحرير الناعم الخالص ﴿ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُۥٓ
أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ
جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا
وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ
أَنزَلْنَـٰهُ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ
وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ
وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ
مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ۞ هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ
مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾
كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ (١).

وقال تعالى ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ (٢).

واذا عدنا الى البيئة العربية وجدنا الحرير قد شاع استعماله في العصر الجاهلي خاصة عند الأغنياء منهم، أما النساء فقد كثر وصف ملابسهن المصنوعة من الحرير(٣).

---

(١) سورة الحج ٢٢: ١٤-٢٣.

(٢) سورة الانسان ٧٦: ١٢.

(٣) المفضليات: ٤١١: الشعر والشعراء١: ٣١٧.

ولبسه الرجال ايضا الى درجة بالغوا فيه، حتى جاء الاسلام فأراد أن يحد من هذا الترف فحرم لبسه على الرجال دون النساء[1].

ومن هنا أباحة الله سبحانه وتعالى للمؤمنين في الجنة، فالحرير محرم على الرجال في الدنيا، لأنه يمثل الترف المبالغ فيه، أما في الجنة فان الله سبحانه وتعالى لا يحرم عباده هذه النعمة.

ب- أساور الذهب والفضة

وهناك صورة أخرى تعرضها الآيات الكريمة للترف ينعم به المؤمنون في الجنة تلك هي صورة تزينهم بأساورالذهب والفضة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [2] وقال تعالى ايضا : ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [3].

وللقارئ ان يلاحظ ان الآية الكريمة لا تحدد لبس الأساور بالنساء دون الرجال، وانما قد يفهم منها أن الرجال يحلون بها أيضا. ومن هنا نتسائل ما اذا كان الرجال في الجاهلية يتحلون يالحلي والأساور ؟ إن ما وصل الينا من المصادر لا يعيننا على فهم هذه الصورة إلا أننا نجد في الحديث النبوي ما يعكس لنا ذلك فالرسول عليه الصلاة والسلام قد نهى الرجال، وشدد في منع لبس الذهب والتختم به[4] وأباح لهم

---

(١) سنن ابي داود ٢: ٣٦٩، ٣٧٢

(٢) سورة الكهف ١٨: ٣١

(٣) سورة الإنسان ٧٦: ٢١

(٤) سنن أبي داود ٢: ٤٠٦، مسند الإمام أحمد ١: ١٦٩، ٢: ٣٣٤، ٣٧٨.

الفضة؛ لأنها أقل ترفا من الذهب . وهناك حديث شريف يقول : (من أراد ان يسور حبيبه بسوار من نار، فليسوره بسوار من ذهب)[1]. ولا يمكن أن يوجه هذا الحديث الى منع لبس المرأة الذهب والأساور؛ لأن حكم الإسلام معروف فيه، وقد أحل لها لبس الذهب على أن تؤدي زكاته[2]. إلا إننا يمكن أن نفهم أن بعضهم كان يتسور في الإسلام فشدد الرسول (ﷺ) بمنع هذه الحلية، لأنها تجعل لابسها في ترف مبالغ فيه، قد يبعده عن العمل الجدي.

(١) مسند الإمام أحمد ٢: ٣٣٤، ٣٧٨، ٤: ٤١٤.

(٢) سنن الترمذي ٣: ٢٩، سنن ابن ماجة ٢: ١٢١، مسند الإمام أحمد ١: ٢٠٤، ٢٠٨

الخاتمة

وأخيراً وبعد أن مرت بنا فصول الرسالة تبين لنا أن صور الحساب التي وردت في مواضع متفرقة من القرآن الكريم قد تجلت لنا بصورة واضحة في هذا البحث، ويتبين لنا أنه سبحانه وتعالى عرض لنا يوم الحساب في مشاهد متتابعة ما إن يكتمل مشهد، حتى يليه آخر يكمل صورته، ويقدم ساعة الحساب مرحلة جديدة إبتداء من ساعة النفير حتى ساعة القضاء ثم الثواب، والعقاب، وفي كل مشهد من هذه المشاهد وجدنا صوراً كثيرة متحركة تتجمع كلها لتكمل لنا ملامح الموقف وفي كل تعبير نجد جانباً من البيئة العربية والإنسانية.

وإذا استعرضنا هذه التعابير نستشف منها أهمية البيئة العربية في وفرة بعض الألفاظ دون غيرها ونجد أن الظاهرة التي كانت لها علاقة وثيقة بحياة العربي قد دارت حولها الألفاظ في مفرداتها أكثر من غيرها.

فالجزيرة العربية صحراء مترامية الأطرف في معظم أجزائها، كادت تحرم من المياه في كثير من المناطق. ومن هنا نجد أن القرآن الكريم أولى هذه الناحية أهميتها العظيمة، ووجدناها واضحة تمام الوضوح في مشاهد القيامة: فالمجرمون يساقون إلى النار عطاشى محرومين من الماء وهي أول وسيلة من وسائل التعذيب بالنار. وتتجلى هذه الصورة أكثر في التعابير التي تصور شراب أهل النار، والآيات التي تعرض وصف الجنة ووفرة المياه فيها والأنهار الجارية فيها. هذه الأهمية العظيمة للماء تأثر بها المفسرون أيضاً ففسروا بعض

التعابير التي تبدو بعيدة عن معنى الماء في سياقها العام كقوله تعالى (نحشر المجرمين يومئذ زرقاً) سورة طه ٢٠: ١٠٣. وهناك تعابير لها علاقة بالماء، وصفاته كالكدرة والقصر ولما كانت الأنهار الجارية قليلة تكاد تنعدم في البيئة العربية لذا وجدنا قلة التعابير التي تخص السفينة إلا تعبيراً واحداً يخص حبالها في مشاهد يوم القيامة .

وهناك تعابير جسّدت لنا صوراً من الصحراء العربية كالسراب والكثيب المهيل وتداعي الكثيب ثم مور التراب، والرمال الهيم السهلة . أما النبات فقد أولاه القرآن الكريم أهمية كبيرة في تعابير عديدة كالنضرة والفطر؛ وهو شق النبات وخروجه من الأرض. وأخيرا في أوضح مشهد يعرض لنا صفة الجنة وخضرتها المحببة وأشجارها المتنوعة .

أما التعابير التي تخص الحيوانات فوجدنا أن مجموع الألفاظ التي مر بحثها قد وفرت حول الحيوانات التي لها علاقة كبيرة في حياة العربي، فالبعير حيوان الصحراء المعتاد أحبه العربي ولازمة في أسفاره، ورحلاته، وناجاه مناجاة الصديق. هذا البعير وفرت حوله التعابير سواء كان في خلقه أو صفاته، أو ما يعرض له من عوارض من ذلك تعبير الفاقرة: الداهية التي قال بعضه أنها مشتقة من فقر أنف البعير حين يُجَز وكذلك تعبير الفطر في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ سورة الانفطار ٨٢ : ١ التي نفهم منها فطر ناب البعير إذا شق. أو قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ سورة المرسلات٧٧: ٣٢ ، الذي فسره بعضهم بأنه أعناق الابل، أو قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ سورة المرسلات ٧٧: ٣٣، وفسر بأن شرر النار يشبه الجمالة وهي الناقة الضخمة.وفي صفة الناس يوم القيامة ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ بأن الإهطاع مشتق من إهطاع البعير إذا كان في رأسه ميل خلقة.

أو المـور في قولـه تعـالى: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾ سورة الطور٥٢: فـالمور هـو الاضطراب؛ من مارت الناقة إذا سارت ونثر التراب على جانبها أو قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ من إبلاس الناقة إذا أصابها عارض فتألمت ويئست.

وفي صفة المجرمين حين يشربون فلا يرتـوون ﴿ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴾ بـأن الهيم الإبل العاطشة المريضة.

أما ما يطلى به البعير حين يصـاب بـالجرب أو أيـام الشـتاء البـاردة فقـد ورد في تعبيرين هما المهل والقطران.

هذه هي التعابير التي خصت الإبل أكثر من غيرها من الحيوانات على حين نجد بعض الحيوانات لم يرد حولها إلاّ تعبير واحد أو تعبيران كالذئب، والحيات، والكلاب، وغيرها من الحيوانات التي قلت أهميتها عن البعير كما وجدنا تعابير خصت بهـا الدابـة بصورة عامة كالعدل، والبسّ، والصور، الذي فسر بالقرن والناقور المقترن بنقر الخيل.

أما الناحية الإجتماعية فقد وفرت حولها تعابير عديدة عكست لنـا جوانـب مـن الحياة العربية فالغارات مثلاً كانت سائدة في المجتمع العـربي يفـاجئ بهـا الحـي فيعلـو الصريخ، ويبدأ القتال. ومن هنا وجدنا في التعابير القرآنية الفاظاً لها دلالتها عـلى هـذه الناحية كالداعي والمنادي والهمس الذي فيه إيحاء صفة ليلة الهمـس التـي يخشـى فيهـا السير من هولها.

والرجة التي قرنت برجة السهم ثم المور في مور الدماء بعد القتـال والسلاسـل والقيود التي تعكس لنا جوانب الأسر، وأخيراً ما يتبع القتال من أسر وفداء ودية.

هذه التعابير وإن حملت دلالات مادية منبثقة من البيئة العربية إلا أنها من خلال تراكيبها رسمت صوراً إنسانية، تبلّغ فكرة البعث والثواب والعقاب. فالقرآن الكريم نزل باللغة العربية رسالة إنسانية للبشر جميعاً، ولا بدّ أن تحمل هذه اللغة دلالات لغوية في حقول مختلفة، تغني الباحث إذا تعمق في دراستها، وفهم دلالاتها.

المراجع والمصادر(*)

- آثار البلاد وأخبار العباد – القزويني، زكريا بن محمد بن محمود. دار صادر، دار بيروت. بيروت. ١٣٨٠ هـ ١٩٦٠م.
- أدب الكاتب – ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (٢٧٦هـ)، تحقيق ماكس غريونت. ليدن. مطبعة بريل ١٩٠٠ .
- الاتقان في علوم القرآن – السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن (٩١١هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٧٠هـ ١٩٥١م.
- أخبار الزمان – المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (٣٤٦)، مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي بمصر ١٣٥٧ هـ – ١٩٣٨م.
- أراجيز العرب – البكري محمد توفيق الصديق. القاهرة ١٣١٣.
- إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب : المعروف بمعجم الأدباء أوطبقات الأدباء ياقوت الحموي. شهاب الدين أبو عبد الله الرومي البغدادي – ٦٢٦ هـ. تحقيق د.س مرجليوت، مطبعة هندية بالموسكي بمصر ١٩٢٣ –١٩٢٥.

* نستميح القارئ عذراً، هناك طبعات وتحقيقات قديمة لكتب رجعنا إليها سنة كتابة الرسالة، وأبقيناها كما هي.

- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري – القسطلاني، أحمد بن محمد بن أبي عبد الملك ٩٢٣ هـ.
- الأزمنة – قطرب أبو علي محمد بن المستنير (٢٠٦ هـ) . نشر في مجلة المجمع العلمي بدمشق ج ١ كانون الثاني المجلد الثاني سنة ١٩٢٢م.
- الأزمنة والأمكنة – المرزوقي ، أبو علي الاصفهاني (٤٥٣ هـ) مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيد آباد الدكن ١٣٣٢ هـ.
- أسرار البلاغة – الجرجاني ، عبد القاهر (٤٧١) أو (٤٧٤ هـ)، تحقيق أحمد مصطفى المراغي. القاهرة مطبعة الاستقامة ١٣٥٢ هـ ١٩٣٢ م.
- أسماء جبال تهامة وسكانها – عرام بن الإصبع السلمي (القرن الثالث الهجري) تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة مطبعة أمين عبد الرحمن ١٣٧٣ هـ.
- أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والاسلام – إبن حبيب، محمد بن حبيب البغدادي – ٢٤٥ هـ تحقيق عبدالسلام هارون، سلسلة نوادر المخطوطات المجموعة السادسة والسابعة. القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٣ -١٩٥٤م.
- الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين – الخالديان، أبو بكر محمد بن هشام (٣٨٠ هـ)، وأبو عثمان سعيد ابن هشام (٣٩٠-٣٩١ هـ)، ج ١ تحقيق الدكتور السيد محمد يوسف، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٨م.

- الاشتقاق – إبن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن (٣٢١ هـ) ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون. نشر مؤسسة الخانجي ١٣٧٨ هـ، ١٩٥٨م.
- الاشتقاق – الاصمعي، أبو سعيد عبد الملك بن قريب (٢١٦ هـ)، تحقيق سليمان ظاهر. نشر مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق. م٢٨ ج ٢.١ سنة ١٩٥٤م.
- الإصابة في تمييز الصحابة – إبن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد – (٨٥٢ هـ) المكتبة التجارية الكبرى ١٣٥٨ هـ، ١٩٣٩م.
- الأصمعيات – الأصمعي، أبو سعيد عبد الملك بن قريب (٢١٦ هـ). تحقيق أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون. دار المعارف ١٣٧٥ هـ، ١٩٥٥م.
- الأصنام – ابن الكلبي، أبو المنذر هشام بن السائب، (٢٠٤ هـ)، تحقيق أحمد زكي. القاهرة المطبعة الأميرية ٩١٤م.
- أعجب العجب في شرح لامية العرب – الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر ٥٣٨ هـ، قسطنطينية، مطبعة الجوائب ١٣٠٠ هـ.
- الأعلاق النفسية – ابن رستة، أبو علي أحمد بن عمر (كان حياً عام ٢٩٠ هـ) باعتناء ديغويه. ليدن مطبعة بريل ١٨٩١م.
- إغاثة الأمة بكشف الغمة – المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر (٨٤٥ هـ) لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٧م.
- الأغاني – الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي ٣٥٦ هـ/

٩٦٧ م. مطبعة التقدم ١٣٢٣ هـ.

- الأفعال – ابن القوطية، أبو بكر، محمد بن عمر بن عبد العزيز، (٣٦٧ هـ)، تحقيق علي فودة. مطبعة مصر ١٩٥٢ م.
- الأمالي – الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق (٣٤٠ هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون بالقاهرة. المؤسسة العربية الحديثة ١٣٨٢ هـ/ ١٩٦٣ م.
- أمالي المرتضى – الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي العلوي – (٤٣٦ هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٣ هـ/ ١٩٥٤م.
- أمالي اليزيدي – اليزيدي، أبو عبد الله محمد بن العباس (٣١٠ هـ)، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، بحيدر آباد الدكن ١٣٦٧ هـ.
- أمثال العرب – المفضل الضبي – توفى نحو (١٦٨ هـ). قسطنطينية، مطبعة الجوائب ١٣٠٠ هـ.
- إنباه الرواة على أنباه النحاة – القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي يوسف، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. القاهرة دار الكتب المصرية ١٣٦٩ – ١٣٧٤ هـ/ ١٩٥٠ م – ١٩٥٥ م.
- أنساب الأشراف – البلاذري، أحمد بن يحيى (٢٧٦ هـ) تحقيق محمد حميد الله. دار المعارف بمصر ١٩٥٩.

- أنيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء، تحقيق لويس شيخو اليسوعي. بيروت المطبعة الكاثوليكية ١٨٩٦م.
- إيمان العرب في الجاهلية – النجيرمي، أبو اسحاق إبراهيم بن عبد الله الكاتب تحقيق محب الدين الخطيب ط ٢ . المطبعة السلفية بمصر ١٣٨٢هـ.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة – السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر (٩١١ هـ). القاهرة ١٣٢٦هـ.
- البلدان – اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب ٢٨٤ هـ نشر ديغويه. ليدن، مطبعة بريل ١٨٩١ م.
- بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب الآلوسي، محمود شكري، تحقيق محمد بهجة الأثري ط ٣. دار الكتاب العربي بمصر ١٤٢٣هـ.
- البيان والتبيين – الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥ هـ) تحقيق عبد السلام هارون. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٨٠ هـ – ١٣٨١ / ١٩٣٥ م – ١٩٣٦ م.
- تاج العروس من جواهر القاموس – الزبيدي، محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي (١٢٠٥ هـ). المطبعة الخيرية، المنشأة بجمالية مصر ٣٠٦ هـ.
- تاريخ بغداد أو مدينة السلام – الخطيب البغدادي، أحمد بن أبي بكر – (٤٦٣هـ) ، تصحيح محمد حامد الفقي. القاهرة مطبعة السعادة ١٣٤٩ هـ ١٩٣١م.
- التاريخ الجغرافي في القرآن الكريم – السيد مظفر الدين نادفي. القاهرة.

- جزيرة العرب – بيرني، جان جاك، ترجمة نجدة هاجر، وسعيد الغز. بيروت المكتب التجاري ١٩٦٠ م.
- جزيرة العرب في القرن العشرين – حافظ وهبة، ط ٤، القاهرة مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦١ م.
- جغرافية العالم ج ١ – الدكتورة دولت أحمد صادق، الدكتور محمد السيد غلاب، الدكتور جمال الدين الدناصوري، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٩م.
- جمهرة أشعار العرب – القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب. المكتبة التجارية الكبرى ١٣٤٥ هـ – ١٩٢٦ م.
- جمهرة اللغة – ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي (٣٢١ هـ) مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ١٣٥١هـ.
- الحاوي في الطب ج ٢ الرازي ، أبو بكر محمد بن زكريا (٣١٣ هـ)، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن.
- الحماسة- البحتري، أبو عبادة، تحقيق كمال مصطفى، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٩٢٩ م.
- حلية الفرسان وشعار الشجعان – ابن هذيل الأندلسي، علي بن عبد الرحمن، تحقيق عبد الغني حسن. دار المعارف بمصر ١٣٦٩ هـ-١٩٤٩م.
- الحيوان- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر – ٢٥٥ هـ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ١٩٣٨ – ١٩٤٥م.

- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب على شواهد شرح الكافية – البغدادي عبد القادر بن عمر ١٠٩٣ هـ، بولاق المطبعة الاميرية ١٣٩٩.
- الخصائص – ابن جني أبو الفتح عثمان بن جني – ٣٩٢ هـ، تحقيق علي النجار، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٧١ – ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٢ – ١٩٥٦م.
- الخيل – أبو عبيدة، معمر بن المثنى (نحو ٢١٠ هـ) ، مطبعة دائر المعارف العثمانية – حيدر آباد الدكن ١٣٥٨هـ.
- دائرة المعارف الاسلامية – (المترجمة). مادة (جهنم)، و(حرّة). ترجمة أحمد الشنتناوي وآخرون.
- درة التنزيل وغرة التأويل – الخطيب الإسكافي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله – (٤٢١ هـ)، تحقيق عبد المعطي السقا. مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٦ هـ، ١٩٠٨ م.
- دروس في البلاغة وتطورها – جميل سعيد، بغداد، مطبعة المعارف ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١ م.
- الدلائل والاعتبار على الخلق التدبير – الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر – (٢٥٥ هـ)، تصحيح محمد راغب الطباخ، مطبعة حلب ١٣٤٦ هـ/ ١٩٢٨م.
- ديوان ابن الدمينة، عبد الله بن عبيد الله، تحقيق أحمد راتب النفاخ، القاهرة

مطبعة المدني ١٣٧٨ هـ/ ١٩٥٩م.

- ديوان ابن مقبل – إبن مقبل، تحقيق الدكتور عزة حسن. دمشق، وزارة الثقافة والارشاد القومي ١٣٨١ هـ/ ١٩٦٢ م.
- ديوان أبي محجن الثقفي وشرحه –العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، ليدن، مطبعة بريل ١٣٠٣ هـ، ١٩١٦ م.
- ديوان الأعشى الكبير – الأعشى الكبير ، ميمون بن قيس، شرح وتعليق محمد محمد حسين، المطبعة النموذجية.
- ديوان امرئ القيس – امرؤ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم . دار المعارف بمصر ١٩٥٨ م.
- ديوان بشار بن برد – بشار بن برد، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور. القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٩ – ١٣٧٦ هـ/ ١٩٥٠ – ١٩٥٧م.
- ديوان بشر بن أبي خازم – بشر بن أبي خازم، تحقيق الدكتور عزة حسن . دمشق ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م.
- ديوان جران العود النميري – القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٥٠/ ١٩٣١م.
- ديوان جرير – تحقيق كرم البستاني. دار صادر ، دار بيروت ١٩٦٠ .
- ديوان حاتم الطائي – دار صادر – بيروت ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣ م.

- ديوان حسان بن ثابت الأنصاري – دار صادر، بيروت ١٣٨١ هـ/ ١٩٦١م.
- ديوان الحطيئة – شرح ابن السكيت والسكري والسجستاني، تحقيق نعمان أمين طه. القاهرة. مصطفى البابي الحلبي وأولاده ١٣٧٨ هـ/ ١٩٥٨م.
- ديوان حميد بن ثور الهلالي – تحقيق عبد العزيز الميمني. القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٧١ هـ/ ١٩٥١ م.
- ديوان سحيم عبد بن الحسحاس –تحقيق عبد العزيز الميمني. القاهرة. دار الكتب المصرية ١٣٦٩ هـ/ ١٩٥٠م.
- ديوان سلامة بن جندل – تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعي. المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت ١٩١٠.
- ديوان السموأل (مع ديوان عروة بن الورد) – دار صادر، بيروت، ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤ن.
- ديوان شعر ذي الرمة – ذو الرمة ، غيلان بن عقبة العدوي، عني بتصحيحه وتنقيحه كارليل هنري هيس مكارثي، مطبعة كلية كمبرج ١٣٣٧ هـ/ ١٩١٩م.
- ديوان الشماخ – الشماخ بن ضرار الصحابي الغطفاني، تحقيق أحمد الشنقيطي – مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٧هـ.
- ديوان طرفة بن العبد – تحقيق الدكتور علي الجندي، مكتبة الأنجلو المصرية ١٣٧٨ هـ/ ١٩٥٨هـ.

- ديوان الطرماح – الطرماح، بن حكيم بن نفر الطائي (طبع مع شعر طفيل الغنوي) تحقيق كرنكو. لندن ١٩٤٧م.
- ديوان عامر بن الطفيل – تحقيق كرم البستاني، دار صادر. بيروت. ١٣٨٣ هـ/ ١٩٤٧ م.
- ديوان عبيد بن الأبرص – تحقيق كرم البستاني، دار صادر/ بيروت ١٣٧٧ هـ/ ١٩٥٨ م.
- ديوان عدي بن زيد العبادي – تحقيق محمد جبار المعيبد، بغداد، وزارة الثقافة والارشاد ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥م.
- ديوان عروة بن الورد – تصحيح الشيخ ابن ابي شنب. طبع بالجزائر ١٩٢٦م.
- ديوان الفرزدق – تحقيق كرم البستاني . دار صادر، بيروت ١٣٨٠ هـ/ ١٩٦٠م
- ديوان القطامي – تحقيق ابراهيم السامرائي،وأحمد مطلوب. بيروت، دار الثقافة ١٩٦٠ م.
- ديوان قيس بن الخطيم – تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد. القاهرة، مطبعة المدني ١٩٨١ هـ/ ١٩٦٢ م.
- ديوان المفضليات – الأنباري، أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار (٣٠٤ هـ) ، تحقيق كارلوس يعقوب لايل. بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين ١٩٢٠م.

- ديوان النابغة الذبياني – تحقيق وشرح البستاني، دار صادر، بيروت، ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠ م.
- رسالة في بيان إعجاز القارآن - الخطابي، أبو سليمان أحمد بن محمد بن ابراهيم (٣٨٨ هـ) – ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن – تحقيق محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر.
- رسالة في المعاد – ضمن رسائل الجاحظ ج ١ـ تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون. القاهرة مكتبة الخانجي ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤م.
- زهر الآداب وثمر الألباب – الحصري القيرواني، أبو اسحاق ابراهيم بن علي (٤٥٣ هـ). تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد وشرح زكي مبارك. مطبعة السعادة بمصر ١٣٧٢ هـ/ ١٩٠٣ م.
- الزينة في الكلمات العربية الاسلامية – الرازي ، أبو حاتم أحمد بن حمدان (٣٢٢ هـ). تحقيق حسين بن فيض الله الهمداني القاهرة ١٩٥٧م.
- سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون – ابن نباتة، جمال الدين محمد بن محمد – ٧٦٨ هـ. المطبعة الأميرية المصرية ١٢٧٨ هـ.
- سنن ابن ماجة – ابو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (٢٧٥ هـ) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار احياء الكتب العربية ١٩٥٢ م.
- سنن أبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي – (٢٧٥ هـ)، تحقيق أحمد سعد علي. مطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٧١ هـ- ١٩٥٢م.

- سنن الدارمي – الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن ابن الفضل بن بهرام (٢٥٥ هـ) . عنى بطبعه محمد أحمد الدهان. دمشق . مطبعة الاعتدال ١٣٤٩هـ.
- سنن النسائي – أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي (٣٠٣ هـ) – المطبعة العصرية بالازهر.
- سيرة النبي – إبن هشام، أبو محمد عبد الملك (٢١٣ أو ٢١٨ هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. مطبعة حجازي.
- شجر الدر في تداخل الكلام بالمعاني المختلفة – أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي (٣٥١ هـ). تحقيق محمد عبد الجواد، دار المعارف ١٩٥٧م.
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك – تحقيق محيي الدين عبد الحميد. القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى ١٩٦١م.
- شرح أشعار الهذليين – تحقيق عبد الستار أحمد فراج، القاهرة، مطبعة المدني.
- شرح ديوان الحماسة – المرزوقي، أبو علي، أحمد بن الحسن (٤٢١ هـ)، باعتناء أحمد أمين وعبد السلام هارون. القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٣ هـ – ١٩٥٣ م.
- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى – شرح ثعلب: أبو العباس أحمد بن يحيى بن يزيد الشيباني (٢٩١ هـ). القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٤.

- شرح ديوان علقة الفحل، تحقيق أحمد صقر. القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥م.
- شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري – تحقيق إحسان عباس، الكويت ١٩٦٢م.
- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات – ابن الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم (٣٢٨هـ) ، تحقيق وتعليق عبد السلام هارون دار المعارف ١٩٦٣ م
- شعر طفيل بن عوف الغنوي – تحقيق ف . كرنكو، لندن ١٩٢٧ م .
- شعر المثقب العبدي – تحقيق محمد حسن آل ياسين . مطبعة المعارف ١٩٥٦م.
- شعر النابغة الجعدي، تحقيق عبد العزيز رباح. دمشق، المكتب الاسلامي ١٩٦٤ – ١٩٨٤ هـ.
- الشعر والشعراء – ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم (٢٧٦هـ). بيروت، دار الثقافة ١٩٦٤.
- شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل – الخفاجي ، شهاب الدين أحمد بن محمد (١٠٦٩ هـ) . القاهرة، مطبعة السعادة ١٣٢٥ هـ.
- الصاحبي في فقة اللغة وسنن العرب في كلامها – ابن فارس، أبو الحسين أحمد (– ٣٩٥هـ). القاهرة ، مطبعة المؤيد ١٣٢٨هـ/ ١٩٠٠ م.
- الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) الجوهري : اسماعيل بن حماد (٣٩٣ هـ)، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار. دار الكتاب العربي بمصر ١٣٧٦ – ١٣٧٧ هـ/ ١٩٥٦ – ١٩٥٧،

- صحيح مسلم – أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (٢٦١ هـ) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار احياء الكتب العربية ١٣٧٤ – ١٣٧٥ هـ ١٩٥٥ – ١٩٥٩ م.
- صفة بلاد اليمن، ومكة وبعض الحجاز (أو تاريخ المستبصر)- ابن المجاور تحقيق اوسكر لوفغرين. ليدن، مطبعة بريل ١٩٥٤.
- صفة جزرة العرب – الهمداني، أبو محمد، الحسن بن أحمد بن يعقوب (٣٣٤ هـ)، تحقيق محمد بن عبد الله بن بليهد النجدي، مطبعة السعاد بمصر ١٩٥٣م.
- الصناعتين – العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل – (٣٩٦ هـ)، تحقيق على محمد البجاوي، محمد أبو الفضل ابراهيم. دار احياء الكتب العربية ١٣٧١ هـ/ ١٩٥٢م.
- صورة الأرض – ابن حوقل، أبو القاسم ابن حوقل النصيبي (٣٦٧ هـ) . ط ٢ ليدن، مطبعة بريل ١٩٣٨ م.
- طبقات فحول الشعراء – ابن سلام، أبو عبد الله محمد الجمحي البصري، (٢٣٢هـ). دار المعارف للطباعة والنشر.
- الطبقات الكبرى – ابن سعد، محمد (٢٣٠ هـ) تحقيق أدوارد سخو. ليدن، مطبعة بريل ١٣٢١ هـ.
- الطب النبوي – الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد – (٧٤٨ هـ) ، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٨٠ هـ – ١٩٦١ م.

- العمدة- ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن (٤٦٣ هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. مطبعة حجازي ١٣٥٧ / ١٩٣٤م.
- العين – الخليل بن أحمد الفراهيدي ١٧٥ هـ ونسب إلى الليث. تحقيق الأب انستاس ماري الكرملي. بغداد مطبعة دار الأيام ١٩١٧ م.
- عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير – ابن سيد الناس – (٧٣٤ هـ) القاهرة مكتبة القدسي ١٣٥٦.
- عيون الأخبار – ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (٢٧٦ هـ) القاهرة، دار الكتب المصرية ١٣٤٣ – ١٣٤٩هـ/ ١٩٢٥ – ١٩٣٠م،
- غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب –السجستاني، أبو بكر محمد عزيز (٣٣٠ هـ). مطبعة محمد علي صبيح بمصر ١٣٧٢ هـ ١٩٥٢م.
- الفصيح، ثعلب أبو العباس، أحمد بن يحيى (٢٩١ هـ) مخطوط، بغداد، معهد الدراسات الاسلامية رقم ١٧٣.
- فقة اللغة وسر العربية – الثعالبي أبو منصور عبد الملك بن محمد النيسابوري (٤٢٩ هـ) تحقيق مصطفى السقا، وابراهيم الإبياري، وعبد الحفيظ شلبي. القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٧ هـ/ ١٩٣٨ م.
- الفهرست: ابن النديم، محمد بن إسحاق – (نحو ٣٨٧ هـ). القاهرة مطبعة الاستقامة.

- في طريق الميثولوجيا عند العرب - الحوت محمود سليم – بيروت ١٩٥٥.
- قاموس الكتاب المقدس – ترجمة وتـأليف الـدكتور جـورج بوسـت. بـيروت المطبعة الأمريكية ١٩٠١.
- قشرة الأرض – محمد صفي الدين ، مصر دار الطباعة ١٩٥٧م.
- قطعة من كتاب الجغرفي، مجهول من أهـل القـرى للهجـرة ، مخطـوط، مكتبـة الدراسات العليا. بغداد رقم ٣٣٤.
- لسان العرب– ابن منظور، أبو الفضـل جمـال الـدين ابـن مكـرم (٧١١ هـــ)، بولاق المطبعة الأميرية ١٣٠٠ هـ
- لسان الميزان – ابن حجر أحمد بن علي المتوفى سنة ٨٥٢ هـ. حيد ابـاد الـدكن ، م\طبعة دائرة المعارف ١٣٣٠-١٣٣١هـ.
- اللغات في القرآن – ابن عباس، عبد الله، تحقيق صلاح الـدين المنجـد، مطبعـة الرسالة ١٩٤٦.
- متشابهات القرآن- ابن شهر أشوب . محمد بن علي المازندراني. إيران، مطبعـة شركة سامي ١٣٢٨هـ.
- المثالب، ابن الكلبي، أبو المنذر، هشام ابن السائب (٢٠٤ هــ) بغـداد، مكتبـة معهد الدراست العليا رقم ١٢٤.
- مجالس ثعلب: ثعلب، أبو العبـاس أحمـد بـن يحيـى (٢٩١ هــ)، تحقيـق عبـد السلام محمد هارون. القاهرة دار المعارف ١٩٦٠.

- مجالس العلماء – الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق (٣٤٠ هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون. الكويت، وزارة الإرشاد والانباء ١٩٦٢.
- مجمع الأمثال الميداني، أبو الفضل محمد (٥١٨ هـ) القاهرة، ١٣٥٢ – ١٣٥٣ هـ.
- المحاسن – البرقي، أبو جعفر أحمد بن خالد، نشر محمد كاظم الكتبي. النجف الأكبر، المطبعة الحيدرية ١٣٨٣هـ.
- المحاسن والأضداد الجاحظ، ابو عثمان بن عمرو بن بحر (٢٥٠هـ) تصحيح محمد أمين الخانجي. المطبعة الجمالية.
- محاضرات في تاريخ العرب – العلي، صالح أحمد. بغداد مطبعة المعارف ١٩٥٩
- المحبر – ابن حبيب أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية البغدادي، ٢٤٥ هـ تحقيق الدكتور ايلزة ليحتن ستيستر بحيدر آباد الدكن. مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية ١٣٦١ – ١٩٤٢
- المحكم – ابن سيدة، علي بن اسماعيل (٤٥٨ هـ). تحقيق مصطفى السقا حسين نصار. مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٨ م ١٣٧٧ هـ ج ٢، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ١٩٥٨ – ١٣٧٧ مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي.
- مختصر البلدان – ابن الفقيه، أبو بكر. أحمد بن ابراهيم (٣٦٥هـ)، ليدن، مطبعة بريل ١٣٠٢.
- المزهر في علوم اللغة العربية – السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين (٩١١ هـ)،

تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرون، مصر دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٨ م – ١٣٧٨ هـ.

- مسائل منثورة– الرسي، القاسم بن إبراهيم (٢٤٦هـ) مخطوطات المتحف البريطاني رقم ٢٠٣.
- المسالك والممالك – ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله– (٣٠٠هـ)، ليدن، مطبعة بيرل ١٨٨٩.
- المستقصى من أمثال العرب – الزمخشري: جار الله محمود بن عمر – (٥٣٨هـ)، تحقيق محمد عبد الرحمن خان. حيدر آباد الدكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ١٩٦٢ – ١٣٨١ هـ
- المسلسل في غريب لغة العرب – التميمي – أبو الطاهر محمد بن يوسف بن عبد الله – (٦٣٨ هـ) تحقيق محمد عبد الجواد. مصر ـ وزارة الثقافة والإرشاد القومي
- مسند الإمام أحمد بن محمد بن حنبل – ٤٢١ هـ
- مشاهد القيامة في القرآن الكريم – سيد قطب، القاهرة ١٩٦٠
- المفضليات/ المفضل الضبي، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبدالسلام محمد هارون ط ٢ القاهرة دار المعارف ١٩٦٤ .
- معاني القرآن – الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد سنة (٢٠٧). تحقيق أحمد

يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار.

- الدخيل في اللغة العربية – فؤاد حسين علي، مجلة الآداب المجلد ١١ ج ١ مايو سنة ١٩٤٩ م ، مطبعة فؤاد الأول ١٩٤٩م.

- ذيل الألفاظ السريانية في المعاجم العربية – مار اغناطيوس، أفرام الاول بوصوم. مجلة المجمع العلمي العربي م ٢٦ ج ٤ لسنة ١٩٥١.

الكتب الأجنبية:

- Arabic English lexicon. Edward William lane. Edinburgh, England, ١٩٥٦
- Encyeycogbaepin of islam , vol. I eb leiden brill ١٩٦٠
- Enyclopaedia of religion and ethics, art religion of the semitec smith vol
- Traveles in Arabia desert, Charles , m doughty. London. ١٩٣٦

الفهرس الأحاديث الشريفة

فهرس الأشعار

فهرس الأعلام

فهرس التعابير القرانية

الكلمة	الآية	رقم الصفحة
الأساور	﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۚ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ سورة الكهف ٣١	٣١٩
أعمى	﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ سورة طه ١٢٤	١٦٠
انشقت	﴿ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ سورة الحاقة١٦	
الأغلال	﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ سورة غافر ٧٠-٧٣	٢٧٠
أنهار خمر	﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ الصافات ٤٥	٣١٠
أنهار العسل	﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ النحل ٦٩-٧٠	٣١٤
الاغلال	﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ سورة غافر ٧٠-٧٣	٢٧٢

ومن كان في هذه أعمى	﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ سورة الاسراء ٧٢ ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ سورة طه ١٢٤	١٦١
إقناع الرؤوس	﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ ابراهيم ٤٢ -٤٣	١٣١
انتثرت	﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ (١) وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾ سورة الانفطار ١-٢	٩٧
انفطار السماء	﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ سورة الانفطار ١	٨٩
أنهار اللبن	﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ ﴾ سورة محمد ١٤	٣٠١
برد	﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا (٢٢) لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا (٢٣) لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ سورة النبأ ٢١- ٢٥	٢٤٨
باسرة	﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ سورة القيامة ٢٤-٢٥	١٢٢
برق البصر	﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ (١) وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ (٣) بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ (٤) بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴾	

بس الجبال	﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ طه ١٠٥-١٠٧ ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾ سورة الواقعة ٢-٥	٨٠
تبـيض وجوه	﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ سورة آل عمران ١٠٦-١٠٧	١٣٧
تسود	﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ سورة آل عمران ١٠٦-١٠٧	١٣٧
تشقق الأرض	﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ سورة الانفطار ١-٥	٦٩
	﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ سورة ق ٤٢-٤٥	٤٢
التناد	﴿ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ ﴾ سورة غافر ٣٢	٤٧
تمور السماء	﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ سورة الطور ٩-١١	٩٤

الجحيم	﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ سورة الواقعة٩٢-٩٤	٢٢١
جراد منشر	﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ سورة القمر ٧	١١٦
جمالات	﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) ﴾ المرسلات ٣٢-٣٣	٢٣٧
الجنة	﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾ سورة الغاشية ٨-١١	٢٨١
جهنم	وردت في مواضع كثيرة ،غي لإحدى وعشرين آية و مائة المعجم المغهرس ٧٢٣- ٧٢٥	٢١٩
حرير	﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) ﴾ سورة الانسان ١٢	٣١٨
حميم	﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ سورة محمد ١٥	٢٤٥، ٢٤٦
	﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ سورة الواقعة ١٥-٥٦	٧٠
خاشعة أبصارهم	﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ سورة القلم ٤٣	١٣٣
رؤوس الشياطين	﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) ﴾ سورة الصافات ٦٥	٢٦٢

خضر	﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ سورة الرحمن ٧٦	٧٦
الداعي	﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ سورة القمر ٨	٣٢-٤٢
دكت الجبال	﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾ سورة الحاقة ١٤	٧٤-٨٧
الدهان	﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ سورة الرحمن ٣٧	٨٨
ذرة	﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ سورة الزلزلة ٧	١٩٩-٢٠٠
الراجفة	﴿ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴾ سورة النازعات ٤-٦	٦٩
رؤوس الشياطين	﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾ سورة الصافات ٦٥-٦٨	٢٦٢
الرجة	﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾ سورة الواقعة ١-٥	٦٩
الزخرة	﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ سورة النازعات ٦-١٤	٥٤
زرق	﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ	١٥٧

شفاعة	﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ سورة البقرة ٤٨	
الشمال	﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ ﴾ سورة الواقعة ٤٤	
الصُّور	﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ سورة ق ١٩	٢٧-٣٥
الصيحة	﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ ﴾ سورة ص ١٥	٦٠
السعير	﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ سورة القمر ٤٦-٤٨	٢٢٥،٢٢٢
سقر	﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ ﴾ سورة المدثر ٢٦-٢٩	
السلاسل	﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴾ سورة الانسان ٤	٢٢٥
شواظ	﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ سورة الرحمن ٣٥	٢٢٩
صديد	﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ سورة ابراهيم ١٥-١٧	٢٤٧
الصيحة	﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً	٥٢

	وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ سورة يس ٤٨-٥٣	
ضريع	﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ ﴾ سورة الغاشية ٢-٦	٢٥٥
طعام	﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ ﴾ سورة المزمل ١٢-١٣	٢٦٦
طمس النجوم	﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ ﴾ سورة المرسلات ٨-٩	٩٢
ظل	﴿ انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ سورة المرسلات ٢٩-٣٢	٢٣٣
عدل	﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ سورة البقرة ٤٨	١٩٢
	﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ سورة الأنعام ٧٠	
العهن	﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ ﴾	٨١

	سورة المعارج ٨-٩	
الغساق	﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ سورة النبأ ٢٥	٢٨٩
فاقرة	﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) ﴾ سورة القيامة ٢٤-٢٥	١٢٢
فداء	﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٩١) ﴾ سورة ال عمران ٩١	١٨٥
	﴿ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ (١٦) ﴾ سورة الشورى ١٢-١٦	
فدية	﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥) ﴾ سورة الحديد ١٥	١٨٦
فراش مبثوث	﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) ﴾ سورة القارعة ٤	١١٧
فطر السماء	﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ سورة الانفطار ١-٥	٩٧
	﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨) ﴾ سورة المزمل ١٧-١٨	
فواق	﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ (١٥) ﴾ سورة ص ١٥	٥٩

قطران	﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾ سورة ابراهيم ٤٩-٥٠	٢٩٤
فواق	﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴿١٥﴾ ﴾ سورة ص ١٥	٦٠
قترة	﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٕٖ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٖ شَأْنٞ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٞ يَوْمَئِذٖ مُّسْفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسْتَبْشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾ سورة عبس ٣٣-٤٢	٤٩١
كثيبا مهيلا	﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ﴿١٢﴾ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾ سورة المزمل ١١-١٤	٨٦
الماء	﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٖ وَأَنْهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٞ مِّنْ خَمْرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٞ مِّنْ عَسَلٖ مُّصَفّٗى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾ سورة محمد ١٥	٢٩٢
مدهامتان	﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ سورة الرحمن ٦٢-٦٤	٢٨٧
مر السحاب	﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةٗ ﴾ سورة الكهف ٤٧	٧٤
مسفرة	﴿ وُجُوهٞ يَوْمَئِذٖ مُّسْفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسْتَبْشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ ﴾ سورة عبس ٣٨-٤١	١٦٨

الموازين	﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ سورة المؤمنون ١٠١-١٠٣	١٩٣
	﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ سورة الاعراف ٨-٩	
المور	﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ سورة الطور ٩-١١	٨٧
مهطعو رؤوسهم	﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ سورة ابراهيم ٤٣	١٢٨
المهل	﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ سورة المعارج ٦-١٠	٢٤٨
	﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ سورة الكهف ٢٩	
	﴿ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ ﴾ سورة المعارج ٧-١١	
المنادي	﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾	٤٢-٥٥

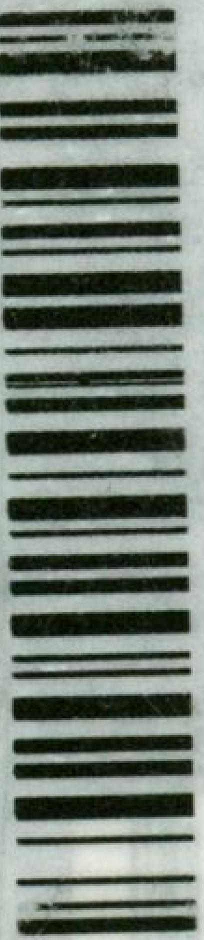
	يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣)﴾ سورة غافر ٣٠-٣٣	
	﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢)﴾ سورة ق ٤١-٤٢	
	﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨)﴾ سورة طه ١٠٨	
	﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧) مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ سورة القمر ٦-٨	
ناضرة	﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ سورة القيامة ٢٠-٢٥	١٦٨
الناقور	﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ سورة المدثر ٨-١٦	٢١-٢٩
نسف الجبال	﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ سورة طه ١٠٥-١٠٧	٧٨
وردة كالدهان	﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ سورة الرحمن ٣٧	٨٨

الهاوية	﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ سورة القارعة ٦-١١	٢١٩
همس	﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ سورة طه ١٠٨	١٤٥
الهيم	﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ سورة الواقعة ٥١-٥٦	٢٥٠
يحموم	﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾ سورة الواقعة ٤١-٤٢	٢٣٢
يبلس المجرمون	﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) ﴾ سورة الروم ١٢	١٢١
ينسلون	﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ سورة يس ٥٢	١١١
يوفضون	﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ سورة المعارج ٤٣	١١٢

التعابير القرآنية في مشاهد يوم القيامة

دراسة دلالية جمالية









دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع
المملكة الأردنية الهاشمية - عمّان - شارع الملك حسين
مجمع الفحيص التجاري - هاتف: 4611169 6 962+
تلفاكس: 4612190 6 962+ ص.ب 922762 عمّان 11192 الأردن
E-mail: safa@darsafa.net www.darsafa.net